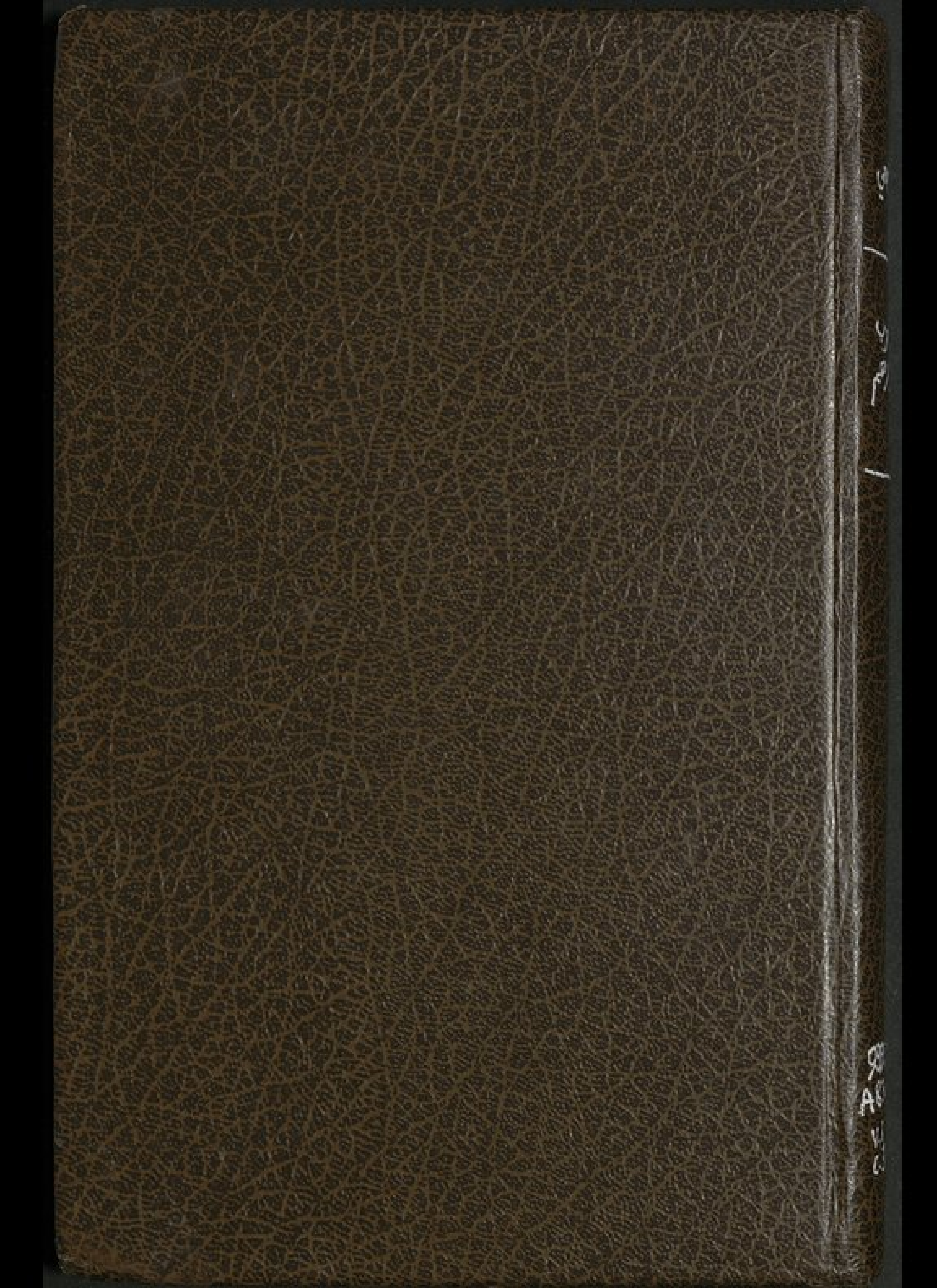
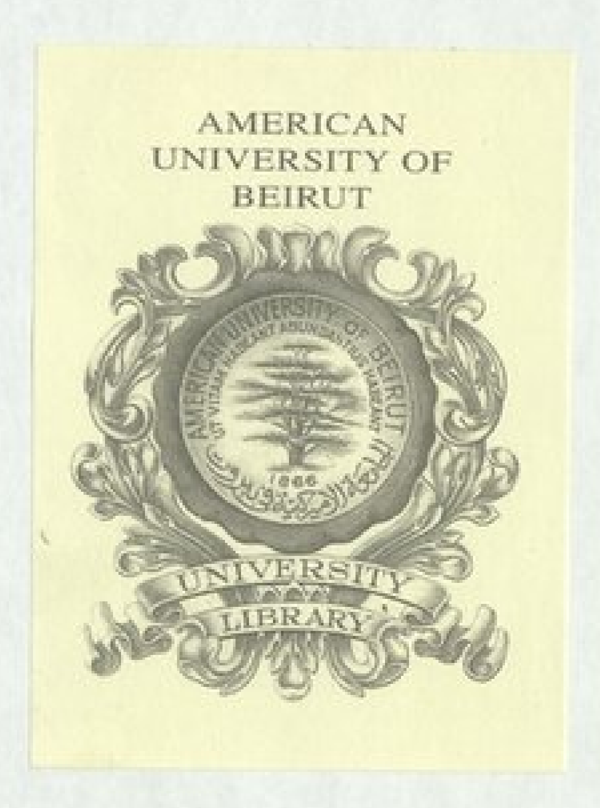



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY



العرب واطوارهم

طور العرب والعربية في اطوار الجاهلية

تأليف

محمد عبد الجواد الاصمعي

الجزء الاول

نشر بعضه في جريدتي «المؤيد» و«العلم» بامضاء «الاصمعي»

ويباع بمكتبة «سوق عكاظ» لصاحبها «منصور عبد المتعال بالازهر»

ياوارد اليم يروى من طوامشه * يغنى عن اليم ما يهمى به الأدب
فاستقبل الفضل في سفر كأن على * آيائه نسخت (أطوارها العرب)

«عبد الحليم حلمي المصري»

طبع بمطبعة الجمالية ـ بمصر



اهداء الكتاب

الى مشيّد دعائم الأدب ، ومحيي مآثر العرب

صاحب السعادة المفضال الأفخم الأستاذ « أحمد زكى باشا »

كاتب أسرار مجلس النظار

أهدي الى سعادتكم كتابي هذا الموسوم باسم « العرب وأطوارهم » الذي قد حوى كثيراً من ضروب جليل آثار العرب التالدة ، وجميل مآثرهم الخالدة ، ومكارم أخلاقهم الحميدة ، ومحاسن صفاتهم المجيدة ، وعاداتهم الكاملة ، وآدابهم الفاضلة ، مما يوقظ الأفكار من سُباتها ، وينبه العقول من غفلاتها ، ويجذب حديد الأفئدة بمغناطيس عباراته ، ويستجلب القلوب بلطيف رقائق اشاراته ، وهو منهل عذب سائغ للواردين ، وروضة أدب للنابغين من الناشئين ، ولما يشف عنه تاريخ حياتكم من تشييد دعائم الأدب وتخليد مآثر العرب ، وإحياء محاسن آدابهم السامية ، وعظيم أعمالهم الراقية ، وما لكم فى كل أوب من مضمار الفنون من الأيادي البيضاء ، والخدم الزهراء ، التى لا ينقطع أمدها ، ولا ينقضى مددها ، وما أنتم عليه من كرم السجايا ، وشرف المزايا ، كان جديراً بأن يهدى الى سعادتكم ليكون لى الفخر لأني قد أعطيت القوس باريها ، وسلمت السهم لابن بَجْدَته ، ونهاية المأمول ، أن تتفضل بالقبول ، ليكون لهذا السفر المنزلة العظمى التى أرجوها فى نظر الامة وأكون واثقاً بافادته الفائدة التى أعناها من خدمة الأمة المصرية خصوصاً والعربية عموماً ؟

محمد عبد الجواد الاصمعى



صاحب السعادة المفضال أحمد زكي باشا

كاتب أسرار مجلس النظار

«أزكيُّ» يارب الفضائل والنهى

وأجلّ من يعزي اليه فخارها

ان شئت تعجب بالرجال فهذه

«عرب» النجاد وهذه «أطوارها»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يقول راجي منهج الرشاد ٭ محمد بن عابد الجواد ﴾

(حمداً لك) يامن جعلت «أمة العرب» خير الأمم وأفصح الأناس . إذقلت (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وأفضت عليهم سيل البلاغة والشجاعة وكريم العادات . وغرست فيهم حب الحرية والاستقلال ومحاسن الصفات . وجعلتهم شعوباً وقبائل . للتعرف بوسائل الارتباط وأي وسائل . وخصصتهم بالخطاب المعجز . واللفظ البليغ الموجز . والسؤال الشافي . والجواب الكافي (وشكراً لك) يامن جعلت أساطير «العرب» الأولين . تبصرة وذكرى للأمم الآخرين . وخلقت الخلق بحكمتك «أطواراً» ليعبدوك ليلا ونهاراً . وعلمت بالقلم . علمت الانسان مالم يعلم (وصلاة وسلاماً) على أشرف العجم والعرب . ومعدن العلم والادب . سيدنا محمد رسولك الاكرم الذي كان مفحما[1] باللسان الضادي كل مضادي . ومفخما[2] لاتشينه العجمة والهجنة والضوادي[3] وكشف أستار الظلام بأنواره الساطعة . وأقام أعمدة دينه بحججه البينة القاطعة . وعلى آله وأصحابه ذوي الفصاحة والبلاغة . ماتسابق في ميدان البيان فرسان البراعة . وما ناح[4] الحمام الشادي[5] بوكره .

(١) مفحما بالحاء المهملة من أفحم أي معجزا (٢) مفخما بالخاء المعجمة أي معظما
(٣) الضوادي بالضاد المعجمة الكلام القبيح أو ما يتعلل به (٤) ناح أي سجع وهدر
(٥) الشادى من شدا يشدو اذا ترنم وغنى .

وصاح بالأنعام الحادي بسيره[١] :

﴿ وبعد ﴾ فإني وجدت كثيراً من الناس في هذا الزمن ينكرون فضل العرب ومآثرهم الجميلة . وآثارهم الجليلة . وما كانوا عليه من الاخلاق الكريمة . والصفات الحميدة . والعادات العظيمة . وغير ذلك . وما ذاك الا لأنهم يجهلون أو يتجاهلون تاريخ العرب الذين هم مصدر كل فضل . وأرومة[٢] كل مكرمة . ومعدن التمدن والحضارة . ومنبع الذلاقة[٣] والمهارة . والذين هم أمراء الكلام ومعادن العلوم والأحكام . وهم ليوث الحرب . وغيوث الكرب . والرفد[٤] في الجذب . وهم أهل الشجاعة والصراحة والعزة والسخاء . وأهل المروءة والكرم وجميل الشيم والحياء . وأهل القناعة والحلم والصدق والوفاء . وهكذا من باقي الصفات التي سأسردها ان شاء موجد الاشياء :

وليت شعري كيف جهلوا أو تجاهلوا تاريخ قوم هم أصح الناس أفهاما . وأحدهم أذهانا . قد ابتكروا من الآداب أحسنها . ومن الخصال أجلها . ومن الصفات أكملها . ومن العادات أعظمها . ومن الفصاحة أبلغها . ومن المعاني أغربها . والذين قد حنكتهم التجارب . فقضوا منها المآرب . ولهجت ألسنتهم بالوعد وانبسطت أيديهم بالانجاز . فأحسنوا المقال . وشفعوه بحسن الفعال . ولبسوا من المجد ثوباً سندسيّ الطراز . كانوا يغسلون من العار

(١) الحادي من حدا الابل كدعا يحدوها اذا ساقها وغنى لها ليحصل لها نشاط وارتياح في السير . والمراد بهذه الجمل طول الأمد الذي لانهاية له لان الكون لايخلو عن بلغاء الكتاب . ما توالت الأحقاب . ولا عن تسجيع الحمام . وسوق الحادي ابله بالانغام .
(٢) وأرومة هي الاصل وفي حديث عمير بن أفصى «أنا من العرب في أرومة بنائها» اهـ لسان
(٣) الذلاقة هي فصاحة اللسان (٤) الرفد بالكسر العطاء والصلة والاعانة . اهـ لسان

وجوهاً مسودّة . ويفتحون أبواباً منسدّة . وكان الفهم منهم ذا أذنين . والجواب ذا لسانين . يضربون هامات الابطال . ويعرفون حقوق الرجال :

لذلك دفعتني الحميّة الى أن أسطر على صفحات « المؤيد » مآثر هذه الامة الجليلة . من الاخلاق الكريمة . والآداب الجميلة . والصفات الحميدة . والعادات العظيمة . مع مقارنتي في ذلك بين حالتهم الغابرة . وحالتنا الحاضرة . مستشهداً على ذلك بجيد دررهم المنظومة . وغرر حكمهم المنثورة . فضلا عما أسرده في هذا السفر اتماما للفائدة من ضروب ما كان عندهم من الصياصي (١) والصروح والآثارات . التي أثبتها علماء التاريخ الحديث بالاكتشافات . وما كانوا يعتقدونه من الرموز والتخيلات . وما قد أخذه عنهم فرنجة اليوم من التمدن والعادات . وهكذا كسر دما كانوا يعرفونه من العلوم والديانات . وذكر أنديتهم الادبية وما ألقي فيها من المعلقات . وسرد الخطب والخطباء . والشعر والشعراء . وغير ذلك :

واني وان لم أكن من فرسان هذا الميدان . ولا من أرباب ذلك الشان . ولكن التجائي الى فضل الله تعالى جرأني ان أذكر ذلك تنبيها للغافلين بمآثرهم الخالدة الباهرة . وارشاداً للجاهلين بمحاسنهم العاطرة الزاهرة . واظهاراً للجاحدين بمجدهم الرفيع وحضاراتهم . وتعريفاً للكاشحين بأخلاقهم الفاضلة وعاداتهم . التي لا ينكرها الا الجاهل الذي يعميه الغرض . ولا يجحدها الا مَنْ كان في قلبه مرض . ورداً على هؤلاء القوم الذين طالما نشروا في جرائدهم . وتشدقوا في أقوالهم . وتثرثروا في مقالاتهم . ولكن (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا)

فنشرت في « المؤيد » عدة مقالات تحت عنوان (العرب وأطوارهم)

(١) الصياصي الحصون . ومنه قوله تعالى (من صياصيهم) أي من حصونهم التي تحصنوا بها

بامضاء « الأصمعي » وكان من حسن طالعها لمطالعها . أن قد سطعت أنوار بدورها . واستضاءت شمس ظهورها . في عصر مليكنا الاعظم . وخديونا الافخم المحفوظ بالروح الالهي والسبع المثاني (مولانا عباس باشا حلمي الثاني) أدامه الله ظلا ظليلا . ومنحه عمراً طويلا .

وناهيك أيها القاريء اللبيب بما قد كان لهذه المقالات بعون الله تعالى من الدويّ والرنين . مما لم يكن الا لأبدع كتابات أكابر المنشئين . وأجود منشآت فطاحل الكاتبين . على صفحات الجرائد الغراء . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولو كره الجاهلون . وتمشدق المتفيهقون بما لا يعلمون :

ولا غَرْوَ في ذلك فقد توالت علينا الرسائل من كل فج عميق بجمع هذه المقالات وطبعها في سِفْر واحد ليكون مناراً يهتدي اليه من جهل تاريخ العرب أو تجاهله « فأجبت » دعوتهم في ذلك وقد أضفت اليها كثيراً من المقالات التي لم تنشر في هذا الموضوع لاشتغالي اذ ذاك بالدروس . وهي قد كانت مسطرة في الطروس .

ومنذ أشار « المؤيد » لهذا النبأ [1] ورد عليّ بعض رسائل فحواها أن أنشر فلذةً من هذه المقالات التي لم تنشر فلبيت دعوة الكاتبين في ذلك . ونشرت هذه الفلذة في « المؤيد » [2] وكانت بشأن اللغة العربية في حالتنا الحاضرة . لأني بعد أن تكلمتُ على لغة العرب ونشأتها وثروتها ومبلغ حياتها الخ استطردت الكلام على حالتها في هذا العصر كما هو دأبي فيما أسطره

(١) نشر هذا النبأ بعدد (٦٥٩٥) الصادر في يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ١٣٣٠

(٢) نشرت هذه الفلذة بعدد (٦٦٠٧) الصادر في مساء الاثنين بتاريخ ٢ ربيع أول سنة ١٣٣٠ هـ

عن العرب :

وحسبك أيها القارئ بما قد كان لهذه المقالة من التأثير العظيم على أبناء هذه اللغة الشريفة والناطقين بها سيما سعادة الجليل ناظر المعارف (أحمد حشمت باشا) حيث انه قد توجه الى مدرسة (دار العلوم) في يوم الثلاثاء ٢ ربيع أول سنة ١٣٣٠ هـ [١] وجمع المعلمين بغرفة الناظر وتحدث معهم حديثاً طويلا بشأن اللغة العربية فى حالتنا الحاضرة. ومن كلامه لهم كما أنبأ بذلك أحد أفاضل معلمي المدرسة وقد نشر في «المؤيد» (كيف تكون كذلك «أي أنها مشرفة على الهلاك» وأنتم المطلوب منكم خدمتها واحياؤها ورفع شأنها . . . الخ) كما أشرت الى ذلك في تلك الفلذة بحالتها في هذا العصر . وقد نشر هذا الخبر في (المؤيد) تحت عنوان (لمثل هذا فليعمل العاملون) بسبب هذه المقالة فراجعه ثمة ان شئت [٢]

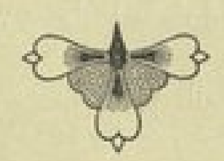
وقد جعلت هذا السفر على عدة أجزاء . فجعلت طورهم في عصر الجاهلية في جزءين. وجعلت طورهم فى عصر الاسلام وما بعده في ثلاثة أجزاء (وقد) عزمت بعون الله تعالى على أنني لا أترك شاردة ولا واردة مما كان عندهم من العادات الجليلة . والاخلاق الجميلة . والصفات الكريمة . ومن اشتهروا بها وما كان لهم من المآثر الباهرة والمجد والسؤدد والتمدن والحضارة والعلوم والآثار وغير ذلك مما ذكرته لك آنفاً فى هذه الخطبة . الا وأسردها ان شاء الله تعالى فى هذا السفر . وما قد أخذه عنهم فرنجة اليوم مما تروق بأنبائه معانيه . ليكون بحمد الله مبشراً بالحق وذويه .

(١) هذا اليوم هو الذي نشرت بتاريخه المقالة وكانت قد صدرت في مساء الاثنين

(٢) راجع عدد (٦٦١٠) الصادر في ٥ ربيع أول سنة ١٣٣٠

فأمعن نظرك أيها القارئ فيه . وقل ذلك فضل الله يؤتيه *وهذا هو الجزء الاول من هذا السفر . ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بتميم باقي الاجزاء . انه سميع مجيب الدعاء . وهو الهادي الى أقوم طريق . وبه الاعانة وحسن التوفيق . م

(محمد عبد الجواد)



مقدمة

الامة العربية

العرب أمة عظيمة عريقة [١] في القدم. وفي الرياسة في الأمم. طائرة الصيت في الآفاق. قد نالت من العز والمنعة مجداً أثيلاً. حتى بلغت من العظمة وسموّ المنزلة مالم يبلغه غيرها من الأمم المضروب بها الامثال. فكانت المملكة العربية زمن سطوتها معمورة بالمدائن الكبيرة. والمعاقل [٢] الشهيرة والقصور الرفيعة. والبروج [٣] المنيعة. والابنية الباذخة. والصروح [٤] الشامخة. [٥] والممالك القديمة. والآثار العظيمة. مثل بينون [٦] وغمدان [٧]

(١) عريقة أي أصيلة (٢) المعاقل جمع معقل وهو الملجأ (٣) والبروج جمع برج بضم الباء وهو الحصن ومنه قوله تعالى (ولو كنتم في بروج مشيدة) (٤) والصروح جمع صرح وهو القصر ومنه قوله تعالى (انه صرح ممرد من قوارير) (٥) الشامخة الشاهقة وهي المرتفعة (٦) بينون اسم قصر عظيم كان باليمن قرب صنعاء. وهو من بناء بعض التبابعة وله ذكر في أخبار حمير وأشعارهم. قال الشاعر الحميري

يابنت قيل معافر لا تسخري * ثم اعذريني بعد ذلك أوذري
أولا ترين وكل شيء هالك * بينون هالكة كان لم تعمر
أولا ترين وكل شيء هالك * سلحين مدبرة كظهر الادبر
أولا ترين ملوك ناعط أصبحوا * تسفي عليهم كل ريح صرصر
أوماسمعت بحمير وملوكهم * أمست معطلة مساكن حمير
فابكيهمو أوما بكيت لمعشر * لله درك حميراً من معشر

(٧) وغمدان بضم الغين المعجمة وسكون الميم كما في لسان العرب. هو قصر بصنعاء اليمن بناه اليشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ جد بلقيس أحد ملوكها وجعله على أربعة أوجه.

وناعط [١]

أحمر وأبيض وأصفر وأخضر وجعل على كل ركن من أركانه تمثال أسد من أعظم ما يكون من الاسد فكانت الريح اذا هبت الى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت في جوفه فيسمع لها زئير كزئير السباع · وكان يشتمل على عشرين طبقة غرفاً بعضها فوق بعض بين كل طبقتين عشرة أذرع وكانت غرفه تسمى بالمحاريب وتحتوى على مالا يوصف من الزخارف الجميلة · وجعل غرفة الرأس العليا مجلسا بناها بالرخام الملون وجعل سقفها رخامة واحدة · وكان لها أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب وعند كل باب منها تمثال من نحاس اذا هبت الريح زأر · وكان فيها مقيل من الساج والابنوس. وفيها ستور لها أجراس اذا ضربت الريح تلك الستور تسمع أصوات الاجراس عن بعد · وكان يأمر بالمصابيح فتسرج في ذلك القصر فكان سائره يلمع كما يلمع البرق فاذا أشرف عليه انسان من بعض الطرق ظنه برقا ولا يعلم ان ذلك ضوء المصابيح · وقال فيه اليشرح شعراً بالحميرية بقي منه هذا البيت :

وانى أنا القيل اليشرح * حصنك غمدان بيهمت

(حصنك) أي حصنت (بيهمت) أى بهمتي · وقال فيه ذوجدن الهمداني

وهذا المال ينفد كل يوم * لنزل الضيف أوصلة الحقوق
وغمدان الذي حدثت عنه * بناه مشيداً في رأس نيق
بمرمرة وأعلاه رخام * تحام لايغيب بالشقوق
مصابيح السليط يلحن فيه * اذا يمسي كتوماض البروق
فأضحى بعد جدته رماداً * وغير حسنه لهب الحريق

(ومما قيل في وصف غمدان)

يسمو الى كبد السماء مصعداً * عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة * ومن الغمام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخره * والجزع بين صروحه والمرمر

وظل باقيا هذا القصر الى أن هدم في أيام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه كما قال المسعودي وشارح القاموس وغيرهما اه

(١) وناعط هو محفد مؤلف من عدة قصور · يلي غمدان في العظمة والشهرة قال الهمداني في

وريدة (١) والخورنق (٢)

وصفه «انه مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل شين بهمدان» قال لبيد :

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط * بمستمع دون السماء ومنظر
وأعوض بالدومي من رأس حصنه * وأنزلن بالاسباب رب المشقر

أراد بالدومي أكيدراً صاحب دومة الجندل وقال الهمداني بعد أن ذكر مافيها من القصور . وما فيها قصر الا وتحته كريف «صهريج» للماء مجوف في الصخر فيبتلع الماء الذي ينزل من السطح وفيه الاسطوانات العظيمة طول كل واحدة نيف وعشرون ذراعا لايحضن الواحدة منها الارجلان (فهوأشبه بما ينقره أهل التمدن الحديث من الانفاق في الجبال لمرور المياه أو قطر السكك الحديدية) . وفيها يقول الهمداني على حد الخبرة ورأي العين ويصف ماشاهده عليهامن التماثيل والصور

فمن كان ذا جهل بأيام حمير * وآثارهم في الارض فليأت ناعطا
يجد عمداً تعلو القنا مرمرية * وكرسي رخام حولها وبلائطا
ملاحكها لاينفذ الماء بينها * ومبهومة مثل القراح خرائطا
على كرف من تحتها ومصانع * لها بسقوف السطح لبس وعابطا
ترى كل تمثال عليها وصورة * سباعاً ووحشاً في الصفاح خلائطا
نجانب ماتنفك تنظر قابضاً * لاحدى يديه في الحبال وباسطا
ومستفعات من عقاب وأجدل * على أرنب هم ذا فراخ وقامطا
وسرب ظباء قد نهلن لمختف * وغضف ضراء قد تعلقن باسطا
وذا عقدة بين الجياد مواكباً * وسامي هاد للركاب مواخطا

(١) وريدة أو تلفم قصر باليمن قال الهمداني (قصر ريدة من أقدم قصور اليمن وهو قصر تلفم ولبس من قصور اليمن في جبله بئر سوى تلفم وماؤها أعظم مياه اليمن وأغزرها) قال (وحدثني بعض أهله أنه وجد حجراً في تلفم مكتوبا عليه بناه ريم) وأصبح هذا القصر بعد الاسلام داراً للعلويين اه

(٢) والخورنق اسم قصر بالعراق فارسي معرب كذا في لسان العرب ولم يعين الجهة التي

والسدير [(١)]

بها هذا القصر فقال ابن السكيت وغيره انه قصر بظهر الحيرة (وهي بالعراق) بناه سنمار (بكسر السين المهملة والنون وتشديد الميم على وزن طرماح وهو اسم رجل رومي) للنعمان الاكبر الاعور السائح ابن امرئ القيس في عشرين سنة ولما فرغ من بنائه تعجبوا منه فقال لو علمت أنكم توفونني أجري لعملته يدور مع الشمس فقال له النعمان وانك لتقدر على ماهو أفضل منه ثم أمر به فألقي من رأس الخورنق فهلك فضربت العرب بجزائه المثل :

وقيل ان بعد بنائه صعد النعمان الاعور على رأسه ونظر الى البحر تجاهه والبر خلفه فرأى الحوت والضب والظبي والنخل فقال مارأيت مثل هذا قط . فقال له سنمار اني أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله فقال أيعرفها غيرك . قال لا . قال لاجرم لادعنها ومايعرفها أحد ثم أمر به فقذف من أعلى القصر الى أسفله فضربت العرب به المثل . وقالت في ذلك أشعاراً كثيرة . منها قول أبي الطمحان القيني :

جزاء سنمار جزوها وربها * وباللات والعزى جزاء المكفر

(وقال سليط بن سعد)

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يجزي سنمار

(وقال عبد العزي)

جزاني جزاه الله شر جزائه * جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوي رصه البنيان عشرين حجة * يعلى عليه بالقراميد والسكب
فلما رأي البنيان تم سحوقه * وراض كمثل الطود والباذخ الصعب
وظن سنمار به كل خيره * وفاز لديه بالكرامة والقرب
فقال اقذفوا بالعلج من رأس شاهق * وذاك لعمر الله من أعظم الخطب

ولهم غير ذلك أمثال وأشعار كثيرة لامحل لذكرها هنا :

(١) والسدير قصر في الحيرة من منازل آل المنذر وابنيتهم (كذا في شرح القاموس) وكان للنعمان الاعور رب الخورنق . وقد ذكرته العرب في أشعارها . وضربت به الامثال في أخبارها . قال الاسود بن يعفر النهشلي

والابلق الفرد[١]

ماذا أؤمل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد اياد
أهل الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذي الشرفات من سنداد

(قال ابن سيده) «محرق لقب ملك وهما محرقان محرق الاول الاكبر وهو امرؤ القيس اللخمى (بن عمرو أبو النعمان الاعور ولقب به لانه أول من عاقب بالنار) ومحرق الثاني وهو عمرو بن هند (ولقب به لانه حرق مائة من بني تميم يوم اوارة تسعة وتسعين من بني دارم وواحدا من البراجم كذا في لسان العرب وشرح القاموس والصحاح والميداني) وقيل لتحريقه نخل ملهم كما في المحكم والشاعر يعنى محرقا الاول الاكبر »

(وقال المتلمس للمحرق عمرو بن هند مضرط الحجارة)

ألك السدير وبارق * ومرابض ولك الخورنق
والقصر ذو الشرفات من * سنداد والنخل المبسق
والتغلبيــــة كلها * والبدو من عان ومطلق
وتظل في دوامة الـ * ـمولود يظلمها تحرق

(وقال المنخل اليشكري من قصيدة)

ولقد شربت من المدا * مة بالصغير وبالكبير * واذا سكرت فانني
رب الخورنق والسدير * واذا صحوت فانني * رب الشويهة والبعير

وهي جملة أبيات . ولهم غير ذلك أشعار كثيرة يطول ذكرها :

(١) والابلق الفرد حصن للسموءل بن عادياء اليهودي مشرف على تيماء . قال ياقوت تيماء بليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق والابلق الفرد حصن السموءل مشرف عليها فلذلك كان يقال لها تيماء اليهود ولما بلغ أهلها سنة ٩ هجرية قدوم النبي صلى الله عليه وسلم الى وادي القرى أرسلوا اليه وصالحوه على الجزية وأقاموا ببلادهم فلما أجلي عمر اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم معهم . وقال بعض الاعراب

الى الله أشكو لا الى الناس انني * بتيماء تيماء اليهود غريب

(وقال الأعشى)

وسلحين [١] وصرواح [٢] وهكر [٣] وغير ذلك مما لا يكاد يحصى :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله * وورد بتيماء اليهوديّ أبلق

(وقال أيضاً)

بالأبلق الفرد من تيماء منزله * حصن حصين وجار غير ختار

(١) وسلحين بفتح السين حصن عظيم باليمن . قال في القاموس (سلحين حصن كان باليمن بني في ثمانين سنة) وسلحين له ذكر في أشعار حمير وأخبارها .

(قال الحميري وهو يذكر مادخل على حمير من الذل)

هونك أين ترد العين مافاتا * لاتهلكن أسفاً في إثر من فاتا

أبعد بينون لاعين ولا أثر * وبعد سلحين يبني الناس أبياتا

(وقال علقمة)

وحصن سلحين قد عفاه * ريب الزمان الذي يريب

تعوي الثعالب في قراها * مافي مساكنها غريب

(وقال أيضاً)

أوما ترين وكل شيء للبلى * سلحين خاوية كأن لم تعمر

(٢) وصرواح بكسر الصاد المهملة وسكون الراء قصر عظيم من أقدم أبنية اليمن مابين صنعاء ومأرب . ذهب قديماً وله ذكر في أشعار العرب قال علقمة :

من يأمن الحدثان بعـ * ـد ملوك صرواح ومأرب

(وقال عمرو بن النعمان بن سعد بن خولان)

أبونا الذي كانت بصرواح داره * وفي جبلي نعمان عز تمكنا

ونحن ورثنا عز خولان ذي الندي * مآثر عز مثلها لم يدمنا

فأورثها سعد بن خولان جدنا * بنيه فضافوها دهوراً وأزمنا

(٣) وهكر بفتح الهاء والكاف قصر باليمن . ولقد كان باليمن قصور كثيرة جمع أبو علكم المراني أهمها في قصيدة . منها :

نحن المقاول والأملاك قد علمت * أهل المواشي بأنا أهل غمدانا

ناهيك أيها القاريء الحاذق بما كان عند العرب غير ذلك من الآثار الجليلة . التي جاء ذكرها في آيات الله الشريفة · وأيدتها الاكتشافات الحديثة وغير القلاع والمصانع (١) وبعضها لا تزال قائمة الى الآن . منها مصنعة وحاطة (٢) وقلعة خدد (٣) :

واتـا رب بينون وأضرعة * والشيد من هكر ناهيك بنيانا
براقش ومعين نحن عامرها * ونحن أرباب صرواح وروثانا
وناعطا نحن شيدنا مخالفها * وقصرها وقري نشق وتوفانا
وتلفم البون والقصرين من خمر * وتنعا وقري شرح ودعانا
والهندتين بني ذو التاج من تبع * وقصر ذي الورد تاما وآس ملحانا
وصبح نحو ونجرا فوق قبتها * بني لنا وشباماً بيت أقيانا
وفي ريام وفي النجدين من مدر * على المنار وحف الشيد ابوانا
وفي ظفار بنت آباؤنا غرفاً * في كوكبان وقصر الملك ريدانا
وقصر بينون علاه وشيده * ذو الفخر عمرو وسوى قصر غمدانا
وقصر أحور أس القيل ذي يزن * وقصر ذي فائش أرباب قد كانا
وقصر سلحين علاه وشيده * كهلان والدنا أحبب بكهلانا
فأصبحت مأرب للريح مخترقا * بعد القصور وبعد الشيد ميدانا
ساق المياه الى سد بمأربنا * للجنتين مغانينا وبغيانا

(١) والمصانع جمع مصنع المباني من القصور والآبار والحصون وغيرها · قال لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع * وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(وقال البعيث)

بني زياد لذكر الله مصنعة * من الحجارة لم ترفع من الطين

(٢) مصنعة وحاطة هي قلعة واسمها سباع تشابه ناعطا في القصور والكرف «الصهاريج» وكريفها اسمه درداع مساحته ٦٠٠ ذراع في مثلها ·

(٣) وقلعة خدد معاندة لقلعة وحاطة بينهما ساعة من نهار وفيها قصر عظيم يقصر عنه

سيما مافي اليمن من آثار الهمة العالية التي تقدم شطر منها والمهارة في البناء من قطع الجبال كما قطعوا باب عدن [١] وبينون [٢] وحصن غراب [٣] وغير ذلك مما يدل على أن العرب أحذق الامم في الصناعات . وأمهرهم في البناء :

ومن عجيب صنع الله تعالى أنه جمع في الأمة العربية من مكارم الاخلاق . وحميد الصفات . وجميل العادات ماتشتت بعضه في صنوف العالم أجمع . فكأين من أمة اختصت بمكرمة واحدة لا يوجد بها سواها الا الأمة العربية فانك لاتجد شاردة ولا واردة من ضروب محاسن الآداب الكاملة . ومكارم الاخلاق الفاضلة . والمآثر الجليلة . والخصال الجميلة . والصفات

الوصف وللقلعة طريقان على باب كل طريق ماء . فالطريق الجنوبي عليه كريف «صهريج» يسمى الوفيت منقور في الصخر الأسود . عمقه في الارض خمسون ذراعا وعرضه عشرون وطوله خمسون . محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه . والماء الثاني من شمال الحصن على باب الحصن الثاني في جوبة من صفا كالبئر مطوي بالبلاط ودرج ينزل فيه من رأس الحصن بالسرج في الليل والنهار على مسيرة ساعة حتي يأتي الى الماء ولا يعلم من يكون في أسفل البئر من فوق :

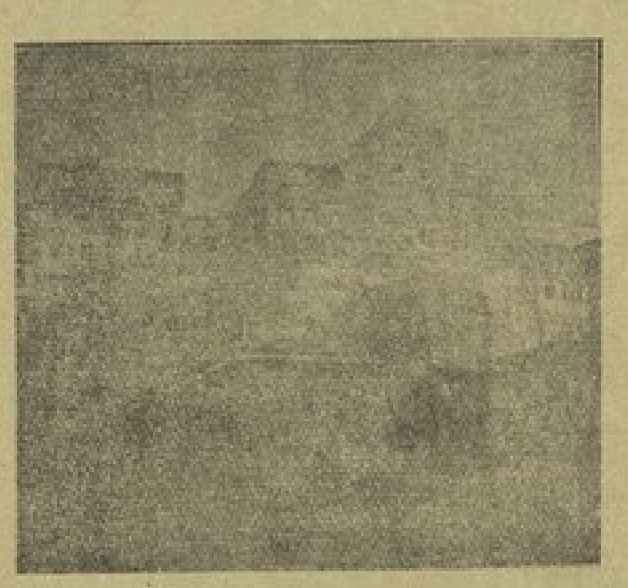
(١) باب عدن هو شق في جبل محيط بموضع عدن في ساحل لم يكن له طريق الى البر الا للرجل الواحد اذا ركب ظهر الجبل فقطعوا من الجبل بابا في عرض الجبل حتى سلكته الدواب والحمائل وغيرهما

(٢) وبينون اسم جبل أيضا قطعه بعض ملوك حمير حتى أخرج فيه سبيلا من بلد وراءه الى أرض بينون . فهو أشبه بما ينقره أهل هذا التمدن الحديث (كما ذكرت لك في ناعط) من الأنفاق في الجبال لمرور المياه أو قطر السكك الحديدية :

(٣) وحصن غراب هو بقية قلعة منحوتة في الصخر عليها نقش بالمسند لفاتح اليمن الحبشي ذكر فيه خبر فتحه . واكتشف المستشرق هريس في هران قرب دامار صهاريج للماء لها آبار عميقة كانوا يختزنون الماء فيها للجند أثناء الحصار . وهي التي يسميها العرب الكرف

الكريمة . والعادات العظيمة التى سأسردها عليك أيها القارىء اللبيب فى هذا السفر الا وقد أخذت منها بالحظ الأوفر والنصيب الأكبر خلقا وخُلقا

(ولنرجع) الآن الى ما كنا فيه من ذكر ما كان للعرب من الاثارات التى ذكروها فى أشعارهم وسردت لك شطراً منها فى هذه المقدمة الموجزة فانهم وصفوا بعضها وصفاً يكاد القارىء ان يتوهم لأول وهلة انه بعيد عن الحقيقة كقصر (غمدان) مثلا أو (ناعط) ولكن عند التأمل لا يرى فيه غرابة سيما وان كثيراً من المؤرخين الباحثين (المستشرقين) الذين أخذوا على عاتقهم احياء آثار العرب القديمة شاهدوا بعض انقاض تلك القصور التي سبق ذكرها. وقد عوّلنا فيما سردناه على نقل (الهمداني) صاحب كتاب « جزيرة العرب » وكتاب « الاكليل » ذلك الرجل الذى شاهدها بنفسه وقد ثبت صدقه من قرائن كثيرة .



ش ١ (بقايا قصر غمدان الباذخ)

ثم فقد وصف فى كتابه « الاكليل » الذي هو أجمع كتاب فى وصف محافد اليمن ودفائنها ومساندها والآثار الحميرية « سد مأرب » وكان الناس يحسبون فى كلامه مبالغة حتى ذهب مؤرخو الفرنجة (ارنو) و(هاليفى) و(غلازر) وشاهدوا آثار هذا السد وبعض أنقاض تلك القصور فوجدوا

الرجل صادقا فيما سرده واعتقدوا صدقه فى جميع ماقاله .

ولما كان من أشهر القصور التى ذكرناها وأعجبها صنعاً (قصر غُمدان) اتينا لك بشكل بقاياه « انظر شكل (١) »

نسب العرب وسبب تسميتهم بهذا الاسم

خلاصة ماورد فى بطون الاسفار عن نسبهم أنه يتصل بسام أحد أبناء نوح عليه السلام الذين نجَوْا معه مِنَ الطوفان . ولا مِرْيَة فى ذلك

وسُمّوا بالعرب قيل لأنهم لم يزالوا مَوْسومين بين الامم بالبيان فى الكلام . والفصاحة فى المنطق . والذلاقة فى اللسان . والاعراب عن المقصود فهو من أعرب اذا أبان عما فى ضميره . وقيل نسبة الى يعرُبَ بن قَحطان أبى العرب المتعربة ، وقال اسحاق بن الفرج . نسبة الى عرَبة وهى باحة العرب . وباحة دار أبى الفصاحة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام (١) وفيها يقول الشاعر

وعَرْبة أرض مايحلّ حرامها * من الناس الا اللوذعىّ الحُلاحل (٢)

(١) المراد بذلك مكة وساحاتها . وفي مراصد الاطلاع انها اسم جزيرة العرب والمراد بالعرب هم أصول القبائل اذا هم لم يخرجوا من الجزيرة والذى خرج من عمائرهم انما خرج في العهد القريب وهم قليل وغالبهم في مواطنهم . وأما الشعوب والقبائل التى تفرعت فيما بعد فهم خارجون عن البحث : اه

(٢) اضطر الشاعر الى تسكين الراء وهو يعنى باللوذعى الحلاحل النبي صلى الله عليه وسلم فانه أحلت له مكة ساعة من نهار ثم هى حرام الى يوم القيامة واللوذعي الفطن حديد الفؤاد والحلاحل السيد الشجاع

وأقامت قريش (١) بعَرَبة فتنخّت (٢) بها وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم الى عربة لأن أباهم اسماعيل نشأ بها وربل (٣) أولاده فيها فكثروا فلما لم تسعهم البلاد انتشروا فأقامت قريش بها.

وأفادنا استاذنا العلامة « الشيخ أحمد الحملاوى » فى بعض دروسه التي أملاها علينا أن الصحيح فى سبب تسميتهم بهذا الاسم (أنه لما تفرقت أولاد نوح الذين كانوا بوسط آسيا واتخذ كل فريق نُجْعة (٤) وكانت لغة الجميع العبرية . وجهة الغرب « بفتح الغين المعجة وسكون الراء » يسمونها العرب « بفتح العين المهملة وسكون الراء » فلما اتجهت تلك الأمة الى جهة الغرب قالوا أمة العرب على لغتهم ثم بتداول الزمن تحركت الراء بالفتح) اه « وهو رأى لبعض المستشرقين » لا كما ادعاه الاستاذ الفاضل في الدرس من أن هذا الرأى له وقد وصل اليه بعد البحث والتنقيب

(١) وأقامت قريش كذا في لسان العرب والقاموس وغيرهما . وفي التهذيب وغيره أقامت بنو اسماعيل . وعلى القولين تخصيصهما دون القبائل انما هو لشرفهما ورياستهما على سائر العرب فصار الغير كالتبع لهما فلا يقال كان الظاهر أن تسمى بها قريش فقط ويدل لما قلنا أنه يقال رجل عربي اذا كان نسبه في العرب ثابتا وان لم يكن فصيحا ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقري العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء وكذا كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب يَمَنهم ومعدهم

(٢) تنخت أي أقامت (٣) ربل أي ربي .

(٤) النجعة طلب الكلأ ومساقط الغيث وفي المثل (من أجدب انتجع) ويقال انتجعنا أرضا نطلب الريف وانتجعنا فلانا اذا أتيناه نطلب معروفه قال ذو الرمة :
(فقلت لصيدح انتجعى بلالا) اه لسان العرب

ولست أدرى ولا المنجم يدرى أنى يكون هذا هو الصحيح . ولا ريب فى أن الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة التى سردناها آنفا أثبت برهانا . وأرجح قولا .

اطوار العرب

(تنقسم العرب فى زمن الجاهلية الى ثلاثة أعصر أو أطوار عامة وهى :)

﴿ الطَّوْرُ الأَوَّل ﴾

العرب العاربة أو العرباء — سُمِّيَ هذا الجيل بهذا الاسم لرسوخهم فى العروبة كما يقال ليل أليل . وصوم صائم . أو لأنهم أول أجيال العرب فكأنهم ابتدعوا العروبية :

وقد يسمى هذا الجيل بالعرب البائدة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم وهذا القسم أخباره مستترة وراء حجاب القدم اذ لا يكاد يوجد من حقائق أخبارهم والعلم بآثارهم ما يوثق به وثوقا تاما لعدم عنايتهم اذ ذاك بالكتابة وتقييد الحوادث ولكن بشدة البحث والتنقيب توصل علماء التاريخ الى حقائق من بعض أخبارهم اذ من الصعب تمييز جميع الوقائع الحقيقية من غيرها .

ويقولون ان أشهر القبائل البائدة تسع قبائل هى . عاد . وثمود . وطسم وجديس . وعمليق(١) . وأميم . وجاسم . وجُرْهُم الأولى . ووبار

(١) عمليق هو الذي نسبت اليه العمالقة الذين منهم من فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة) ويسميهم اليونان (هيكسوس) وكان لهم دولتان كبيرتان احداهما فى العراق والاخرى في مصر (انظر الخريطة الاولى) وبعد ان استولوا على مصر ومكثوا بها عدة سنين مالوا



﴿الخريطة الأولى — بلاد العرب في القرن العشرين قبل الميلاد﴾

وقيل ان أشهر القبائل البائدة هى عاد . وثمود . وطسم . وجديس ولم يحفظ عن غيرها شئ من الأخبار بل ذكرت وبار مع عاد فى قول الشاعر :

ألم تروا إرماً وعاداً * أودى بها الليل والنهارُ
ومرّ دهر على وبار * فهلكت جهرة وبارُ (١)

أما قوم عاد وثمود فقد عرفنا عنهم ما عرفناه فى التاريخ الأثرى المأخوذ من القرآن الشريف من أن عاداً كانت تسكن الاحقاف (شمال حضرموت) وكانت تعبد الأوثان فأرسل الله اليهم هوداً نبيا فلم يمتثلوا أمره فيما جاء به فاهلكوا بريح صرصر عاتية (٢)

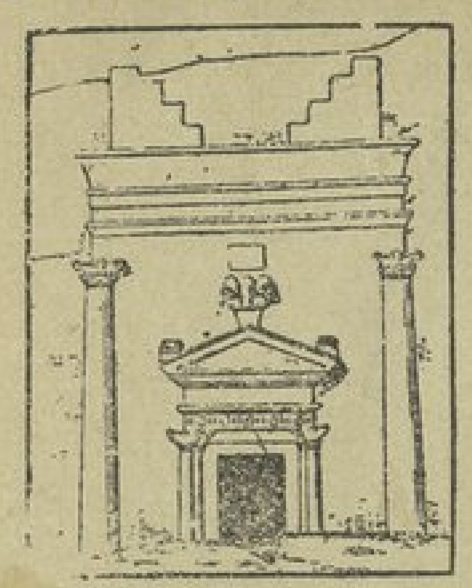
الى حضارة أهلها وأذعنوا لتمدنهم وتخلقوا باخلاقهم واعتادوا عاداتهم وتدينوا بدينهم واتخذوا لهم بيوت ملك منتظمة مثلهم واستبدلوا القوة والغلظة بالرأفة والشفقة على الرعية وأخذوا فى احياء مامات وتجديد مافات وأنشؤا مدارس للتعليم والتهذيب حتى بلغوا درجة قصوى من التمدن والحضارة والرقى والعمران وآل أمرهم الى أن صاروا ملوكا حقيقيين وفراعنة أصليين ولاغرو فما عثر عليه من آثار هؤلاء القوم بمدينة صان الحجر (هذه البلدة حصل فيها قصة الرجلين المذكورين فى قوله تعالى « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا أحدهما جنتين الآية ») يدل على أن صناعتهم كانت أجل وأجمل وأدق وأكمل من صناعة ملوك طيبة المعاصرين لهم .

(١) وقيل وباروا هنا بمعنى هلكوا كقوله تعالى (يرجون تجارة لن تبور) لانه لو كان وبار لبنى على الكسر

(٢) وفي ذلك يقول مرثد بن سعد أحد من آمن بهود عليه السلام منهم :

عصت عاد رسولهم فامسوا * عطاشا لاتبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود * يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد * فابصرنا الهدى وخلا العماء

وأن ثمود كانت تسكن الحجر [١] وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال (كما فعل الفراعنة بعدهم) وكانت تعبد الأوثان ايضاً فأرسل الله اليهم صالحاً نبياً فما أطاعوه فأهلكوا بالرجفة [٢] فأصبحوا في دارهم جاثمين [٣] وأهم آثار الحجر واطلالها [٤] بعض بقايا منقوشة في الصخر تعرف بقبر الباشا والقلعة والبرج وقصر البنت وهو الذي أتينا لك بشكله (انظر شكل ٢)



ش ٢ (قصر البنت في الحجر * مدائن صالح)

وان إله هود هو المهي * على الله التوكل والرجاء

(١) الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم هي المعروفة الآن بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحاج الشامي الى مكة وقد وصلت السكة الحديد الحجازية الى الحجر في عام ١٣٢٥ هجرية

(٢) الرجفة أي الصيحة

(٣) جاثمين أي هامدين موتى لاحراك بهم • وفيهم يقول حتاف بن عمرو وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين وبان عن دارهم :

كانت ثمود ذوى عز ومكرمة * ما ان يضام لهم في الناس من جار
لا يرهبون من الاعداء حولهم * وقع السيوف ولا نزعا باوتار
فأهلكوا ناقة كانت لربهم * قد أنذروها وكانوا غير انذار
نادوا قدار ولحم السقب بينهمو * هل للعجول وهل للسقب من ثار
لم يرعيا صالحاً في عقر ناقته * وأخفروا العهد هذيا أيَّ اخفار
فصادفوا عنده من ربه حرسا * فشدخوا رؤسهم شدخا بأحجار

(٤) وجد بعض المستشرقين على هذه الاطلال نقوشا بالحرف النبطي وتاريخه

وأما طسم وجديس فكانت ديارهما (اليمامة) وهي اذ ذاك أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثماراً وحدائق وقصوراً . وكان السبب في هلاكهما حروبا قامت بين القبيلتين اشتد الوطيس فيها بسبب عمليق ملك طسم وظلمه لانه كان فظاً غليظ القلب غشوما فاجراً وكانت قبيلة جديس تحت سلطته فاستذلهم وسامهم خسفا

وسبب ذلك أن امرأة من جديس تدعى هزيلة طلقها زوجها وأراد أن يأخذ ولدها منها فخاصمته الى عمليق وقالت أيها الملك اني حملته تسعاً ووضعته دفعا وأرضعته شفعا حتى اذا تمت أوصاله ودنا فصاله أراد ان يأخذه مني كرها ويتركني بعده ورها[1] فقال زوجها . أيها الملك انها أعطيت مهراً كاملا . ولم أصب منها طائلا . الا وليداً خاملا . فافعل ما كنت فاعلا . فأمر الملك بالغلام فصار في غلمانه وان تباع المرأة والرجل فيعطى الرجل خمس ثمنها وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها فقالت هزيلة :

حوالى الميلاد وقرؤها فاذا أكثرها أوكلها تبركات منقوشة على القبور . هذا مثال منها

« هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلية ابنها لانفسهن وذريتهن في شهر طبية من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فعسى ذو الشرى وعرشه واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أويشتريه أو يرهنه أويخرج منه جثة أوعضوا أويدفن فيه أحدا غير كمكم وابنها وذريتها ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشري وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر غرامة مقدارها ألف درهم حارثي الامن كان بيده تصريح من يد كمكم أوكلية ابنها بشأن هذا القبر والتصريح المذكور يجب أن يكون صحيحا صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة » اه كتاب (العرب قبل الاسلام

(١) الوره بالتحريك الحرق في كل عمل اه لسان

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا * فانفذ حكما فى هزيلة ظالما
لعمرى لقد حكمت لا متورّعا * ولا كنت فيمن يبرم الحكم عالما
ندمت ولم أندم وانى لعترتى * وأصبح بعلي فى الحكومة نادما

فبلغ الملك قول هزيلة فغضب وجعل سنته أن لا تهدى بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها قبله ثم يدخل زوجها عليها بعد ذلك فلقوا من ذلك ذلاً طويلا ولم تزل تلك حالتهم حتى كانت آخر امرأة نفذ عليها حكم عمليق امرأة تسمى (عفيرة) فخرجت هذه المرأة بعد ما افتض عمليق بكارتها الى قومها بحالة مزعجة ومنظر بشع ووقفت على أخيها الأسود بن غفار وهو قاعد فى نادى قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها وقالت أبياتا (١) توبخ فيها قومها وتستنهضهم فى نبذ هذا العار عن كاهلهم بعد أن قالت هذه الابيات

(١) وهاك نص هذه الابيات :

أيجمل ما يؤتى الى فتياتكم * وأنتم رجال فيكمو عدد الرمل
وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة * جهارا وزفت فى النساء الى بعل
ولو أننا كنا رجالا وكنتمو * نساء لكنا لا نقر بذا الفعل
فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم * ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
والا تخلوا بطنها وتحملوا * الى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللبين خير من مقام على الاذى * وللموت خير من مقام على الذل
وان أنتمو لم تغضبوا بعد هذه * فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكمو طيب العروس فانما * خلقتم لأثواب العروس وللنسل
فبعدا وسحقا للذي ليس دافعاً * ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

لأحد أذل من جديس * أهكذا يفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لقومى حرّ * أهدى وقد أعطى وسيق المهرُ
لأخذة الموت كذا لنفسه * خير من أن يفعل ذا بعرسه

فلما سمعت جديس شعرها أنفت أنفا شديداً وأخذتهم الحَمِيَة. وقال لهم الأسود وكان فيهم سيداً مطاعا . يامعشر جديس ان هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم فى داركم الا بما كان من ملك صاحبهم علينا وعليهم ولولا عجزنا واذعاننا ما كان له فضل علينا ولو امتنعنا لكان لنا منه النَّصَف فأطيعونى فيما آمركم به فانه عز الدهر وذهاب ذلّ العمر واقبلوا رأيى. فقالوا نحن لقولك سامعون ولرأيك متبعون ولكن القوم أكثر مناعدداً وأشد قوة قال فانى صانع للملك وليمة أدعو فيها أشراف طسم والملك من بينهم فاذا جاؤا يرفلون فى الحلى والحلل وجلسوا على المائدة وهم على غير حذر منا أخذنا سيوفنا وقتلناهم . فقالوا افعل فدبرت جديس الحيلة وأولمت الوليمة وجعلتها بظاهر البلد وجعلوا سيوفهم فى الرمل وبعد أن حضروا الى الوليمة وأخذوا مجالسهم ومدوا أيديهم الى الطعام أخذت جديس سيوفهم من تحت أقدامهم وأوقعوا فيهم القتل ثم التفتوا الى من بقى من القبيلة وأثخنوهم قتلا الى أن أبادوهم الا نفراً قليلا فقال الاسود فى ذلك :

ذوقى ببغيك ياطسم مجللة * فقد أتيت لعمرى أعجب العجب
انا أبينا فلم ننفك نقتلهم * والبغى هيج مناسورة الغضب
ولن يعودوا علينا بغيهم أبداً * ولن يكونوا كذى أنف ولا ذنب
وان رعيتم لنا قربى مؤكدة * كنا الاقارب فى الأرحام والنسب

ثم ان بقية طسم لجؤا الى حسان بن تبّع الحميرى ملك اليمن حينئذ

واستصرخوا به واستنصروه فأجاب دعوتهم وهم بجيشه الى جديس فلما كان حسان فى وسط الطريق تقدم اليه رجل من طسم يدعى (رباح بن حرة) فقال أبيت اللعن ان لى أختا متزوجة فى جديس ليس فى الأرض أبصر منها وهى تبصر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام وأنا أخاف أن تنذر القوم بك فأمر كل واحد من أصحابك أن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير فأمر حسان بذلك ثم ساروا وكانت أخت رباح تسمى (اليمامة) فأشرفت من منظرها فقالت ياجديس لقد سارت اليكم الشجر فقالوا ماذاك . قالت قد أتتكم الشجر أو أتتكم حمير فلم يصدقوها فقالت على مثال رجز

أقسم بالله لقد دب الشجر * أو حمير قد أخذت شيئاً يجر

فلم يصدقوها فقالت

أحلف بالله لقد أرى رجل * ينهش كتفاً أو يخصف النعل

فلم يصدقوها وكذبوها . وغفلوا عن أهبة الحرب ففي ذلك تقول

انى أرى شجراً من خلفها بشر * فكيف تجتمع الأشجار والبشر

ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم * فان ذلك منهم فاعلموا ظفر

فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان بجيوشه واعمل فيهم حتى هلكوا جميعاً الا رئيسهم الأسود فانه نجا وفر هاربا نحو جبل طيء وكان سيد طيء اذ ذاك (أسامة بن لؤى) ولما علم اسامة بمجيء الأسود الى طيء[1]

(١) كان السبب في معرفة (أسامة) بمجيء (الاسود) أنه لما هرب الاسود وأقام بجبل طيء . كانت طيء تسكن الجرف من أرض اليمن وكان سيدهم يومئذ (أسامة بن لؤى) وكان الوادي مسبعة وهم قليل عددهم وقد كان ينتابهم بعير في أزمان الخريف ولم يدر أين يذهب ولم يروه الى قابل وكانت الازد قد خرجت من اليمن أيام الصرم فاستوحشت

ارسل ابنه (الغوث) ليقتله فقتله وبذلك تمت ابادة طسم وجديس وانقرضت دولتهم ثم ان حسان دعا باليمامة ونزع عينيها فاذا في داخلهما عروق سود فسألها عن ذلك فقالت حجراً أسود يقال له الأثمد كنت اكتحل به فاتخذوه كحلا ثم امر باليمامة فصلبت وهي التي ذكرها النابغة في قوله .

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت * الى حمام سراع وارد الثمد (١)

ولم يزل هذا الكحل تكتحل به بعض النساء الى اليوم .

بلى لذلك وقالت قد ظعن اخواننا فصاروا الى الارياف فلما هموا بالظعن قالوا لاسامة ان هذا البعير يأتينا من بلد ريف وخصب وانا لنرى في بعره النوى فلو أنا نتعهده عند انصرافه فشخصنا معه لكنا نصيب مكانا خيراً من مكاننا هذا فاجمعوا أمرهم على ذلك فلما كان الخريف جاء البعير فضرب في ابلهم فلما انصرف احتملوا واتبعوه يسيرون بسيره ويبيتون حيث يبيت حتى هبط على الجبلين فقال أسامة بن لؤي :

جعلت طريفا كحب بسا * لكل قوم مصبح وممسى

(طريف اسم الموضع الذى كانوا ينزلون به) فهجمت طيء على النخل في الشعاب وعلى مواش كثيرة واذاهم برجل في شعب من تلك الشعاب وهو الأسود بن عباد فهالهم ماراوا من عظم خلقه وتخوفوه وقد نزلوا ناحية من الارض وسبروها هل يرون بها أحداً غيره فلم يروا فقال أسامة بن لؤي لابن له يقال له الغوث أي بني ان قومك قد عرفوا فضلك عليهم في الجلد والبأس والرمي فان كفيتنا هذا الرجل سدت قومك آخر الدهر وكنت الذى أنزلتنا هذا البلد فانطلق الغوث حتى أتى الرجل فكلمه وسأله فعجب الاسود من صغر خلق الغوث فقال له من اين أقبلتم قال من اليمن وأخبره خبر البعير ومجيئهم معه وانهم رهبوا ماراوا من عظم خلقه وصغرهم عنه وشغلوه بالكلام فرماه الغوث بسهم فقتله وأقامت طيء بالجبلين بعده

(١) يشير بذلك الى قولها :

ليت الحمام ليه * الى حمامتيه أو نصفه قديه * تم الحمام ميه

وكان لطسم وجديس آثار قلاع أشار ياقوت الى بعضها وهي المشقّر (١) والمعنق (٢) وغيرهما

ومن اشهر مدن طسم وجديس القرية في اليمامة ويقال لها خضراء حجر (٣) والحجر (٤)

الطور الثاني

العرب المتعربة

سموا بذلك لأنهم تعربوا اي اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهي البائدة ونزلوا معهم بالبادية وتخلقوا باخلاقهم فهو من تعرب بمعنى تكلف

(١) المشقر قال ياقوت انه قلعة من بناء طسم لها ذكر في أيام العرب وجاء في لسان العرب انه حصن قديم بالبحرين قال المخبل

فلئن بنيت لي المشقر في * صعب يقصر دونه العصم
لتنقبن عنى المنية ان الله ليس كعلمه علم

(٢) والمعنق ذكر ياقوت أن المعنق أعظم قصور اليمامة من بناء طسم على أكمة مرتفعة قال فيه الشاعر

أبت شرفات من شموس ومعنق لدى القصر منا أن تضام وتضهدا

والشموس المذكور في البيت قصر آخر فخم من بناء جديس محكم البناء وكأن تلك البلاد بعد أن باد أهلها هجرت ثم عثروا على انقاضها صدفة .

(٣) القرية هي حاضرة طسم وجديس فيها آثارهم وحصونهم وبنلهم (الواحد بنيل) وهو بناء مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين وقد رآه المسلمون في القرن الثالث أو الرابع وذكر أحدهم أنه أدرك بنيلا طوله ٥٠٠ ذراع ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من أحدها كذا قال الهمداني

(٤) الحجر لطسم وجديس فيها آثار جليلة والمهجر بلغة أهل اليمن القرية فلعل حجراً والقرية من أصل واحد كذا قال ياقوت اه

العروبة كتخلق وتجمل وتصنع وتكمل وهم بنو قحطان بن عابر (١) وقد كانوا معاصرين لاخوانهم من العرب العرباء و لم يزالوا مجتمعين فى مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذى كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذى يسوق اليه الترف والنضارة فتشتت فى ارض الفضاء فضائلهم وتمدد فى جو القفار أفخاذهم وعشائرهم

ولقد كانوا يميلون بطبيعتهم الى الحضارة والتمدن فسكنوا المدن وأسسوا الممالك . وكانت دولتهم فى عنفوانها أعلى الدول يداً وأظهرها صولة واسعة الاطراف شديدة البطش كثيرة الغنى بالمعادن الثمينة (٢) والأحجار الكريمة

(١) قحطان بن عابر هو أول من تولى الملك على بلاد اليمن وهو من نسل نوح عليه الصلاة والسلام وكان عادلا محمود السيرة حسن السياسة مدبرا للامور وهو أول من لبس التاج من ملوك العرب وفيه وفي ابنه يعرب يقول الشاعر :

فما مثل قحطان السماحة والندى * ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

(٢) ذكر في كتاب نشر المحاسن اليمانية ان فى اليمن كثيرا من المعادن منها معدن عثم ومعدن ضنكان وهما معدنان من ذهب جليلان ومعدن القفاعة من أرض حكم وهو دونهما . ومعدن فى أرض بنى مجيد وهو دونه . وأما معادن الفضة فان فيها معدن الرصاص وهو موضع بين فهم بطن من همدان وبين خولان العالية وبين مراد . وهو معدن جليل كان اعتماد أهل اليمن عليه فلما ضعفت السلطنة تغالت العرب عليه وخرجت قرية الرصاص وكان أهلها من الفرين فانتقلوا الى صنعاء . وأما معادن الجزع واليفران والعقيق فهي جميعا بأرض مقرى من مخاليف اليمن الشرقية . وأما حجارة الحديد فان في اليمن جبالا كثيرة يصلح منها الحديد بعضها بمعدن ابين وبعضها بأرض وادعة بين صعدة والحجاز وفي نجران أيضاً جبل من حديد . ومنها يجان ضرب من حديده سيوف كثيرة كانت مع ولد سبأ بمأرب لم يكن لها في السيوف قياس ولا مثيل اهـ

والأطياب ونحوها .

والدليل على ذلك ماهو محفوظ الآن فى المتحف البريطانى بلندرة باسم بلقيس ملكة سبأ من الكتابة الحميرية منقولة من ألواح نحاسية وجدت في جهة اليمن وحضرموت .

وكان بنو قحطان يتكلمون باللسان الكلدانى وهو لسان اهل العراق الأصليين فتعلموا العربية من العرب العاربة وأول من نطق بالعربية منهم يعرب بن قحطان (١) وفى ذلك يقول حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه يفخر على العدنانيين .

تعلمتمو من منطق الشيخ يعرب * ابينا فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم جميعا مالكم غير عجمة * كلام وكنتم كالبهائم فى القفر

(١) يعرب بن قحطان تولى الملك بعد أبيه على بلاد اليمن وكان شجاعا مغرما بالغزوات فغزا في أول سنة من ملكه بلاد الحجاز وأسر ملوكها وضرب الجزية عليها وولى أخاه جرهما عليها وكان مقر المملكة في عهده مدينة صنعاء ولعدله وهمته كان محبوبا فى رعيته وكان حكيما فصيحا فلما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم بقوله :
أى بني تعلموا العلم واعملوا به واتركوا الحسد فانه داعية القطيعة بينكم وتجنبوا الشر وأهله فان الشر لا يجاب عليكم الاالشر وأنصفوا الناس من أنفسكم فانهم سينصفونكم من أنفسهم واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد قلوب الرجال عنكم وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس ويحببكم اليهم واذا استشاركم مستشير فاشيروا عليه بما تشيرون به على أنفسكم فى مثل مااستشاركم فيه فانها أمانة قد ألقاها في أعناقكم ثم أنشأ يقول :

أوصيكم بما وصي اباكم * أبوه عن أبيه عن الجدود
أذيعوا العلم ثم تعلموه * فما ذو العلم كالفدم البليد
ولاتصغوا الى حسدفتغووا * غواية كل مختبل حسود

واشهر بنى يعرب عبدشمس [١] الملقب بسبأ وهو ابو جميع قبائل اليمن وهو الذى بنى مدينة مأرب [٢]

وذودوا الشر عنكم ما استطعتم * فليس الشر من خلق الرشيد
وكونوا منصفين لكل دان * لينصفكم من القاصى البعيد
وباب الكبر عنكم فاتركوه * فان الكبر من شيم العبيد
عليكم بالتواضع لاتزيدوا * على فضل التواضع من مزيد
وان الصفح أفضل ما ابتغيتم * به شرفا من الملك العتيد
وحق الجار لاتنسوه فيكم * تنالوا كل مكرمة وجود

(١) عبد شمس هو ابن يشجب بن يعرب كان عالى الهمة شديد الوطأة وبذلك أقام بدولة اليمن عزا منيعا ومجدا لايدانيه فيهما ملك من ملوك العرب وقتئذ وأكثر الغزو وفاز بالغنائم والسبايا الوافرة وحملها الى بلاده ولذا لقب بسبأ وقيل لانه أول من سن السبي وفيه يقول الشاعر

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها * الي الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سبى بالجياد الاعوجية والقنا * الى بابل في مقنب بعد مقنب

(٢) (مأرب) أى سبأ هى أشهر مدائن اليمن وذكر المؤرخون الثقات انها كانت حسنة التربة لاتحدث بها عاهة ولا يكون فيها هامة حتي ان الغريب اذا دخلها وفي ثيابه قمل أوبراغيث ماتت ولذلك نطق القرآن في شأنها انها بلدة طيبة وقيل المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ووفور نزهتها وانه ليس فيها حر يؤذى فى الصيف ولابرد يؤذي في الشتاء وفي أرض مأرب اليوم بقايا من آثارهم وكتابات كثيرة منقوشة بالخط الحميري قد اهتدى الى معرفتها بعض السياحين من الافرنج الذين طافوا أكثر انحاء هذه البلاد بواسطة مقابلتهم ما نقش منه على الآثار التي اكتشفوها بالخط الحبشي والكوفي والفينيقي والعبراني وعرف بذلك ما كان للعرب من الحضارة والمدنية والمعارف الكلية التى أنكرها كثير من أهل هذا العصر ويؤخذ مما وقفوا عليه من انقاضها انها كانت مستديرة الشكل قطرها نحو كيلو متر يحدق بها سور له بابان أحدهما شرقي والآخر غربي وفي وسطها

وسدها المشهور (١) وبنى عين شمس باقليم مصر وهى المعروفة عندنا الآن بـ « مصر الجديدة » .

آثار هيكل يسميه أهل تلك الناحية الآن هيكل سليمان . وقد قال الطمحان يذكر مأرب :

أما ترى مأربا ما كان أحصنه * وما حواليه من سور وبنيان

وبذلك اشارة الى سورها المنيع سيما ما كان فيها من الابنية الضخمة من الرخام كقصر سلحين الذي تقدم ذكره والهجر والقشيب . قال ذو جدن الحميري :

ومنا الذي دانت له الارض كلها * بمأرب يبني بالرخام ديارا

وقد أفاض الشعراء في وصف مأرب وآثارها (قال الحميري)

وقصر سلحين قد عفاه * ريب الزمان الذي يريب

تعوى الثعالب في قراها * ما في مساكنها غريب

(وقال تبع)

ومأرب قد نطقت بالرخام * وفي سقفها الذهب الاحمر

(وقال أيضاً في وصف عرش بلقيس)

عرشها رافع ثمانين باعا * كللته بجوهر وفريد

وبدر قد قيدته وياقو * ت بالتبر ايما تقييد

(١) هذا السد الذي أتينا لك برسم خريطته (انظر الخريطة الثانية) هو أعظم سدود بلاد العرب باليمن وأشهرها وقد كثر ذكره في أخبار العرب واشعارهم على سبيل العبرة لما أصاب مأرب بانفجاره وفي هذا السد يقول الاعشى :

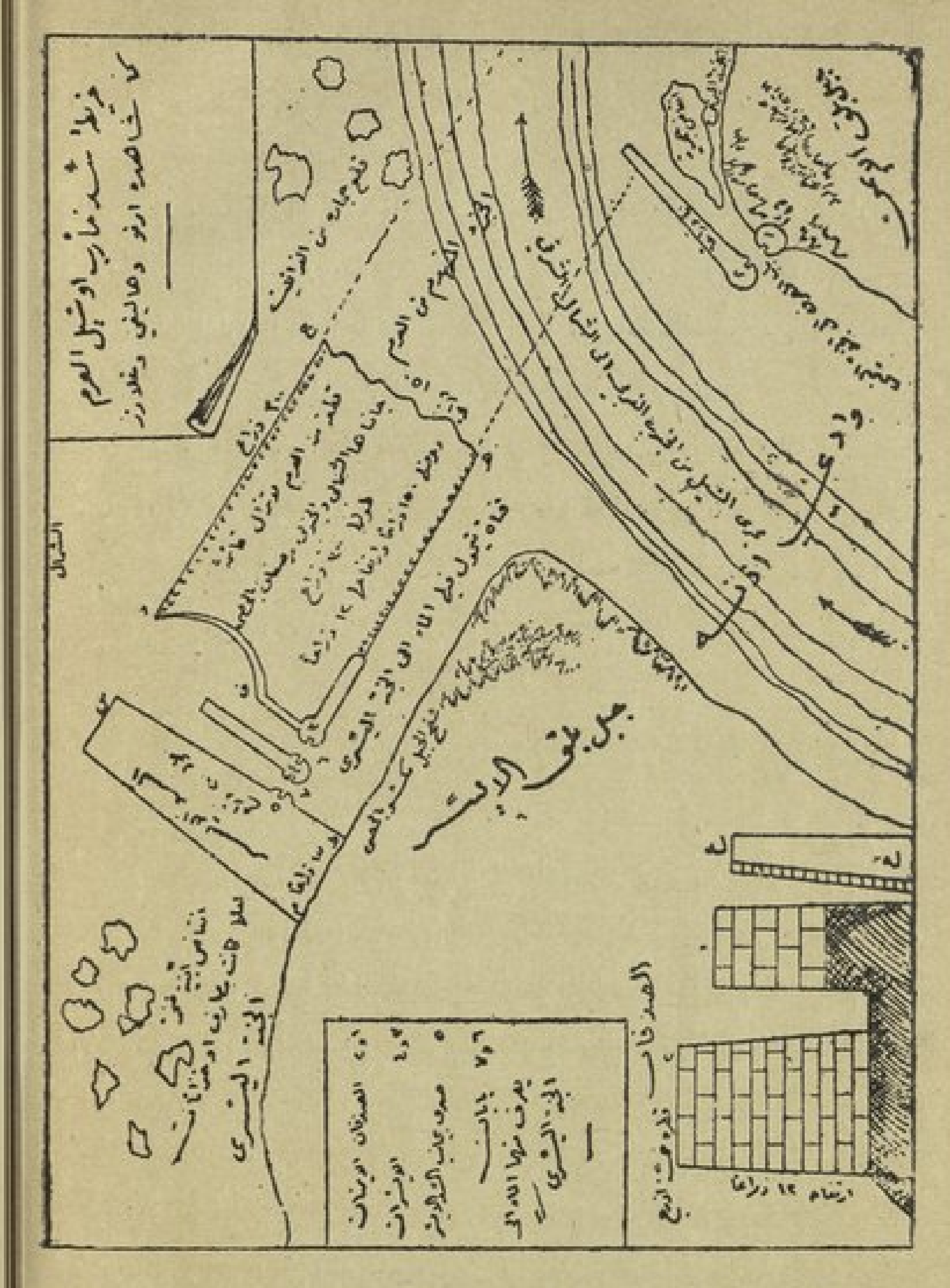
كفى ذاك للمؤتسى أسوة * ومأرب قفى عليها العرم

رخام بناه له حمير * اذا جاء ماؤهمو لم يرم

فاروى الحروث واعنابهم * على ساعة ماؤهم ينقسم

فعاشوا بذلك في غبطة * فجار بهم جارف منهزم

فطار القيول وقيالها * بيهماء فيها سراب يطم



﴿الخريطة الثانية﴾ سد مأرب او سيل العرم كما شاهده (ارنو) و (هاليفى) و (غلازر) فى أواسط القرن الماضى

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن سبأ ماهو أبلد . أم رجل . أم امرأة . فقال بل رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشأم أربعة أما اليمانيون فكندة ومذحج والأزد وأنمار وحمير والأشعريون . وأما الشاميون فلخم وجذام وغسان وعاملة :

ولقد كان السبئيون فى نضارة من العيش وسعة من الرزق فعصوا ربهم وبطروا النعمة وتكبروا وتجبروا فأرسل الله عليهم سيلا جارفا (١) فبدد شملهم

وعلى ذكر هذا السد نذكر بعض ما كان في بلاد العرب من السدود فنقول ،

السدود جدران ضخمة كانوا يقيمونها فى عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه الى الارضين المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات (كخزان اسوان وخزان اسيوط وغيرهما) وانما عمد العرب الى بنائها لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتها فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسد فتكاثرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات :

وذكر الهمداني في يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا والى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ＊ ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالاضافة الى بلده . فمن كبار هذه السدود قصعان وربوان (وهو سد قتاب) وشحران وطمحان وسد عباد وسد لحج (وهو سد عرايس) وسد سحر وسد ذى شهال وسد ذي رعين وسد نقاطة عند قرية ذى ربيع وسد نضار وهران وسد الشعباني وسد الملكى وسد النواسي وسد المهاد وغير ذلك مما لايكاد يحصى : ولقد كان باليمن غير (سد مأرب) الشهير الذي أشار اليه القرآن الكريم سدود شهيرة : منها سد الخانق بصعدة بناه ابن عتيك مولى سيف بن ذي يزن وقد أخربه ابن موسى العلوى بعد أن هدم صعدة وسد ريعان لابن ذى مأذن وسد سيان . واسداد بلاد عنس منها سد خيرة وسد بيت كلاب فى ظاهر همدان وسد شبام وغير ذلك اهـ

(١) اختلف المؤرخون في وقت حدوث ذلك السيل فقال حمزة انه حدث قبل

ومزق جموعهم كل ممزق وتفرقوا فى البلاد حتى ضرب بتفرقهم المثل اذ يقال (تفرق القوم ايدى سبا) وفى ذلك يقول الله تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور[1] فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم[2] وبدلناهم بجنتيهم

الاسلام باربعمائة سنة أي في القرن الثالث للميلاد. وذكر ياقوت أنه وقع في ملك حبشان ولعله يريد الاحباش لانهم لما فتحوا اليمن في القرن السادس أخربوا كثيراً من قصورها الباذخة وأبنيتها الشامخة : أو لعله أراد حسان بتصحيف اللفظ كما أراد ابن خلدون فقد ذكر أن السد تهدم فى أيام حسان بن تبان أسعد (في القرن الخامس) وقال آخرون غير ذلك مما يطول بنا إيراده :

(١) قال الهمدانى بعد أن ذكر هذه الآية الكريمة : «وهي (أي سبأ) كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما غامرتان والغامر العافي واتماعفتا لما اندحق السد فارتفع عن أيدى السيول. ووجدت في أحدهما غريق أراك وفي أصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السوافي فقال بعض من كان معي لاأظنه الا من بقايا نخل الجنتين وما أظنه من العصر القديم. أما مقاسم الماء من مداخر السد فبابين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالامس ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذى يخرج منه الماء قائما بحاله على أوثق مايكون ولايتغير الا ان شاء الله. وانما وقع الكسر في العرم وقد بقي من العرم شئ مما يلى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمسة عشر ذراعا قال الله تبارك وتعالى (فاعرضوا فارسلنا عليهم الآية) وبها من الاراك ماليس ببلد . ومن الحمام المطوق فى الاراك مايجل عن الوصف وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن (من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان وكثير من مخاليف خولان) والوادى اسمه (اذنه) » اه

(٢) عن ابن عباس ومجاهد وابن أبي نجيح أن العرم اسم للمطر الشديد من العرامة وهي الشدة وحينئذ فيكون الذي هدم هذا السد هو ذلك السيل الشديد المسمى بالعرم وهذا ما أذهب اليه وهو معنى صحيح مقبول لا الجرز الذي هو الفأر كما قال بعض المؤرخين وكثير من المفسرين

جنتين ذواتي أكل خمط [١] وأثل [٢] وشيء من سدر [٣] قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة الى آخر الآية » :

واشهر شعوب حمير وملوكهم التبابعة (ملوك اليمن) ومنهم الاذواء [٤]

(١) الخمط المر (٢) الاثل شجر يشبه الطرفاء (٣) السدر شجر النبق

(٤) الاذواء جمع « ذو » من قولهم ذو غمدان وذوجدن وذوسلحين وهم حكام البلاد الاصليون ومنهم نبغ الملوك الذين أسسوا الدول . وقد جمع (نشوان بن سعيد الحميرى) بعضهم في قصيدته الحميرية المشهورة . والاذواء فيها طبقتان . طبقة سماها (نشوان) المثامنة وهم ثمانية أذواء كانوا أقوياء ناهضوا حمير في أيام دولتهم على مايظهر . والطبقة الثانية أذواء مستقلون . أما الاذواء المثامنة فقد ضمنهم الحميرى في هذه الابيات :

أين المثامنة الملوك وملكهم * ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو نملبان وذو خليل ثم ذو * شجر وذو جدن وذو صرواح
أوذو مغار بعد أوذو جرفز * ولقد محا ذا عثكلان ماح

وأما سائر الاذواء فاكبرهم ذو مرائد جد الناظم وهذا قوله فيهم :

أو ذو مرائد جدنا القيل ابن ذي * شجر أبو الاذواء رحب الساح
وبنوهمو ذوفين ذوسفر وذو * عمران أهل مكارم وسماح
والقيل ذو ريان من أبنائه * راح الحمام اليه بالرواح
أم أين ذو الرمحين أو ذو يرحم * سقيا بكأس للمنون ذباح
أم أين ذو بهر وذو يزن وذو * نوش وذو نوح وذو الانواح
أم أين ذو فيقان أوذو اصبح * لم ينج بالامساء والاصباح
أم أين ذو الشعبين أصبح صدعه * لم يلتئم لمثقف الاقداح
أوذو حوال حبل دون مرامه * أو ذو مناح لم يبح بمراح
أم أين ذو غمدان أو ذو فائش * أو ذو رعين لم يفز بفلاح

والأقيال [١] أهل العزة والمنعة الذين دوخوا الأمم وفتحوا الاقطار . وفى منعتهم وبأسهم الشديد يقول دعبل بن على الخزاعى .

منازل الحى من غمدان فالنضد * فمأرب فظفار الملك فالجَنَدِ
أرض التبابع فالأقيال من يمن * اهل الجياد واهل البيض والزرد
لم يدخلوا قرية الا وقد كتبوا * بها كتابا فلم يدرس ولم يبد
بالقيروان وباب الصين قد زبروا * وباب مرو وباب الهند والصغد

(وقال ايضا)

همو كتبوا الكتاب بباب مرو * وباب الصين كانوا الكاتبينا

أوذو الكناس وذو الكلاع ويحصب * أضحوا وهم للنائبات أضاحي
أم أين ذو أقنان أو ذو أقرع * أو ذو الجناح هزبر كل كفاح
أوذو العبير وذو ذرانح خانه * دهر بعيد البسر كالذلاح
أم أين ذو يبنين أو ذو امر * وبنو شراحيل وآل شراح
أم أين ذو ناب وذو هكر وذو * غمر وذو ضر وذو المسراح
أم أين ذو غيمان أو ذو شودن الـ * لاهي بيض في النساء ملاح
أم أين ذو شهران أو ذو ماور * أضحت ديارهمو بلا أقداح
أم أين ذو فهد وشهال ابنه * فلقد عفاهم دهرهم بمتاح
أم أين ذو شحط وذو نبع معاً * أو ذو ملاح لهو خير ملاح
أم أين ذو أوسان أو ذو ماذن * أم أين ذو التيجان والابراح

(١) الاقيال هم صغار الملوك الذين يقتصرون على مملكة صغيرة كالمخفد الكبير أو مؤلفة من بضعة قصور وفيهم طائفة من العباهل أو الملوك لحضرموت وقد ذكر الحميري بعضهم بقوله :

وعباهل من حضرموت من بنى * امجاد ذى الاشبال آل صباح
والعز من جدن وابنا مرة * وبني شيب والاولى المتاح
وبنى المزيل وآل فهد منهمو * من كل هش بالندي مرتاح

وهم خربوا سمرقندا بشمر (١) * وهم غرسوا هناك التُّبَّتينا

(وفيهم يقول الكلاعى أحد شعرائهم)

ورتبنا مراتب كل ملك * فكان لنا الخلائق مقتفينا
سننا للبرية كل فعل * جميل من فعال الأكرمينا
فهم يتشبهون بما فعلنا * وفى آثارنا يتتبعونا
وليسوا مدركين لنا لأنا * جعلنا السابقين الأولينا

(وفيهم يقول أيضاً ابن أبي الصلت)

لله درهم من عصبة خرجوا * مالى رأينا لهم فى الناس أمثالا
بيض مرازبة (٢) غلب أساورة * أسد تربب فى الغابات أشبالا

(الى أن قال يخاطب سيف بن ذى يزن)

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعا * فى رأس (غمدان) داراً منك محلالا
تلك المكارم لاقعبان من لبن * شيبا (٣) بماء فعادا بعد أبوالا

ومن حمير « قُضاعة » (٤) كانت مساكنهم ومراعى انعامهم جدة

(١) شمر اسم ملك من ملوك اليمن وكان من أعظم ملوكها همةوأوفرهم عقلا واقداما وأوسعهم فتوحات لانه فتح العراق وفارس وجزءاً من التركستان « بخاري » وأخرب مدينة « سمرقند » التى أشار اليها الشاعر وهى مدينة في العجم تسمى « الصغد » ولذا قيل لها بالفارسية «شمر كند» أى « شمر أخربها » ثم أعيدبناؤها فسموها«شمر كند» ثم بتصرف اللغات سميت « سمرقند »

(٢) مرازبة جمع مرزبان الشجاع (٣) وشيبا أى خلطا . والشوب الخلط يقال شاب كذا بكذا اذا خلطهما :

(٤) قضاعةهيأول من نزح من قبائل معد وكان السبب في نزحها حربا وقعت بينها وبين

من شاطئ البحر الاحمر فما دونها شرقا الى منتهى ذات عرق وهى الحد بين نجد (١) وتهامة الى حيز الحرم من السهل والجبل وهى عدة قبائل .

ربيعة بسبب فتاة ربيعية عشقها رجل قضاعي من بني نهد وانتصرت مضر واباد وانمار لربيعة وانتصرت عك لقضاعة فدارت الدائرة على قضاعة فاجلوا عن أماكنهم وعموا نجدا . وفي ذلك يقول عامر بن الظرب وهو من مضر

قضاعة أجلينا من الغور كله * الي فلجات الشام تزجى المواشيا
وما عن ثقال كان اخراجنا لهم * ولكن عقوقا منهمو كان باديا
بما قدم المنتدى لادر دره * غداة تمني بالحرار الامانيا

(١) نجد هي أطيب أرض في جزيرة العرب ولذلك ترى الشعراء قديما وحديثا يلهجون بذكرها ويترنمون برياها وربا عطرها . قال قائلهم

أقول لصاحبي والعيس تهوى * بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار
ألا ياحبذا نفحات نجد * وريا روضه بعد القطار
واهلك اذ يحل الحي نجدا * وأنت على زمانك غير زاري
شهود ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا سرار

(وقال الصمة عبدالله بن طفيل)

حننت الى ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الامر طائعا * وتجزع ان داعي الصبابة أسمعا
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى * وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الارض ماأطيب الربا * وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع * عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا * وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها * عن الجهل بعد الحلم أسلبتا معا

« بنو كلب » [١] رهط زهير بن جناب الكلبي الشاعر الخطيب الحكيم ودحية الكلبي بن خليفة الكلبي الذى كان ينزل جبريل عليه السلام فى صورته « وبنو تنوخ » [٢] و« بنو جرم » رهط عصام [٣] حاجب النعمان الذى يقول فيه النابغة الذبيانى

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والأقداما

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى * وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا
واذكر أيام الحمى ثم أنثنى * على كبدى من خشية أن تصدعا

(وقال ابن الدمينة الخثعمى)

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد * لقد زادني مسراك وجدا على وجدي
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى * على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن * جليدا وأبديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا ان المحب اذا دنا * يمل وان النأى يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع * اذا كان من تهواه ليس بذى ود

ولهم غير ذلك اشعار كثيرة لامحل لذكرها هنا .

(١) مساكنهم بالجندل وتبوك .

(٢) تنوخ على وزن صبور نزلوا البحرين ثم رحلوا الى الحيرة وأنشؤا بها دولة وكانت هذه الدولة في مشارف الشام والعراق . اقدمها في العراق جذيمة الوضاح . ولقد كان لهذه الدولة شأن جليل في تاريخ العرب لانها مهدت السبيل لدولة المناذرة أصحاب الحيرة وكانت دار ملكها فى المضيرة بين بلاد (الخانوقة) و (قرقيسيا) وأول ملوكها مالك بن فهم وخلفه ابنه جذيمة الوضاح المذكور وقد ذكر المؤرخون انه كان معاصرا للزباء ولامراء في ذلك لان له معها واقعة ذكرناها في غير هذا المحل .

(٣) هو عصام بن شهبر حاجب النعمان الذي ضرب به المثل بقولهم (ما وراءك

و «بنو جهينة» [١] و « بنو نهد » و «بنو عذرة » رهط ابن حزام صاحب عفراء وجميل صاحب بثينة وهما شاعران مفلقان وعاشقان مشهوران . ويتفرع من هـذه الأحياء بطون وافخاذ * وهذا جـدول يبين لك تفرع قبائل (قضاعة) باختصار .

قضاعة:
- اسلم ـ جهينة:
  - سليح ـ سعد ـ ضجعم ـ عوف ـ عمر:
    - هبولة ـ زياد
    - هبالة ـ داود اللثق
  - تزيد
- عمران ـ حلوان:
  - ربان
  - تغلب ـ وبرة:
    - النمر
    - أسد ـ تيم اللات ـ تنوخ
    - كلب ـ كنانة
- عمرو:
  - بهرا
  - بلى

ومن القحطانيين (بنو كهلان) بن سبأ وهي عدة قبائل منها (الازد) و (بجيلة) و (خثعم) و (همدان) و(كندة) و(مذحج) و(طيء) و (لخم) و(جذام) و (عاملة) * أما الأزد فهم عدة قبائل . منها (الأوس) و(الخزرج) انصار النبي صلى الله عليه وسلم [٢] ومنهم كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من

ياعصام) وأول من قال ذلك النابغة الذبياني وكان النعمان مريضا وقد أرجف بموته فسأل النابغة عن حال النعمان فقال (ماوراءك ياعصام) ومعناه ماخلفت من أمر العليل أوما أمامك من حاله .

(١) جهينة بضم فقتح فسكون كانت مساكنهم باطراف الحجاز من جهة بحر جدة .

(٢) الانصار هم الذين هاجر اليهم النبي صلى الله عليه وسلم فاحبوه ونصروه وقاتلوا أعداءه بين يديه وبذلوا النفس والنفيس في حبـه حتي نصره الله تعالي وأعز دينه وأظهره على الدين كله . وهم أعز الناس أنفسا وأشرفهـم هما . لم يؤدوا اتاوة الى أحـد من الملوك وكتب اليهم تبع الاكبر يستدعيهم الي طاعته ويتوعدهم ان لم يفعلوا ان يغزوهم فكتبوا اليه

العبد تبعكم يريد قتالنا * ومكانه بالمنزل المتـذلل
انا أناس لاينام بارضنا * عض الرسول ببظر أم المرسل

شعراء النبي صلى الله عليه وسلم : ومن الازد أيضاً « خزاعة » رهط كثيّر عزّة ودِعبل بن علي الشاعران المشهوران اللذان ورد فيهما الأثر المأثور . و« بارق » رهط سراقة بن مرداس والمعقر الشاعرين المشهورين . و« العتيك » رهط المهلب ابن أبي صفرة وثابت قطنة الشاعر « وثمالة » رهط أبي العباس محمد بن يزيد المبرِّد [١] وفيهم يقول عبد الصمد بن المعذّل .

سألنا عن ثمالة كل حي * فقال السامعون ومن ثماله
فقلت محمد بن يزيد منهم * فقالوا زدتنا بهمو جهاله
فقال لى المبرد خل عنى * فقومى معشر فيهم نذاله

و« بنو لهب » وهم أعيف حيّ فى العرب وفيهم يقول الشاعر

خبير بنو لِهب فلا تك ملغيا * مقالة لهبي اذا الطير مرت

و« غسان » [٢] ومنهم آل جفنة ملوك الشام الذين مدحهم سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه بقوله

فغزاهم تبع فكانوا يحاربونه نهاراً ويقرونه ليلا فقال تبع مارأيت قوما أكرم من هؤلاء يحاربوننا بالنهار ويخرجون لنا العشاء بالليل ثم ارتحل عنهم ومنهم حسان بن ثابت رضي الله عنه وقال يفتخر بذلك

نصرنا وآوينا النبي وصدقت * أوائلنا بالحق أول قابل
وكنا متي يغزو النبي قبيلة * نصل جانبيها بالقنا والقنابل

(١) المبرِد بكسر الراء وان كان المعروف فتحها لان المبرد رحمه الله تعالى كان يقول (برد الله من بردنى) وكان ابن التلاميد الشنقيطى رحمه الله يقول .

والكسر فى راء المبرد واجب * وبضده أهل الجهالة تنطق

(٢) وغسان اسم ماء نزل عليه قوم من الازد فنسبوا اليه ومنهم بنوجفنة رهط

لله در عصابة نادمتها * يوما بجلق فى الزمان الأول [١]
اولاد جفنة حول قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل [٢]
يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل
يسقون من ورد البريص عليهم * بردى يصفق بالرحيق السلسل [٣]
بيض الوجوه كريمة احسابهم * شم الأنوف من الطراز الأول

وعددهم سبعة وثلاثون ملكا [٤] ومدتهم نحو ستة قرون وآخرهم جبلة

الملوك قال حسان رضي الله تعالى عنه .

اما سألت فانا معشر نجب * الازد نسبتنا والماء غسان

(١) جلق بجيم ولام مشددة مكسورتين (دمشق) أو موضع قربها أو صورة امرأة كان الماء يخرج من فيها بقرية من قراها .

(٢) أراد بقوله (حول قبر أبيهم) انهم في مساكن آبائهم التى كانوا ورثوها عنهم ومارية أم الحارث كندية أو غسانية والثاني رجحه العلامة نشوان الحميرى فى شمس العلوم وهى أخت (امرئ القيس) صاحب المعلقة المشهورة (سيأتى ذكره عند ذكر المعلقات ان شاء الله تعالى) وليست أمه وهي التى يضرب بقرطيها المثل للترغيب في الشيء اذ يقال (خذه ولو بقرطى مارية) لدرتين كانتا كأنهما بيضتا نعامة أو حمامة وهي بالتخفيف وأصلها البقرة ذات الولد المارى . اما بالتشديد فالقطاة الملساء والمرآة أو المرأة البيضاء البراقة . والمارى ولد البقرة الوحشية الابيض وهي بهاء .

(٣) البريص بموحدة فراء فتحتية فصاد مهملة خلافا لمن أعجمها موضع بدمشق وبردى بفتحات نهر دمشق من البرد سمى بذلك لبرودة مائه . والتصفيق تحويل الشراب من اناء الى اناء ممزوجا ليصفو . والرحيق صفوة الخمر . والسلسل السهل .

(٤) كذا قال ابن خلدون ولا مشاحة في ان المؤرخين الثقات اختلفوا كثيرا فى عدد ملوك الدولة الغسانية اذ قد قرأت ان عددهم عند ابن خلدون ٣٧ ملكا وهم عند حمزة ٣٢ وعند ابن قتيبة ١١ وعند الجرجانى ٩ وعند المسعودى ١٠ وكما انهم

ابن الأيهم الذى اسلم فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه ثم عاد الى الروم متنصراً (سيأتى الكلام على هؤلاء الملوك قريبا)

و (دوس) ومنهم جذيمة الوضاح صاحب الزباء وابو هريرة رضى الله عنه

وأما « طيء » فنهم حاتم الطائي الجواد المشهور وأوس بن حارثة وزيد الخيل الشاعر وابو زيد الشاعر

وأما « مذحج » فهى عدة قبائل وهى « أود » رهط الأفوه الأودى الشاعر و« زيد » رهط عمرو بن معد يكرب الفارس المشهور

و« النخع » رهط الاشتر النخعى صاحب سيدنا علي كرم الله وجهه

و« عنس » رهط عمار بن ياسر رضى الله عنه والأسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن .

وأما « همدان » فهم رهط عمرو بن براقة الذى يقول

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم * فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم

متى تجمع القلب الذكى وصارما * وأنفا حميا تجتنبك المظالم

ولهمدان صيت فى الجاهلية والاسلام وكانوا شيعة علىّ كرم الله وجهه وفيهم يقول :

لهمدان أخلاق ودين يزينهم * وبأس اذا لاقوا وحسن كلام

فلو كنت بوابا على باب جنة * لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وأما « كندة » فهم رهط امرئ القيس الشاعر المشهور ومنهم ملوك كندة وآخرهم حجر بن الحارث أبو امرئ القيس (وسيأتى الكلام عليهم

اختلفوا في عددهم اختلفوا فى أول ملك منهم فقال بعضهم ثعلبة وقال آخرون الحارث بن عمرو وقال غيرهم جفنة وقيل غير ذلك . وعند الكلام عليهم نأتي بما هو أوثق .

فى محله) والأشعث بن قيس والمقنع الكندى .

وأما (بجيلة) فنهم رهط جرير بن عبد الله الصحابى رضى الله تعالى عنه الذى يقول فيه الشاعر :

لولا جرير هلكت بجيلة * نعم الفتى وبئست القبيلة

وأما (لخم) فنهم قصير بن سعد صاحب جذيمة الذى قيل فيه «لامر ما جدع قصير أنفه» ومنهم آل نصر الذين يعرفون بالمناذرة وهم ملوك الحيرة (وسيأتى الكلام على ترجمة كل منهم قريبا ان شاء الله تعالى) وكانت دولتهم من أعظم دول ملوك العرب وآخرهم النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى وكان بينهم وبين آل جفنة أحقاد وأضغان وحروب . ومنهم ابو أذينة الذى يقول مغريا ابن عمه الأسود بن المنذر بالغسانيين وكان أسر كثيراً منهم أراد أن يعفو عنهم

ما كل يوم ينال المرء ماطلبا * ولا يسوغه المقدور ماوهبا
وأحزم الناس من ان فرصة عرضت * لم يجعل السبب الموصول مقتضبا[1]

(١) الفرصة النوبة يقال للراعي جاءت فرصتك أي نوبتك ووقتك الذي تستقي فيه والسبب الحبل وغيره قال تعالى (فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع) يريد أن أعقل الناس وأبصرهم بالامور من لايتوانى عن المبادرة بالعمل في حينه ومثل ذلك مثل الساقي الذي اذا حانت فرصة لايقطع رشاء البئر فيفسد عليه عمله . وهذان البيتان مطلع القصيدة ومنها

وأنصف الناس في كل المواطن من * سقى المعادين بالكاس الذي شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم * بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو الا عن الاكفاء مكرمة * من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمرا وتستبقى يزيد لقد * رأيت رأيا يجر الويل والحربا
لاتقطعن ذنب الافعى وترسلها * ان كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

وأما (جذام) فمنهم روح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان وكانوا ينزلون بجبال حسمى . ومنهم بنو عائذ الذين نزلوا مابين بلبيس من أعمال مصر الى عقبة أيلة الى الكرك من ناحية فلسطين :

وأما (عاملة) فمنهم عدى بن رقاع الشاعر

وهذا آخر الكلام على القبائل اليمانية من ابناء قحطان الذين هم العرب العاربة وقد اتصل مجدهم فى الجاهلية بمجدهم فى الاسلام — قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من اجود العرب قالوا حاتم طيء قال فمن فارسها قالوا عمرو بن معد يكرب قال فمن شاعرهـا قالوا امرؤ القيس بن حجر قال فأى سيوفها أقطع قالوا الصمصامة قال كفى بهذا فخراً لليمن — وقال ابو عبيدة ملوك العرب حمير ومقوالها (١) غسان ولخم وعددها وفرسانها الأزد ولسانها مذحج وريحانتها كندة وقريشها الأنصار

هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا * وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا

« يشير بهذا البيت الي الغساسنة أنهم قتلوا أخاه فيطلب الانتقام له »

ان تعف عنهم يقول الناس كلهم * لم يعف حلما ولكن عفوه رهبا

همو أهلة غسان ومجدهمو * عال فان حاولوا ملكا فلا عجبا

« أهلة جمع هلال وهو غرة القمر وعني بذلك أنهم وجوه حسان وبقوله (فان حاولوا ملكا فلا عجبا) انك ان أطلقت سبيلهم فلا غرابة في أن يطمعوا في ملكك ولا يخفي مافى هذه البيت وماقبله من الاغراء والتحريض الشديد على قتلهم »

وعرضوا بفداء واصفين لنا * خيلا وابلا تروق العجم والعربا

أيحلبون دما منا ونحلبهم * رسلا لقد شوفونا بالذى حلبا

علام نقبل منهم فدية وهمو * لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

(١) جمع مقول بكسر الميم وهو دون الملك الاعلى سمى بذلك لانه يقول ما شاء فينفذ

الطور الثالث

﴿ العرب المستعربة ﴾

وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. وانما سموا كذلك لصيرورتهم عربا بعد ان كانوا فى عداد العجم من قولهم استنسر البغاث اى صار نسراً واستحجر الطين أى صار حجراً واستنوق الجمل اى صار جملا

وذلك ان ابراهيم عليه السلام لما ولد له اسماعيل من هاجر غارت سارة منها ومن ولدها وطلبت من سيدنا ابراهيم عليه السلام ان يخرجهما عنها فامره الله تعالى ان ينقلهما فسار بهما الى الحجاز واسكنهما بمكة وقال .

« رب انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة (طائفة) من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وأمر ابراهيم عليه السلام هاجر ان تتخذ لها مسكنا ثم كان من ظمأ اسماعيل وامه ما كان الى ان انبع الله لهما (زمزم) ثم قدم عليهما الجرهميون واقاموا معهما فتعلم اسماعيل منهم العربية بعد أن كان لسانه سريانيا وتزوج منهم امرأة تسمى (رعلة بنت مضاض) ولدت له أولاداً وتناسل بنوه غير ان سلسلة النسب من بعد اسماعيل محوطة بالشكوك والريب الى عدنان الذى هو أول النسب الصحيح لنبينا صلى الله عليه وسلم فولد عدنان معدا وولد معد نزار ثم ولد لنزار اربعة وهم مضر وربيعة وأياد وأنمار ثم تشعب كل شعب من بنى هؤلاء الأربعة الى قبائل نذكرها على هذا الترتيب.

« مضر »[1] جميع اولاد مضر يرجعون الى (خندف) و (قيس) وهما

(١) بنو مضر هم أهل الغلب والكثرة بالحجاز من سائر بني عدنان وكانت لهم الرئاسة

شعبان عظيمان ولكل منهما بطون

(بطون بنى خندف)

فمن (خندف) (١) (هذيل) و (كنانة) و (أسد) و (الهون) و (ضبة) و (مزينة) و (والرّباب) و (صوفة) و (تميم)

(هذيل)(٢) منهم عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل رضي الله تعالى عنه . وأبو ذؤيب وأبو كبير . وصخر الغى وأبو خراش الشعراء :

(كنانة)(٣) من قبائلها (قريش) و (الدّوَل) رهط أبى الأسود الدؤلى

(أسد)(٤) ومنهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم وعمرو بن شاس والكميت بن زيد وكل هؤلاء شعراء مجيدون . وبنو أسد هم قاتلو حجر والد امرئ القيس .

(الهون)(٥) منهم القارة أرمى حىّ فى العرب ولهم يقال (قد انصف القارة من راماها)

(ضبة)(٦) منهم عبد الله بن علقمة الشاعر الجاهلى .

---

(١) خندف على وزن زبرج وهي امرأة من قضاعة

(٢) على صيغة المصغر ومواطنهم بسروات متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ولهم أماكن في جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة .

(٣) ديارهم بجهات مكة

(٤) بفتحتين ومن بني أسد بطن كبير ذو بطون واسمه بنو أسد بن خزيمة بن مدركة وبلادهم فيما يلى الكرخ من أرض نجد وفي مجاورة طيء

(٥) الهون بضم الهاء (٦) بفتح أوله وتشديد ثانيه ومساكنهم بالناحية الشمالية من نجد

(مُزَينة) [١] منهم زهير بن أبي سلمى ومعن بن أوس الشاعران المشهوران واياس بن معاوية القاضى الذى ضرب به المثل فى الذكاء

(الرِّباب) [٢] هم (عدى) و (تيم) و (عكل) و (ثور) فمن عدى (ذوالرمة) الشاعر ومن تيم (عمر بن لجأ) الشاعر. ومن عكل (النمر بن تولب) الشاعر. ومن ثور (سفيان الثورى) الامام الفقيه المشهور الذى كانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث

(صُوفة) [٣] لاشهرة لاحد فيها.

(تميم) [٤] منهم (مقاعس) [٥] التى من أفخاذها (منقر) [٦] رهط قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم وخالد بن صفوان. ومن مقاعس أيضاً سلامة بن جندل والسليك بن السلكة الشاعران وعبد الله بن أباض رأس الاباضية

ومن تميم أيضاً (قريع) [٧] ومنهم (الاضبط بن قريع) الشاعر المشهور القائل

لكل ضيق من الامور سعة * والمُسْىُ والصبح لا فلاح معه

(وبنو أنف الناقة) الذين مدحهم الحطيئة بقوله

قوم هم الأنف والاذناب غيرهمو * ومن يُسوِّى بأنف الناقة الذنبا

ومن تميم أيضاً (بهدلة) رهط الزبرقان بن بدر الذى هجاه الحطيئة بقصيدته التى يقول فيها

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

و (البراجم) رهط ضابئ البُرجُمى الذى يقول

(١) على صيغة المصغر (٢) بكسر الراء وبلادهم بالدهناء (٣) بضم الصاد المهملة (٤) منازلهم بارض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة وانتشرت الى العذيب من أرض الكوفة (٥) بضم الميم وكسر العين المهملة (٦) بكسر فسكون ففتح (٧) على صيغة المصغر

هممت ولم أفعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

و (يربوع) ومنهم (رِيَاح) و (غُدَانة) و (ثَعلبة) و (كُلَيب) و (العَنبر) فمن (رياح) عتاب بن ورقاء الرياحي احد اجواد الاسلام وسحيم بن وائل الشاعر القائل .

انا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفوني

ومن (ثعلبة) متمم بن نويرة الذي رثى اخاه مالكا بقوله

أعينيَّ جودا بالدموع لمالك * اذا ذرت الريح الكنيف المرفعا(١)

ومن (كليب) جرير بن الخطفى الشاعر المشهور . ومن (العنبر)

(١) هذا البيت مطلع القصيدة التي قلما قيل مثلها في رثاء أحد . ومنها

فتى كان مقداما الى الروع ركضه * سريعا الى الداعي اذا هو أفزعا

فتى كان أحيا من فتاة حيية * وأشجع من ليث اذا ما تمنعا

تقول ابنة العمري مالك بعدما * أراك قديما ناعم الوجه أفرعا

فقلت لها طول الاساءة ساءني * ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا

لقد كفن المنهال تحت ردائه * فتى غير مبطان العشيات أروعا

لبيب يزين اللب منه سماحة * خصيب اذا ما راكب الجدب أوضعا

أغر كنصل السيف يهتز للندى * اذا لم تجد عند امرئ السوء مطمعا

وما كان وقافا اذا الخيل أحجمت * ولا طالبا من خشية الموت مفزعا

ولا بكهام ناكل عن عدوه * اذا هو لاقى حاسرا أو مقنعا

اذا ضرس الغزو الرجال وجدته * أخا الحرب صدقا في اللقاء سميدعا

وكنا كندماني جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وحسبك أني قد جهدت فلم أجد * بكفي عنه للمنية مدفعا

أسقي الله رضا حلها قبر مالك * رهام الغوادي المدجنات فأمرعا

سجاح بنت أوس التى تنبأت . ومن تميم ايضاً (أكثم بن صيفى) خطيب العرب وحكيمهم . وحاجب بن زُراة والأقرع بن حابس وقطرى بن الفُجَاءة وأوس بن حجر ومالك بن الرَّيب وعَلقمة بن عَبدَة والفرزدق والبعيث والاسود بن يَعفُر الشعراء المشهورون

﴿ بطون بنى قيس ﴾

تفرعت قيس الى (عَدْوان) و (غَطَفَان) و (أَعصُر) و (سليم) و (هوازن) (أما عدوان)[1] فمنهم عامر بن الظَّرب حكيم العرب بعكاظ وذو الاصبع العَدْوَاني خطيب العرب وشاعرهم وتأبط شرا

(غطفان)[2] تفرعت الى (عبس) (وذبيان) فمن (عبس) عنترة والحطيئة وعُروَة بن الورد الشعراء المشهورون .

وتشعبت الى (فزارة) (ومُرّة) فمن فزارة عمر بن هبَيرَة . ومن مرة هَرِم بن سنان الجواد المشهور ممدوح زهير والحارث بن ظالم والنابغة الذبيانى وشبيب ابن البرصاء المرى وعقيل بن علفة وابن ميَّادة والشماخ

و (أَعصُر)[3] تشعبت الى (غنى) و (باهلة) فمن غنى طُفَيل الغَنَوى الشاعر ومن باهلة سَحبان وائل الخطيب المصقع المشهور وقتيبة بن مسلم .

و (سُلَيم)[4] منهم (عمرو بن الشريد) أبو صخر ومعاوية . والخنساء وخُفَاف بن نُدبة والعباس بن مرداس الشاعران المشهوران .

(١) على وزن ظمآن ومنازلهم كانت بالطائف ثم خرجوا الى تهامة .

(٢) بفتحات مخففا ومنازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء (٣) بفتح فسكون فضم

(٤) على صيغة المصغر

(وهَوَازن)[1] تفرعت الى (سَعْد) وفيهم استرضع النبي صلى الله عليه وسلم و(نَصر)[2] رهط مالك بن عَوف النصرى قائد المشركين يوم حنين (وجُشَم) رهط دُرَيد بن الصِمَّة فارس العرب المشهور (وثَقِيف) رهط الحجاج ابن يوسف ويوسف بن عمر والمختار بن أبي عبيد وعروة بن مسعود عظيم القريتين والمغيرة بن شعبة وأبى الصلت الشاعر وابنه أمية بن أبى الصلت القائل

كل عيش وان تطاول يوما * صائر مرة الى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدَا لى * في رءوس الجبال أرعى الوعولا

و (عامر) (وسلول) . فأما (عامر) فقد تفرعت الى عدة بطون وهى .

(بنوهلال) رهط ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها وحميد بن ثور القائل في وصف الذئب

ينام باحدى مقلتيه ويتقى * بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

و(بنونمير) رهط الراعى الشاعر و (بنو كعب) وهم ست بطون . منهم (عقيل) رهط توبة بن الحمِيَّر صاحب ليلة الأخيلية . ومنهم (بنوالعَجلان) رهط تميم ابن مقبل الشاعر و (بنو قشير) و (بنوجعدة) رهط النابغة الجعدى و(بنوكلاب) رهط المحلق ممدوح الأعشى . ومنهم (بنوجعفر) رهط عامر ابن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة ولبيد بن ربيعة الشعراء المجيدين .

وأما (سلول) فهم رهط عبد الله بن همام الشاعر وهم الذين عناهم

(١) بفتح الهاء وتخفيف الواو وكسر الزاي

(٢) بفتح أوله وسكون ثانيه مواطنهم بالسروات بين تهامة ونجد

السموءل بقوله

وانا أناس مانرى القتل سبة * اذا مارأته عامر وسلول

﴿ بطون ربيعة ﴾

(ربيعة) [١] جميع ولد ربيعة يرجعون الى (عَنَزة) [٢] و(عبدالقيس) [٣] و (النمر بن قاسط) و (تغلب) و (بكر) [٤]

فأما (عنزة) فهم رهط القارظ العَنَزى .

وأما (عبدالقيس) فمنهم الممزق العبدى الشاعر وصعصعة بن صوحان من أصحاب على كرم الله وجهه والصلتان العبدى الشاعر

وأما (النمر بن [٥] قاسط) فمنهم صهيب بن سنان صاحب النبى صلى الله عليه وسلم وكان أصابه بسباء في الروم ثم وافوا به الموسم فاشتراه عبدالله بن جُدعان القرشي فاعتقه .

وأما (تغلب) فمنهم كليب وائل وأخوه مهلهل . وعمرو بن كلثوم . والاخطل . وكعب بن جُعيل . وكلثوم العتابي الشعراء المفلقون

وأما (بكر) فقد تشعبت الى عدة بطون . منها (ضُبيعة) رهط المتلمس

---

(١) ربيعة مساكنهم مابين الجزيرة والعراق والسبب في نزوحها من تهامة فتن قامت بين قبائلها

(٢) عنزة بفتحات مخففا (٣) عبد القيس كانت مواطنهم بتهامة ثم خرجوا الى البحرين والسبب في ذلك ماذكرت لك (٤) هذان البطنان بنو تغلب وبنو بكر هما اللذان كانت بينهما الحروب الهائلة المشهورة التى دامت أربعين سنة وتسمي حرب البسوس وبلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة . وبنو بكر لهم العدد والشهرة

(٥) النمر بفتح النون وكسر الميم وبلادهم بجهة يقال لها رأس العين

وطرفة بن العبد والمرقش الاكبر والمرقش الاصغر والمسيب بن علس وكل هؤلاء شعراء مشهورون . ومنها (يشكر)[١] رهط الحارث بن حلزة وسويد بن كاهل و(عجل)[٢] رهط الاغلب الشاعر الراجز. و(حنيفة)[٣] رهط هوذة بن على الذي يقول فيه الأعشى .

من يلق هوذة يسجد غير متئب * اذا تعصب فوق التاج أو وضعا

ولم يتوج فى الجاهلية معدى غيره ومنهم (مسليمة) الكذاب

و(شيبان)[٤] رهط جساس بن مرة قاتل كليب وقيس بن مسعود وابنه بسطام والمزدلف وعوف بن محلم الذى يقال فيه « لاحر بوادى عوف » والحوفزان . ومن ولده معن بن زائدة الجواد المشهور وشبيب الخارجى .ومنهم أيضاً الضحاك بن قيس الخارجى .

و(ذهل)[٥] رهط الحضين بن المنذر صاحب راية على بصفين وله يقول على كرم الله وجهه

عن راية سوداء يخفق ظلها * اذا قيل قدمها حضين تقدما

يقدمها فى الصف حتى يزيرها * حياض المنايا تقطر الموت والدما

(ومنهم) القعقاع بن شور الذى يقول فيه الشاعر

وكنت جليس قعقاع بن شور * ولا يشقى بقعقاع جليس

ضحوك السن ان أمروا بخير * وعند السوء مطراق عبوس

(١) يشكر على وزن الفعل المضارع (٢) بكسر فسكون ومنازلهم من اليمامة الى البصرة
(٣) حنيفة بفتح الحاء وكسر النون ومواطنهم باليمامة ومنهم ظهر مسليمة الكذاب .
(٤) شيبان بفتح أوله (٥) ذهل بضم فسكون وهذا البطن كثير الشعوب وكانت له الكثرة في صدر الاسلام شرقى دجلة في جهات الموصل وأكثر أئمة الخوارج في ربيعة منه.

ومنهم دَغفَل النسَّابة المشهور

و (قيس) رهط الحارث بن عباد والاعشى وسويد بن منجوف المشهور وعمران بن حِطّان .

(اياد)[١] لم تتفرع كثيراً . ومنهم قس بن ساعدة خطيب العرب المشهور وابو دُوَاد الشاعر و (انمار)[٢] لاعقب له وبعضهم يقول ان بجيلة وخثعما من ولده وهم يأبون ذلك ويقولون انهم من القحطانيين

﴿ بطون قريش ﴾

(قريش)[٣] هو الشعب العظيم في الجاهلية والاسلام وهو من ولد النضر

---

(١) اياد السبب في نزوح ايادمن تهامة حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في خانق وغلبت اياد على أمرها فخرجت من تهامة الى العراق . وفي ذلك يقول أحد بني حفصة من مضر

اياداً يوم خانق قد وطينا * بخيل مضرات قد برينا
تعادى بالفوارس كل يوم * غضاب الحرب تحمي المحجرينا
فأبنا بالنهاب وبالسبايا * واضحوا بالديار مجندلينا

ونزلت اياد في سواد العراق قرب مكان الكوفة .

(٢) أنمار السبب في نزوح انمار من تهامة خصام وقع بينها وبين مضر . والسبب في ذلك كما قال بعض المؤرخين أن أنمار فقأ عين أخيه مضر وهرب ولعلهم يرمزون بذلك عن شيء .

ولقد كانت هذه القبائل في منازلها قبل نزوحها بوفاق كأنهم قبيلة واحدة في اجتماع كلمتهم وائتلاف أهوائهم واتحادهم تضمهم المجامع وتجمعهم المواسم حتى وقعت الفتنة بينهم فتفرقت جماعاتهم واختلفت أهواؤهم وتباينت مساكنهم . والى ذلك يشير المهلهل بقوله .

غنيت دارنا تهامة في الدهـ * ـر وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا امرّت عليهم * بينهم يقتل العزيز الذليلا

(٣) قريش بالتصغير للتعظيم على حد قول القائل

ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . والنضر هذا هو جماع قريش عند الفقهاء فلا يقال لاحد من أولاد من فوقه قرشي . قيل سمي بذلك للتقرش وهو التجارة لانه كان من اهل المتاجر الواسعة . وقيل تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس لدواب البحر لانه كان من أهل الصولة والبأس الشديد . وبعض النسابة ينسب قريشاً الى فهر لا لأن فهراً هو قريش بل لأن عقب النضر الذي هو قريش منحصر فى فهر الذي لم يعقب من بنى النضر غيره

وقد ولد لقريش الذي هو النضر كما سبق (غالب) و(الحارث) و(محارب) فبنو الحارث وبنو محارب هم قريش الظواهر [١] وما سوى هذين من بطون قريش يقال لهم قريش البطاح [٢] وولد لغالب (لوءي) وولد للؤى (عامر وسعد وخزيمة والحارث وأسامة وكعب) ولكل منهم ولد ينتسبون اليه خلا الحارث

وولد (لكعب) مرة وهصيص [٣] وعدي ولكل منهم بطن ينتسب اليه

وولد (لمرة) كلاب وتيم [٤] ويقظة ولكل منهم بطن ينتسب اليه أيضا

وولد ليقظة مخزوم واليه ينتسب بنو مخزوم

وولد (لكلاب) قصى [٥] وزهرة [٦] ولكل منهما ولد ينتسب اليه

ما قلت حيي من التحقير * بل يعذب اسم الشئ بالتصغير

(١) الظواهر سموا بذلك لانهم سكنوا بظاهر مكة (٢) البطاح سموا بذلك لسكناهم ببطحاء مكة (٣) هصيص قال العلامة ابن خلدون ان بنى هصيص وبنى عدي وبنى مرة هم قريش البطاح وهو يخالف ما قدمناه لك من ان من عدا بنى محارب وبني الحارث هم الذين يقال لهم قريش البطاح كما ذهب اليه ابن عبد ربه وغيره من المؤرخين . ومن بني هصيص بنو سهم الذين منهم عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها وهصيص على صيغة المصغر (٤) ومن بنى تيم الخليفة الاول أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه (٥) قصى على صيغة المصغر (٦) وزهرة بضم أوله ومن بنى زهرة آمنة بنت وهب ام النبي صلي الله عليه وسلم

وولد (لقصى) وهو الذى جمع قريشاً وأثل مجدهم (عبد مناف وعبد الدار وعبدالعزى) [١] والبهم تنتسب بطون ثلاث .

وولد (لعبد مناف) وهو صاحب الشوكة في قريش (عبدشمس وهاشم والمطلب ونوفل). ولكل منهم ولد ينتسبون اليه

وولد (لعبد شمس) أمية ومنهم عثمان بن عفان الخليفة الثالث ومعاوية ابن أبي سفيان أول خلفاء بنى أمية رضى الله تعالى عنهم . (وربيعة) . ولكل منهما ولد ينتسب اليه .

وولد (لهاشم) عبد المطلب ولا يعلم له ولد غيره .

وولد (لعبد المطلب) عشرة بنين عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم وهو أصغرهم وحمزة [٢] وقثم والزبير [٣] وأبو لهب [٤] والعباس [٥] وأبو طالب [٦] والمقوم . وضرار . وحجل .

وهذا آخر الكلام في العرب المستعربة وهذا الجيل كما تري أكثر عدداً من العرب المتعربة ولكنه بقى مع ذلك تحت سلطان أهل الجيل الأول وهم العرب المتعربة ازمانا بما كان لهم من الملك السابق على العامر من جزيرة العرب وما حواليها وكثيراً ما حصلت بين الجيلين حروب كانت الغلبة فيها للعرب اليمانية قال تبع أحد ملوكهم

(١) ومن ولد عبد العزى خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) حمزة عقبه انقرض على ما قال ابن حزم (٣) ليس لقثم ولا للزبير عقب (٤) وابنه عتبة صحابي جليل رضى الله عنه (٥) وابنه عبد الله بن عباس أبو الخلائف من بنى العباس

(٦) وابنه على بن أبي طالب الخليفة الرابع وجعفر بن أبي طالب وفيهما ينتهي شرف بني أبي طالب

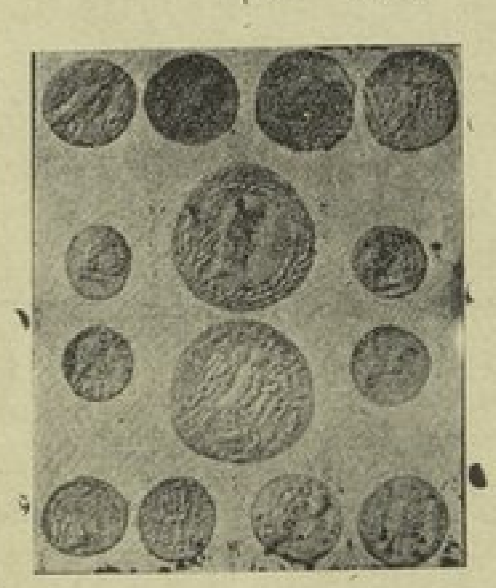
لست بالتبع اليماني ان لم * تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً * لم تعقها موانع العواق

ملوك الامة العربية في اطوار الجاهلية

﴿ ملوك اليمن (١) في الدولة الأولى ﴾

كان لملوك اليمن ألقاب مثل ألقاب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم كالصديق والفاروق والولى . والخلفاء العباسيين كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم وقد ذكرنا فيما يأتي أمثلة بجانب أسمائهم .

وقد ضرب اليمانيون نقودا نقشوا عليها صور ملوك اليمن وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند وزينوها برموز اجتماعية أو سياسية كصورة الصقر أو البومة أو رأس الثور وهو رمز للزراعة والفلاحة أو صورة الهلال وهو رمز ديني عندهم . وبجانب تلك



ش ٣ (أمثلة من نقود السبأيين في اليمن)

الرموز كتابة بالقلم المسند كالخراطيش . ومن هذه النقود مجموعة جميلة محفوظة في المتحف الأدبي في ڤينا هذه أمثلة منها (انظر شكل ٣)

(١) اليمن اقليم عظيم متسع الارجاء متباعد الاطراف والأنحاء لم يزل محموداً على ألسنة الاصفياء لما أودع فيه من البركة في جميع الاشياء وقد كان يسمي الخضراء لكثرة مزارعه ونخيله واشجاره وأثماره ومراعيه وربعه قال الكلاعي في قصيدته .



(الخريطة الثالثة) بلاد العرب في أيام دول اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى السادس بعده

ويؤخذ من صورهم على النقود التي وصلت اليهم ان ملوك اليمن كانوا يضفرون شعورهم جدائل ويرسلونها على أقفيتهم أو على جانبي رؤسهم أو خدودهم ويظهر انهم لم يرسلوا لحاهم ولا شواربهم لأننا لم نجد لها صورة على النقود التي ضربت عليها صورهم ولا على غيرها من الصور التي اكتشفت في اليمن حتى الآن .

هي الخضراء فاسأل عن رباها * يخبرك اليقين المخبرونا
ويعطرها المهيمن في زمان * به كل البرية يظمؤنا
وفي أجبالها عز عزيز * يظل له الورى متقاصرينا
وأشجار منورة وزرع * وفاكهة تروق الآكلينا

وكانوا يركبون الأفراس أو المركبات تجرها الخيول أو الافيال ويؤيد ذلك ماذكر فى العرب قبل الاسلام عن (ثيوفانس) وهو خبر الوفد الذى ارسله (يوستين) قيصر القسطنطينية فى أوائل القرن السادس للميلاد الى ملك حمير ورئيس الوفد اسمه (يوليانوس) قال (انه رأى الملك واقفا على مركبة يجرها أربعة أفيال وليس عليه من الملابس الا مئزر محوك بالذهب حول حقويه واساور ثمينة فى ذراعيه يحمل بيده ترسا ورمحين وحوله رجال من حاشيته وعليهم الاسلحة يتغنون باطرائه وتفخيمه فلما وصل السفير قدم له كتاب القيصر فتناوله الملك وقبله ثم قبل السفير نفسه وقبل الهدايا التى حملها. وفحوى الكتاب ان يرسل رجاله لدفع الفرس عن حدود بلاده ويحفظ طريق التجارة مفتوحا لتجار الاسكندرية فوعد السفير انه فاعل ذلك)

وأول من تولى الملك على بلاد اليمن «قحطان» ثم خلفه ابنه «يعرب» وهو أول من نطق بالعربية كما ذكرنا لك وأول من حيي بتحية الملك (ابيت اللعن) و(انعم صباحا) وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة ولما مات تولى الملك بعده ابنه «يشجب» ولما مات خلفه على الملك ابنه «عبد شمس» الملقب بسبأ وهو أول من خطب فى الجاهلية على الجماعة ولبث فى ملكه خمسا وثلاثين سنة ثم بعد موته تولى ابنه «حمير» مؤسس الدولة الحميرية وهى طبقتان . الملوك والتبابعة .

أما ملوك حمير فاختلف المؤرخون فى عددهم وعصورهم وتواليهم ولا تجد أيها القارئ اثنين منهم متفقين فى اسمائهم وعددهم وتعاقبهم ولكنهم اتفقوا على أن آخر ملوك حمير «الحارث الرائش» وهو أول التبابعة وهاك جدولا قابلنا فيه بين توالى ملوك الدولة الحميرية باختلاف الرواة بين حمير

والحارث الرائش ليبين لك صحة ماقلناه

القصيدة الحميرية		أبو الفداء		ابن خلدون	المسعودى
حمير	زهير الصوار	حمير	لقمان	حمير	حمير
الهميسع	ذو تقدم	وائل	ذوسدد	وائل	كهلان
أيمن	ذو أنس	السكسك	الحارث	السكسك	أبو مالك
زهير	عمرو	يعفر		يعفر	جبار بن غالب
عريب	الملطاط	ذو رياش		النعمان	الحارث
الغوث	القليص	النعمان		ذورياش	
وائل	سدد	اشمح		اشمح	
عبدشمس	الحارث	شداد		الحارث	

وأشهر ملوك الدولة الحميرية وأحقهم بالذكر فى صفحات التاريخ عدة ملوك منهم « حمير » مؤسس هذه الدولة

﴿ حمير بن سبأ ﴾

هو حمير بن سبأ تولى الملك بعد موت والده وكان أشجع أهل زمانه وميالا للفتوحات حتى يقال ان فتوحاته وصلت الى الصين وبنى مدنا عديدة وهو الذى طرد قوم ثمود من اليمن الى الحجر. وهو أول من توّج بتاج من الذهب . وأول من نظم الشعر من العرب وكان ملكه ٨٥ سنة وقيل ٥٠:

ثم مازال الملك ينتقل من والد الى ولده من تلك السلالة الى ان آل ملك اليمن الى النعمان بن يعفر

﴿ النعمان بن يعفر ﴾

تولى الملك وهو صغير لانه ولد قبل موت ابيه بايام قلائل وقيل بأربعة أشهر ولصغر سنه جلس على سرير الملك باسمه عامر بن بازن الملقب بذى رياش ولقب بذلك للبسه الثياب الفاخرة . ولما استقر قدمه في المملكة وأطاعه العباد حدثته نفسه بقتل النعمان ليتخلص الملك لنفسه ولذريته فشعر بذلك اشراف حمير وأعيانهم فخلعوا طاعته وانتصروا للنعمان. وبذلك قامت حروب دموية بين أنصار عامر وأنصار النعمان وكان النصر فيها حليف الأخير فهرب ذوالرياش وكان آخر العهد به وكانت مدة ملكه ١٢ سنة

ولما تم الأمر للنعمان ظهر عدله وحلمه وجودة رأيه لانه كان من أعقل ملوك اليمن ذا جبروت وسطوة فهابه الناس وعظموه . وغزا عدة غزوات توج فيها بالنصر المبين والفوز العظيم . وكان يلقب بالمعافر لقوله

اذا أنت عافرت الامور بقدرة * بلغت معالى الاقدمين المقاول

ثم مات بعد ان حكم ٤٤ سنة

ولم يزل الملك في ولد حمير لا يعدو ملكهم اليمن حتى مضت قرون وصار الملك الى « الحارث الرائش » الذى هو اول ملوك التبابعة :

﴿ التبابعة ﴾

أول التبابعة « الحارث الرائش التبعي » وسمى بذلك لان دولة حمير كانت قبل الحارث شطرين احدهما في سبأ والآخر في حضرموت فلما ظهر الحارث الرائش فتح البلدين جميعهما وتبعوه . وآخرهم ذو جدن . وهذا جدول اسمائهم ومدة حكم كل منهم عن حمزة الاصفهانى :

مدة الحكم		اسم الملك	مدة الحكم		اسم الملك
١٢٥	١	الحارث الرائش	٧٠	١٤	اسعد أبو كرب
١٨٣	٢	ابرهة ذو المنار	١٢٠	١٥	حسان بن تبع
١٦٤	٣	افريقس بن ابرهة الصعب	٦٣	١٦	عمرو بن تبع
٢٥	٤	العبد ذو الاذعار	٧٤	١٧	عبيد كلال
٧٥	٥	هدهاد بن شرحبيل	٧٨	١٨	تبع بن حسان
٢٠	٦	بلقيس بنت هدهاد	٤١	١٩	مرثد بن عبيد
٨٥	٧	ناشر النعم	٣٧	٢٠	وليعة بن مرثد
٣٧	٨	شمر يرعش	٠٠	٢١	ابرهة بن الصباح
٥٥	٩	ابو مالك	١٥	٢٢	صهبان بن محرث
٥٣	١٠	تبع بن الاقرن	٥٧	٢٣	حسان بن عمرو بن تبع
٧٠	١١	ذو جبشيان	٢٧	٢٤	ذو شناتر
١٦٣	١٢	الاقرن بن مالك	٢٠	٢٥	ذو نواس
٣٥	١٣	كليكرب ينعم	٨	٢٦	ذو جدان

وأشهر ملوك التبابعة وأحقهم بالذكر فى صفحات التاريخ عدة ملوك منهم « الحارث الرائش » الذى هو أول التبابعة باتفاق جميع المؤرخين

﴿ الحارس الرائش ﴾

هو تبع الأول لقب بالرائش لانه راش الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من الغنائم . وقد ذكر ابن قتيبة ان الرائش المذكور غزا الهند والترك وما يليها وكانت مدة ملكه ١٢٥ سنة وفى عصره مات لقمان صاحب

النسور [1] وقد ذكر الحارث الرائش نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنشده

(١) لقمان صاحب النسور هو الذي بعثته عاد في وفدها الى الحرم ليستسقي لها فلما هلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر من أظب عفر في جبل وعر لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاختار النسور فكان آخر نسوره يسمى لبدا وقد ذكرته الشعراء . قال النابغة الذبياني .

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا * أخنى عليها الذي أخنى على لبد

(وقال لبيد بن ربيعة الجعفري)

ولقد جري لبد فأدرك جريه * ريب الزمان وكان غير مثقل

(وقال لبيد أيضاً)

لما رأى لبد النسور تطايرت * رفع القوادم كالفقير الاعزل
من تحته لقمان يرجو نهضة * ولقد رأى لقمان أن لا يأتلي

(وقال الاعشي)

لنفسك اذ تختار سبعة أنسر * اذا ما مضي نسر خلوت الي نسر
فعمر حتى خال ان نسوره * خلود وهل تبقى النفوس على الدهر
وقال لأدناهن اذا حل ريشه * هلكت وأهلكت ابن عاد وما تدري

(وقال الضبي)

أولم تري لقمان أهلكه * ما اقتات من سنة ومن شهر
وبقاء نسر كلما انقرضت * أيامه عادت الي نسر

وسماه لبدا معتقدا فيه أنه أبدا فلا يموت ولا يذهب ويزعمون انه حين كبر قال له انهض لبد . فانت نسر الابد .

ولقمان هذا هو ممن آمن بهود عليه السلام وهلك قومه لكفرهم به فاهلكهم الله بالريح التى أرسلت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع منهم أحدا وسلم هود ومن آمن معه وكان ابتداء ارسالها عليهم يوم الاربعاء فلم تدر الاربعاء وعلى الارض منهم حى . ولقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم هو غير لقمان هذا .

ابن قتيبة له فقال :

واحمد اسمه ياليت أنى * أعمر بعد مبعثه بعام

﴿ أبرهة ذوالمنار ﴾

كان هـذا الملك كثير الغزوات وهو أول من أقام المنار على طريقه ليهتدى بها عند رجوعه فدعى بذى المنار وكانت مدة ملـكه ١٨٣ سنة ولما مات قام بالأمر بعده ابنه (أفريقس)

﴿ أفريقس ﴾

كان هذا الملك جسوراً دخل بجيشه بلاد أفريقية من برزخ السويس ومن اسمه اشتق اسم أفريقيـة الذى أعطى لتلك القارة من ذلك الحين . واستمر هذا الملك يفتح البلدان حتى انتهى الى أقصى بلاد المغرب (مُرَّاكش) فأسكن بعضاً من العرب فى شمال أفريقية وسمى سكانها الاصليين بالبربر ثم مات وتولى بعده على سرير الملك أخوه (عمرو الملقب بذى الاذعار)

﴿ عمرو ذوالاذعار ﴾

كان هـذا الملك جافى الطبع سفاكا للدماء كثير الظلم والكبرياء لم يعبأ بوصية أبيه أبرهة وكان ينشده قبل وفاته

ياعمرو انك ماجهلت وصيتى * اياك فاحفظها فانك ترشد

ياعمرو لا واللّه ما ساد الورى * فيما مضى الا المعين المرفد

ياعمرو من يشرى العلى بنواله * كرما يقال له الجواد السيد

كل امرىء ياعمرو حاصدزرعه * والزرع شىء لامحالة يحصد

وهو الذى حمل النسناس (الحيوان المعروف) الى اليمن فذعرت منه

ولذلك لقب بذى الاذعار وحارب الفرس فاسر ملكها (كيقاوس) وبقى فى أسره الى أن خلصه وزيره رستم . وفى آخر أيامه عصاه قومه من جوره واستبداده وظلمه وعسفه وخرجوا عن طاعته وأخيراً خلعوه عن الملك وقلدوه (لشرحبيل) ابنه

﴿ شرحبيل ﴾

كان هذا الملك شديد البأس والنجدة عالى الهمة ولما تولى على ملك اليمن بعد خلع والده أظهر من العدل والشجاعة والثبات وجودة الرأى مايستوجب الثناء الجميل عليه فى صفحات التاريخ وهو الذى بنى بصنعاء قصر « غمدان » الذى تقدم ذكره . ولما مات تولى بعده ابنه (الهدهاد) وبعد موت الهدهاد تولت ابنته (بلقيس)

﴿ بلقيس بنت هدهاد ﴾

كانت هذه الملكة ذات جمال باهر وعقل راجح زاهر تحب العدل والانصاف وتكره الظلم والاعتساف وكانت معاصرة لنبي الله سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فهي التى نقل الهدهد خبرها الى سيدنا سليمان صلى الله عليه وسلم وسمعت بحكمه فأوفدت اليه الوفود بالهدايا الفاخرة ثم سافرت الى أورشليم (بيت المقدس) مقر حكم سيدنا سليمان عليه السلام والتقت به فبالغ فى اكرامها وآمنت على يديه وبعد أن اقامت عنده ماشاء الله ان تقيم عادت الى بلاد اليمن فوجدت عمراً ذا الاذعار الذى خلعت حمير طاعته قد اغتصب الملك فأثارت الحرب بينها وبينه وانتهى الأمر بأن تزوجت به فمكثت شهراً ثم سمته وانفردت هى بالملك بعده. ولما ماتت قام بالأمر بعدها عمها مالك الملقب

(بناشر النعم) .

﴿ ناشر النعم ﴾

كان هذا الملك شديد السلطان قويا فى أمره أراد ان يغزو بلاد المغرب « أى أفريقية » فلما سار بجيشه هبت فى أثناء الطريق ريح شديدة فابادت جانبا عظيما من جيشه الجرار فكر راجعاً وأمر باقامة تمثال من نحاس فى أول مسالك تلك البقاع « وادي الرمال » وكتب على صدره بالخط المسند الحميرى « هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب »

ورجع وكانت مدة ملكه ٨٥ سنة ثم قام بالامر بعده ابنه (شمر يرعش)

﴿ شمر يرعش ﴾

كان هذا الملك ذاهمة وبطش شديد كثير الغزوات غزا العراق وفارس وسار منها الى الصين فأضله الخبراء عن الطريق وقادوه الى صحارى لاقوت بها ولا ماء فهلك هو وجيشه وكانت مدة ملكه ٣٧ سنة ثم قام بالامر بعده ابنه (أبو مالك ناشر النعم)

﴿ ابو مالك ناشر النعم ﴾

تولى هذا الملك بعد موت أبيه وقد عزم على فتح الصين ليأخذ بثأر ابيه ولكن بدا له ان يغزو أولا بلاد المغرب فقصدها فوافاه الاجل المحتوم فى الطريق * وبموت ابى مالك هذا انتقل هذا الملك من نسل حمير بن سبأ الى نسل كهلان . فتولى من نسل كهلان عدة ملوك لا فائدة فى ذكرهم هنا . ثم عاد الملك للحميريين وبذلك دخلت مملكة اليمن فى طور جديد يسمى فى التاريخ بالدولة الثانية للحميريين

الدولة الثانية

﴿ ملوك حمير على اليمن ﴾

﴿ تبع بن الاقرن(١) ﴾

هو أول ملوك هذه الدولة . غزا الترك في حد اذربيجان فهزمهم شر هزيمة وسبى منهم ورجع ثم غزا الصين ثم رجع . ثم خلفه على سرير الملك ابنه كليكرب وكانت مدة ملكه ٣٥ سنة وقال الاصفهاني كانت مدة ملكه ٥٣ سنة وبعد أن مات قام بالامر بعده . (أسعد أبو كرب)

﴿ أسعد أبو كرب ﴾

هو تبع الاوسط كان كثير المغازى والحروب وكان يغزو بالنجوم ويعمل أعماله كلها على أحكامها وكان عالى الهمة شديد الضغط على الحميريين فشق ذلك عليهم وكرهوه وهموا بقتله وأنفذوا ماهموا به ثم ندموا على قتله

---

(١) تبع هذا هو القائل

منع البقاء تقلب الشمس * وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافية * وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما * يجرى حمام الموت في النفس
اليوم نعلم ما يجئ به * ومضى بفصل قضائه أمس

وبعض الرواة ينسب هذا الشعر لقس بن ساعدة الايادي .

ويقال انه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم[١] وبعد أن قتل ولوا بعده ابنه المسمى (حسان)

(حسان بن تبع الاوسط)

تولى هذا الملك بعد قتل ابيه فاخذ ينتقم من قتلة أبيه فاتفق الحميريون مع أخيه (عمرو بن تبع) على أن يكون هو الملك ان قتل أخاه حسان فقتله وآل الملك اليه من بعد :

(ومن) أعمال حسان ماتقدم من نصرته بقايا طسم والانتقام من جديس وقتل اليمامة كما ذكرت لك ذلك فيما تقدم .

(عمرو بن تبع)

هذا الملك بعد أن قتل أخاه واستولى على الملك ترا كمت عليه الامراض ومنع منه النوم فشكا ذلك الى بعض خواصه فقيل له أن النوم لا يأتيك أو تقتل قتلة اخيك فنادى فى جميع مملكته ان الملك يريد أن يعهد عهداً غدا فاجتمعوا وأقام لهم الرجال وقعد فى مجلس الملك ثم أمرهم أن يدخلوا خمسة خمسة وعشرة عشرة فاذا دخلوا عدل بهم فقتلوا حتى أتى على عامة القوم

(١) وفي ذلك يقول

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمرى الى عمره * لكنت وزيرا له وابن عم

(ومن شعره قوله)

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما * ملكا تدين له الملوك وتحشد
من بعده بلقيس كانت عمتى * ملكتهمو حتى أتاها الهدهد

وأدخل عليه رجل يقال له ذورعين كان هذا الرجل منعه عن قتل أخيه فلم يعبأ به فلما رآه ذكره بما كان قاله له وانشد شعرا يقول فيه :

ألا من يشترى سهرا بنوم * سعيد من يبيت قرير عين
فان تك حمير غدرت وخانت * فمعذرة الاله لذى رعين

فامر بتخليته واكرامه وقربه واختصه . وقد اضطربت أحوال عمرو المذكور وترك الغزو ولزم الفراش فسماه العرب (الموثبان) ومعناها بلغة حمير (كثير القعود على الوسادة) ولما اشتد به المرض وأنهكه السقم صار لا يخرج الا محمولا على نعش فسمى ذا الاعواد . وفى مدة ملكه تزوج عمرو بن حجر الكندى ابنة حسان بن تبع فولدت له الحارث وكان ملك ذى الاعواد ٦٤ سنة على ما رواه المسعودى خلافا لما رواه حمزة من انه كان ٦٣ سنة وقد تقدم ذكره فى جدوله . ثم تولى بعده (عبيد كلال بن مثوب) وكان مؤمنا على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت مدة ملكه ٧٤ سنة . ثم ملك بعده (تبع ابن حسان الاصغر)

﴿ تبع بن حسان الاصغر (١) ﴾

هذا الملك هو الذى أدخل فى اليمن دين اليهود وقيل انه أراد هدم

---

(١) تبع بن حسان الاصغر هو القائل

لست بالتبع اليماني ان لم * تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسرا * أو تعقى سوائق العواق

البيت الحرام فنهاه اليهود عن ذلك فكساه ورجع عن هدمه .(١) وتبع هذا هو الذى عقد الحلف بين ربيعة واليمن وكانت مدة ملكه ٧٨ سنة . ثم تولى بعده (مرثد بن عبيد كلال)

(مرثد بن عبيد كلال)

كان هذا الملك ذا رأى سديد وبأس شديد وجود وسخاء وكانت مدة ملكه ٤١ سنة ثم قام بالامر بعده « وليعة بن مرثد »

(وليعة بن مرثد)

هذا الملك بعد توليته على اليمن استعمل مع الحميريين الشدة والجور وعاملهم بسوء الخلق فقد كان واهى العزيمة ضعيف الرأي وكانت فيه خفة وطيش وأخلاق استوجبت ذمه لسوء سيرته وضعف عزيمته وعدم ثباته على حال واحد فكان فى بعض الاحيان يظهر انه يهودى وفى بعضها يدعى النصرانية ولذا حصل اضطراب عظيم فى مملكته وعصته عدة قبائل وخلعت طاعته وكانت مدة ملكه ٣٧ سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح الذى كان جواداً كريماً حسن المحاضرة

(١) وفي ذلك يقول :

ورد الملك تبع وبنوه * ورثوهم أباهم والجدودا
اذجينا جيادنا من ظفار * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قتاد * وابن اقلود قائما مصفودا
فكسونا البيت الذي حرم * الله ملاء مقصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا له به اقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا * وسجدنا عند المقام سجودا

مقصوداً من جميع الجهات وبعد موته تولى ابنه (الصهبان بن محرث)

﴿ الصهبان بن محرث ﴾

تولى هذا الملك بعد موت أبيه وكان شجاعاً كثير الغارات قتله رجل يقال له السفاح (في يوم خزاز) وسيأتي الكلام على هذا اليوم عند ذكر أيام العرب. ثم بعد قتله تولى (حسان الثاني بن عمرو بن تبع)

﴿ حسان الثاني بن عمرو بن تبع ﴾

وقع في عهد هذا الملك حروب هائلة دامت أربعين سنة تسمى حرب البسوس (سيأتي الكلام عليها عند كلامنا على حروبهم) وحسان هذا هو الذي أتاه خالد بن جعفر بن كلاب العامري في أسارى قومه فأطلقهم وامتدحه خالد وكانت مدة ملكه ٥٧ سنة. ثم تولى بعده رجل ليس من أهل بيت الملك يدعى ذا شناتر وكان فظا غليظ الطبع عاتيا مجاهراً بالفحشاء مات قتيلا بعد ان حكم ٢٧ سنة وقيل سنتين. وبعد قتله تولى بعده (ذو نواس)

﴿ ذو نواس(١) ﴾

هو ذرعة بن كعب. كان هذا الملك جميل الصورة ولما تولى على الملك

(١) نواس من النوس وهو تذبذب الشيء وشدة حركته وسمي بذلك لضفيرتين كانتا تنوسان (أي تتحركان) على عاتقه. وذكره عمرو بن معد يكرب في شعر قاله لعمر رضوان الله عليه وقد خفقه عمر بالدرة لكلام دار بينهما فقال:

أتضربني كأنك ذو رعين * بأنعم عيشة أو ذو نواس
فكم ملك قديم قد رأينا * وعز ظاهر الجبروت قاسي
فأصبح أهله بادوا وأضحى * ينقل من أناس الى أناس

فقال صدقت يا أبا ثور قد هدم ذلك كله الاسلام

تهوّد وسمى نفسه يوسف وحمل الناس على الدخول فى دين اليهودية وعذب كل من خالفه فى ذلك أشد العذاب وبذلك تقوت عصبية اليهود وحملوه على غزو نصارى نجران فحمل عليهم ودعاهم أوّلا للتهوّد فامتنعوا لانهم كانوا على الدين الأول الذى جاء به عيسى عليه السلام وبذلك حفر الأخدود وأوقد فيها النيران والقاهم فيه أحياء على مشهد من الناس وبذلك استحق هو وأتباعه الوعيد الشديد المذكور فى قوله تعالى «قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ـ الى قوله تعالى ـ العزيز الحميد» ولم ينج من نصارى نجران الا رجل اسمه «ذو ثعلبان» وقيل دوس ثعلبان. هرب هذا الرجل الى بلاد الحبشة واستنجد النجاشى ملك الحبشة لأنه كان على دين النصرانية على ذى نواس فكتب ملك الحبشة الى قيصر يعلمه بذلك ويستأذنه بالتوجه الى اليمن لمحاربة ذى نواس فأذن له فلما علم

وذورعين الذي ذكره هذا الشاعر أحد ملوك اليمن الاول واسمه (يريم) ورعين اسم حصن كان له وهو في الاصل تصغير رعن والرعن الانف النادر من الجبل و يريم من قولك فلان لايريم مكانه أى لايبرح من مكانه قال زهير (لمن طلل برامة لايريم) ومات أخ لذى رعين فعزّاه بعض أهل اليمن فقال .

ان الخلق للخالق والشكر للمنعم والتسليم للقادر ولابدّ مما هو كائن وقد حلّ مالايدفع ولا سبيل الى رجوع ماقد فات وقد أقام معك ماسيذهب عنك وستتركه فما الجزع مما لابدّ منه وما الطمع فيما لايرجي وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفرع بعد الاصل فافضل الاشياء عند المصائب الصبر وانما أهل الدنيا سفر لايحلون عن الركاب الا في غيرها فما أحسن الشكر عند النعم والتسليم عند الغير فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع هل رد أحداً منهم الى ثقة من درك واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف فأفق والمرجع قريب واعلم أنما ابتلاك المنعم وأخذ منك المعطي وماترك أكثر فان نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر

ذو نواس بتجريد الجيوش من الحبشة لمحاربته أعدّ عدته ولاقاهم على ساحل البحر الاحمر عند عدن وهناك تقاتل الفريقان قتالا شديداً انجلى عن هزيمة يوسف ذى نواس وجيشه نخاف ذو نواس ان يقع أسيراً فى يد أعدائه فاقتحم البحر بجواده وقال (ان الغرق فى البحر أفضل من الاسر) فضربته الأمواج فمات غرقا وكان آخر العهد به . ومدة ملكه ٤٨ سنة خلافا لما رواه حمزة من أنها كانت ٢٠ سنة وبعد موته قام بامر الملك بعده ملكان يقال للاول منهما «ذوجدن» وللثانى «ذو يزن» وكلاهما حاربا الاحباش . وبموت ذى يزن هذا صارت اليمن ملكا للاحباش فأسسوا الدولة الثالثة

الدولة الثالثة

﴿ بلاد اليمن فى عهد الأحباش ﴾

﴿ ارياط الحبشى ﴾

هو أول من تولى عمالة اليمن من الاحباش وكان يحترم الاشراف ويستذل الضعفاء ويحملهم من العمل مالا يطيقون فاشتكوا الى ابرهة الاشرم (١) أحد رؤساء الجيش فاخذ أبرهة بناصرهم وطلب من ارياط رفع المظالم عنهم فقاومهم ارياط مقاومة شديدة أدت الى وقوع حرب بينهما انتهت بقتل ارياط وبعد قتله جلس على عرش الملك (ابرهة الاشرم)

﴿ ابرهة الاشرم ﴾

كان هذا الملك يميل بطبعه الى الديانة النصرانية وفى مدته أراد أن

(١) سمى الاشرم لشرم أنفه من ارياط حينما وقع القتال بينهما

يحول الحج من مكة الى اليمن فامتنع الناس عن ذلك فجرد جيشاً نحو مكة لتخريب الحرم وجعل فى مقدمة الجيش فيلا عظيما اسمه (محمود) ولما قاربوا مكة وأبى الفيل ان يتوجه نحو بيت الله الحرام واذ ذاك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل فاهلكتهم عن بكرة أبيهم كما نص الله ذلك فى القرآن الشريف بقوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) أى أبرهة وقومه (ألم يجعل كيدهم في تضليل) حيث لم يظفروا بما أرادوا (وارسل عليهم طيراً أبابيل) اى جماعات (ترميهم بحجارة من سجيل) اى طين مطبوخ فى جهنم (فجعلهم كعصف مأكول) أى ورق زرع مهشم : ولاهمية هذه الحادثة جعل عام الفيل مبدأ لتاريخ فى العرب . وفى تلك السنة ولد المصطفى صلي الله عليه وسلم قيل بعد تلك الواقعة بأربعين يوما وقيل غير ذلك

استرداد ملك اليمن من الاحباش

سيف بن ذى يزن

هذا الملك هو ابن ذى يزن الذى بقتله دخلت اليمن فى ملك الاحباش. وكان سيف هذا جميل المنظر عالى الهمة عظيم الهيبة قوى السلطان شديد البأس كريم الاخلاق جوادا حسن التدبير والسياسة . وكان قد ترك بلاد اليمن بعد موت أبيه وتوجه لقيصر الروم واستنجده فى رد ملك والده فلم يجبه قيصر لطلبه فقصد كسرى انو شروان ملك العجم لهذا الغرض فاجابه الى طلبه وأرسل معه جيشا تحت قيادة (وهرز) فاخرجهم من اليمن ورد اليه ملكه فتربع سيف على ملك أجداده تحت رعاية الاعجام واتخذ مقر أعماله

قصر (غمدان) بمدينة صنعاء[1] التي كانت اذ ذاك عاصمة ملكه .

وقد نظم أمية بن أبي الصلت قصيدة يهنئ[2] بها سيف بن ذي يزن يوم تغلبه على الاحباش قال بمطلعها .

---

(١) صنعاء هي أحدث عواصم اليمن قبل الاسلام نزل الاحباش بها بعد فتح اليمن وفيها عدة قصور أشهرها غمدان . وهي طيبة الهواء قدتغنى الشعراء في وصفها واطراء طقسها ورغدها قال الشاعر .

قالت ونفسي جم تأوهها * تصبو الى أهلها واندهها

سقيا لصنعاء لا أرى بلدا * أوطنها الموطنون تشبهها

خفضا ولينا ولا كبهجتها * ارغد أرض عيشا وأرفهها

كانها فضة مموهة * أحسن تمويهها مموهها

كم دون صنعاء سملقا جددا * تنبو بمن رامها معوهها

أرض بها العين والظباء معا * فوضي مطافلها وولهها

كيف بها كيف وهي نازحة * مشبه تيهها ومهمهها

(٢) وكان من جملة وفود المهنئين وفد الحجازيين الذى كان برأسه عبد المطلب جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاستأذنوا عليه وهو فى قصره فاذن لهم فدخلوا عليه وهو متضمخ بالمسك وعليه بردان والتاج على رأسه والسيف بين يديه وملوك اليمن واقيال حمير حواليه . فاستأذن عبدالمطلب الملك فى الكلام فقال ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك اذناك فقال عبد المطلب .

ان الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا . صعبا منيعا . باذخا شامخا وانبتك منبتا طابت أرومته . وعزت جرثومته . وثبت أصله . وبسق فرعه . في أكرم معدن . وأطيب موطن فانت ابيت اللعن رأس العرب . وربيعها الذى به تخصب . وملكها الذى له تنقاد . وعمودها الذى عليه العماد . ومعقلها الذى اليه يلجأ العباد . فسلفك خير سلف . وأنت

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزن * في البحر خيّم للاعداء أحوالا (١)

لنا بعدهم خير خلف . فلن يهلك من أنت خلفه . ولم يخمل من أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا اليك من أبهجك لكشف الكرب الذى فدحنا . فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة لازلت ناعم البال . مهنئا في كل حال .

فقال الملك (سيف بن ذى يزن) من أنت أيها المتكلم فقال أنا عبد المطلب بن هاشم فقال له ابن اختنا قال نعم فاقبل عليه من بين القوم وقال مرحبا وأهلا وسهلا وناقة ورحلا ومناخا سهلا وملكا رحلا يعطى عطاء جزلا قد سمعت مقالتكم وعرفت قرابتكم أنتم أهل الشرف والنباهة ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء اذا ظعنتم . ثم أمر بهم الى دار الضيافة وأجرى عليهم مايحتاجون شهرا لايؤذن لهم في مقابلته ولا في الانصراف ثم أمر باحضار عبد المطلب وأسره بقرب ظهور نبي آخر الزمان من العرب وانه من ذريته حسبما قرأه في الكتب السماوية وأمره بكتمان ذلك وردهم بالعطايا الفاخرة وكان لعبد المطلب من بينهم أضعاف ما أخذه الواحد منهم .

(١) ومنها

أتي هرقلا وقد شالت نعامتهم * فلم يجد عنده بعض الذى سالا
ثم انتحي نحو كسري بعد سابعة * من السنين يهين النفس والمالا
حتي أتي ببنى الاحرار يقدمهم * تخالهم فوق متن الارض اجبالا
من مثل كسرى شهنشاه الملوك له * أومثل وهرز يوم الجيش اذصالا
لله درهمو من عصبة خرجوا * ماان رأينا لهم فى الناس امثالا
بيض مرازبة غلب اساورة * أسد تربب في الغابات اشبالا
لايضجرون وان حرت مغافرهم * ولا ترى منهمو في الطعن ميالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد * أضحي شريدهم في الارض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا * في رأس غمدان داراً منك محلالا
واطل بالمسك اذشالت نعامتهم * وأسبل اليوم في برديك اسبالا
تلك المكارم لاقعبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وصار يقتل من يقع تحت يده من الاحباش حتى طهر منهم أرض اليمن الا بعض افراد اختصهم لخدمته فانتهزوا له فرصة الانفراد فقتلوه. وبقتله دخلت اليمن تحت سلطة العجم الى أن افتتحها المسلمون فى عصر أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

ملوك الحيرة

« ملوك العرب بأرض الحيرة ومشاهيرهم »

كانت للعرب بعد سيل العرم ملوكية بأرض الحيرة (١) قريبا من بلاد العجم وبسبب هذا القرب كانت ملوك الحيرة تابعة للأكاسرة وكانت الملوك

(١) قال ياقوت كانت الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق . وتقع الآن في الجنوب الشرقى من مشهد على . وقد اختلف المؤرخون قديما وحديثا فى سبب تسميتها بهذا الاسم وأكثروا من تحليل اسمها وتعليله فقال بعضهم سميت بذلك لان تبعا الاكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم حيروا به أى اقيموا . وقال آخرون ان تبعا أقبل بجيشه فلما بلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيرة . وقال غيرهم ان لفظها سريانى معناه الحصن أو المعقل حوله الخندق . . (لفظ سرياني) وهي والحيرة العربيـة من أصل واحد كما نرى من تقارب اللفظ والمعنى ولذلك كانوا يعرفونها بقولهم « حيرة النعمان » أو « حيرة المنذر » أي حصنه أو معقله على جارى العادة في انشاء المدن يومئذ فكان الملك أو الامير يبني معقلا لنفسه وحاشيته ثم يبني الناس حوله فيتسع المكان بتوالي الازمان ويصير مدينة وعلى هذا النمط نشأت البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية . ومن هذا القبيل مابناه الغساسنة على حدود البادية في شرقى حوران من المعاقل أو القصور فقد كان المراد بنائها حماية حدود

التى تتولى عليها عمالا لملوك العجم واشتهر من ملوك العرب بالحيرة أفراد منهم

﴿ مالك بن فهم ﴾

هو أول ملوك الحيرة وكان مقرّ أعماله مدينة الأنبار وبعد ان مكث حاكما مدة رماه سليمة بن مالك رميـة بالليل فأصابه وهو لا يعرفه فلما علم ان سليمة هو الذى رماه قال :

جزاني لاجزاه الله خيراً * سليمة انه شرّاً جزانى
أعلمـه الرماية كل يوم * فلما اشتدّ ساعده رمانى
فيا عجباً لمن ربيت طفلا * ألقمه بأطراف البنان

﴿ جذيمة بن مالك (١) ﴾

كان هـذا الملك شهما مغواراً كثير الغزوات ثاقب الرأى ظاهر الحزم بعيد المغار شديد النكاية وبذلك اتسع ملكه وخضعت له الرعية . وهو

المملكة من جهة البادية كما هو الغرض من حيرة العراق . وقيـل غير ذلك مما يطول بنا ايراده وللقارئ الحاذق أن يختار ممـا هو أصح . اما نحن فنـذهب الى الرأي الثالث . (وهو ان لفظها سريانى)

وقد كانت الحيرة مدينة عظيمة فيها المنازل والمعاقل والقصور والحدائق والانهار على حد قول الشاعر عاصم بن عمرو .

صبحنا الحيرة الحضراء خيلا * ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصـوراً * مشرفـة كاضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها لقربها من هواء البرية حتى قالوا « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » وظلت الحيرة عامرة بعد الاسلام عدة اجيال وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير وقد تقدم ذكرهما .

(١) وكان جذيمة هذا شاعرا وهو الذى يقول .

أول من غزا بالجيوش وشنّ الغارات على قبائل العرب . واستوى[1] على السواد مابين الحيرة والأنبار وسائر القرى المجاورة لبادية وكان يجبي أموالها وغزا طسما وجديسا في منازلهما باليمامة[2] وفتح أرض الجزيرة وضمها الى ملكه بعد أن قتل ملكها عمرو بن الظرب بن حسان العميلق والد الزباء فقامت الزباء ودبرت حيلة بها تنتقم من جذيمة أخذاً بثأر أبيها فارسلت اليه تخطبه لزواجها فاغتر جذيمة وذهب اليها في قصة طويلة فقتلته وأخذت بثأر أبيها فتولى على الحيرة بعده (ابن أخته عمرو بن رقاش)

﴿ عمرو بن رقاش ﴾

اهتم هذا الملك بأمر انتقامي من الزباء ملكة تدمر ويقال لها (زينوبيا)[3]

والملك كان لذي برا * ش حوله يزوى بجابر
بالسابغات وبالقنا * والبيض تبرق والمغافر
ازمان لا ملك بجيـر ولاذمام لمن يجاور
أودى بهم غير الزما * ن فنجد منهم وغاز

(١) استوي أى استولي ومنه قوله تعالي (الرحمن على العرش استوي) وقال الشاعر

قد استوي بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

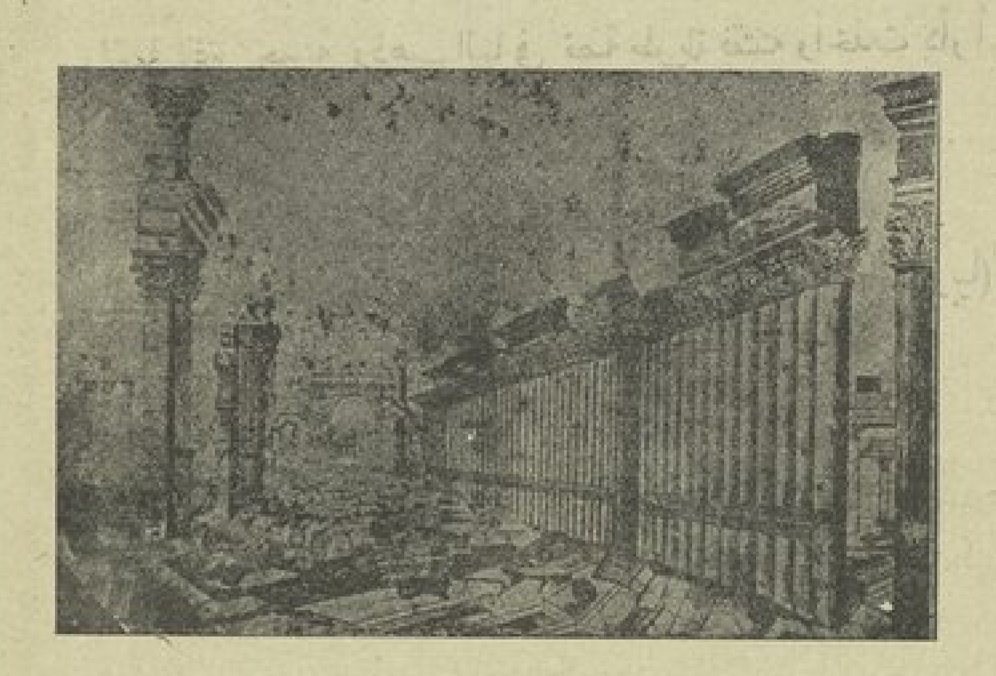
(٢) باليمامة وفي ذلك يقول الشاعر .

أضحي جذيمة في الانبار منزله * قد حاز ماجمعت في عصرها عاد
مستعمل الخير لا تفنى زيادته * فى كل يوم وأهل الخير تزداد

(٣) زينوبيا أوالزباء هى تدمرية المولد واسمها الاصلى « زينب » أو « بنت زباى » كانت هذه المرأة عالية الهمة حازمة شديدة البطش لم يبلغ مثلها فى النساء شجاعة ودهاء وشدة فضلا عن جمالها وهيبتها . وكانت سيرتها أقرب الى سير الابطال منها الى سير النساء

« م — ٦ »

فدبر حيلة مع أخد اتباعه واسمه (قصير) وهو أن يجدع أنف قصير ثم يذهب الى الزباء ويدعى أن عمراً غضب عليه فتقبله (زينوبيا) وتحميه حتى اذا ما استوثقت به يستدعى قصير عمراً وجيشه للدخول على الزباء (زينوبيا) فى قصرها أو فى الرواق الاعظم الذي أرينا لك بشكل بقاياه (انظر شكل ٤) بمدينتها تدمر



ش ٤ (بقايا الرواق الاعظم في مدينة تدمر)

وفعلا جدع أنف قصير وذهب الى الزباء مستغيثاً بها من عمرو فأمنت

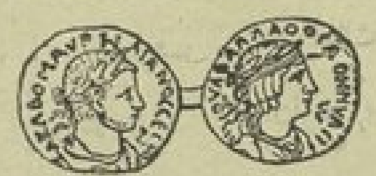
فما كانت تركب فى الاسفار غير الصافنات الجياد وقل ان تحمل في الهودج . وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم كانت هى الفائزة عليهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها وكثيرا ماضم مجلسها رجالا من أمم شتى . وكانت اذا عقدت مجلسا اعتياديا للبحث في شؤون الدولة أدخلت ابنها (وهب اللات) أحد أولادها معها وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها المشملة القيصرية الارجوانية وعلى رأسها التاج . ولم يدخل بين يديها قادم الاخر ساجداً لها جرياً على عادة الاكاسرة . وكانت قد تشبهت بهم فجمعت في أبوابها بعض

اليه الزباء وقبلته فى خواصها فسكن من روعه ثم طلب منها مالاً يتجر لها فيه قصد انتفاعها وانتفاع قومها ففعلت فصار قصير يتجر لها ويأتيها باموال طائلة كان يأخذها من عمرو لاحكام الحيلة ولما رأى قصير ما رأى من الزباء أتى بقافلة نحو الف جمل عليها صناديق بداخلها رجال من الابطال ووفد بها الى (زنوبيا) فارتابت من هيئة سير الابل الدالة على ثقل الاحمال حيث كانت مشرفة على الجمال من قصرها وجعلت تقول

شيوخ الحصيان ووكلت اليهم تدبير قصورها واذا مشت في ساحة قصرها أودارت في الرواق الاعظم (وهو الذى أبقينا لك بشكله) حفت بها الفتيات من بنات الاشراف وهي تتقدمهن وتزرى بجمالهن . وكانت اذا استعرضت جندها في الميادين بين يدي قصرها مرت امام الصفوف فوق جوادها وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر وعلى غلائلها اهداب منسوجة باسحال ارجوانية وقد جردت احدى ذراعيها كما يفعل اليونان القدماء وأخذت تحرض جنودها على الصبر والثبات وتبث في نفوسهم روح الشجاعة فاذا رآها الناس في ذلك الموقف حسبوها الهة من الآلهة فضلا عن تفوقها في السياسة وسداد الرأي واللطف وصحة التربية مما لم يسمع باجتماعه فى امرأة .



وكان لدولة زنوبيا (الزباء) التدمرية نقود بشكل نقود الاسكندرية عليها كتابة وصور وفي الشكل الخامس مثالان منها (انظر الشكل الخامس)



الاول نقد زنوبيا على أحد وجهيه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالاحرف اليونانية هكذا «سبتميا زنوبيا» وعلى

ش ٥ (نقود زنوبيا ووهب اللات)

الوجه الآخر صورة أخرى والنقد الآخر عليه صورة رأس ابنها وهب اللات واسمه ولقبه

ما للجمال مشيها وئيداً * أجندلا يحملن أم حديداً
أم صرفانا بارداً شديداً * أم الرجال جثما قعوداً

فدخلت الابل المدينة وفتحت الصناديق فخرجت الرجال شاهرة أسلحتها ومن بينهم (عمرو بن رقاش) فقصد عمرو المكان الذي تقيم فيه الزباء من القصر فهربت الى نفق كانت جعلته فيه فوجدت عمراً وقصيراً على بابه فامتصت فص خاتمها المسموم وقالت (بيدي لا بيد عمرو) فذهبت مثلا فوقع فيها قصير وعمرو بسيوفهما فماتت بين امتصاص السم وبين ضرب السيوف وبذلك تمت الحيلة وأخذت البلدة عنوة . ثم مات عمرو بعد أن حكم عشرين سنة فتولى بعده على سرير الملك ابنه (امرؤ القيس الأول)

﴿ امرؤ القيس بن عمرو ﴾

هذا الملك يسمونه البدء وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر . وقد اتسع سلطانه وطالت مدة حكمه اذ كانت مدة حكمه أربعين سنة وبعد وفاته قام بالأمر ابنه (عمرو بن امرئ القيس)

﴿ عمرو بن امرئ القيس ﴾

لما توفي امرؤ القيس بن عمرو خلفه ابنه عمرو الثاني وأمه هند بنت كعب بن عمرو وكان عالي الهمة شديد البأس وطالت مدة حكمه نحو نصف قرن ولا نعرف عن هذا الملك شيئاً في صفحات التاريخ كأن أيامه كانت أيام سلم ورخاء فلم يذكره التاريخ . وأقل الناس ذكراً في التاريخ أقربهم الى السعادة

﴿ أوس بن قلام ﴾

هذا دخيل في دولة آل نصر ليس له نسب فيهم . حكم خمس سنين ثم قتله أحد بني نصر فرجع الملك لآل نصر .

﴿ امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس ﴾

ويعرف بامرئ القيس البدن وهو محرّق الاول لأنه أول من عاقب بالنار وبه عنى الاسْوَدُ بن يَعْفُرَ في قوله .

ماذا أُؤمّل بعد آل مُحرِّق ﴿ تركوا منازلهم وبعد اياد

ومكث عمرو حاكما ٣٦ سنة وليس هناك من أخباره مايستحق الذكر

﴿ النعمان بن امرئ القيس الاعور السائح ﴾

هذا الملك من أشهر ملوك الحيرة حكم ٢٨ سنة عاصر فيها من ملوك الفرس (يزدجرد الأول) وابنه (بهرام جور) وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية في أعدائه وأبعدهم مغاراً . قد غزا الشام مراراً وأكثر الخطوب في أهلها وسبي وغنم وجند الجنود على نظام عرف به وكان له كتيبتان . احدهما اسمها الشهباء وهي مؤلفة من رجال الفرس . والاخرى دوسر وأهلها من تنوخ فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب .

ولقد كان النعمان ذا عقل راجح وهمة عالية صارما حازماً ضابطاً لملكه . وقد اجتمع له من الاموال الباهظة والرقيق والخول ما لم يملكه أحد قبله من ملوك الحيرة وهو الذى بني قصر الخورنق والسدير وبهما ضرب المثل وقد تقدم ذكرهما . وفي آخر أيامه نظر من قصره الخورنق الذي اتخذه في الحيرة على مرتفع يشرف على النجف وما يليه من النخل والبساتين والجنان والانهار مما يلي المغرب وعلى الفرات مما يلي المشرق . فاعجبه ما رأى في البر من الخضرة والنور والانهار الجارية ولقاط الكمأة ورعى الابل وصيد الظباء والارانب . وفي الفرات من الملاحين والغواصين وصيادى السمك وفي

الحيرة من الاموال والخول من يموج فيها من رعيته فتدبر في الحياة فعلم انها لا بقاء لها وقال « لا خير في ملك آخره الى النفاد » فبعث الى حجابه ونحاهم عن بابه فلما جنّ عليه الليل التحف كساءه وساح في الارض فلم يعلم به أحد . وفيه يقول عدي بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر الآتي ذكره .

وتدبر رب الخورنق اذ أشـ * ـرف يوما وللهدى تفكير[1]
سرّه حاله وكثرة ما يمـ * ـلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبـ * ـطة حيّ الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعـ * ـمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

وكان النعمان هذا متزوجا من زهير بن قيس بن جذيمة من بني عبس فارسل الى صهره المذكور يستزيره بعض أولاده فارسل ابنه شاسا فاكرمه النعمان

---

(١) هذه الابيات آخر القصيدة ومطلعها .

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور

(ومنها)

أم لديك العهد الوثيق من الايام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من * ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر * وان أم أين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهمو مذكور
وأخو الحضر اذ بناه واذ دجلة تجبي اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلـ ـسا فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ـملك عنه فبابه مهجور

وأعطاه مالا وطيباً فلما رجع شاس يريد قومه قتله في سبيله رباح بن الاشل الغنوى وأخذ ما كان معه وعلم أبوه فحمل عليهم وحصلت معركة عرفت في التاريخ (بيوم رحرحان) وسيأتي ذكرها في كلامنا على أيام العرب ان شاء الله تعالى

﴿ الاسود بن المنذر بن النعمان ﴾

هذا الملك قضى أيامه فى حروب مع بنى غسان للأخذ بثار ابن عم له فكان ينتصر عليهم وأسر عدة من ملوكهم ثم أراد أن يعفو عنهم وكان له ابن عم اسمه (ابو أذينة) قد قتل آل غسان له أخا في بعض الوقائع فقال ابو اذينة في ذلك قصيدة يغرى بها الاسود على قتلهم ومطلعها .

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ＊ ولا يسوغه المقدور ما وهبا

(ومنها)

همو اهلة غسان ومجدهمو ＊ عال فان حاولوا ملكاً فلا عجبا (١)

﴿ امرؤ القيس بن النعمان ﴾

في أيام هذا الملك اشتهرت الديانة النصرانية وظهرت بالعراق أيضا وبنى هذا الملك حصنا منيعا وهو المعروف (بالصنّبر) وحارب بني بكر فى ديارهم فانتصر عليهم فى يوم معروف عند العرب يسمى (أوار)

﴿ المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء ﴾

هذا الملك هو أشهر ملوك لخم واكثرهم عملا . وكانت أمه ماوية بنت

---

(١) تقدم ذكر هذه القصيدة وجاء في صحيفة (٤٧) تفسير هذا البيت وتقول أنه يعنى بالاهلة وجوه (غسان) لا (حسان) كما تقدم (وهو تحريف مطبعي)

عوف وقيل هي أخت المهلهل وكليب تلقب بماء السماء لجمالها فغلب لقبها على ابنها فقيل له (المنذر بن ماء السماء) وقيل لقب بذلك لأنه ملأ بعطائه وجوده الأرض كما يملأ القطر الأرض. وهو صاحب الغريين ويومي البؤس والنعيم (كما هو المشهور في كتب التاريخ والأدب) ويؤيد ما قلناه ما جاء في أمالي القالي (كان المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر ينادمه رجلان من العرب خالد ابن المضلل وعمرو بن مسعود الاسديان وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله
أَلاَ بَكَرَ الناعي بِخَيْرَيْ بني أَسَد * بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
فشرب ليلة معهما فراجعاه الكلام فاغضباه فامر بهما فقتلا وجعلا في تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة فلما اصبح وصحا سأل عنهما فاخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما فأمر ببناء الغريين وجعل لنفسه فى كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم. فكان يضع سريره بينهما فاذا كان فى يوم نعيمه فاول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من ابل الملوك وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان ويأمر به فيذبح ويطلى بدمه الغريان فلم يزل كذلك ما شاء الله. فبيناهو ذات يوم من أيام بؤسه اذا طلع عليه عبيد بن الابرص) الخ فشق على المنذر قتله ولم ير بداً من البر بقسمه وعادته المشئومة فى حديث لطيف[1]

(١) فى حديث لطيف وهاك نصه
لما طلع عبيد بن الابرص على المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه شق عليه ذلك فقال له الملك الا كان الذبح غيرك ياعبيد فقال عبيد (أتتك بحائن رجلاه) فقال له الملك أو اجل قد بلغ اناه ثم قال ياعبيد أنشدني فقد كان يعجبني شعرك فقال (حال الجريض دون القريض وبلغ الحزام الطبيين) فقال أنشدني

ولبث على ذلك برهة من الدهر حتى أتاه في يوم بؤسه حنظلة بن أبي عفراء ولما علم بقرب أجله استمهل الملك ريثما يعود الى أهله وكفله رجل من خاصة المنذر حتى عاد بعد سنة وكان لرجوعه ووفائه تأثير عظيم على المنذر فترك هذه العادة المشؤومة وهدم الغريين (وسيأتى ذكر قصة حنظلة فى الكلام على وفاء العرب)

أقفر من أهله ملحوب * فالقطبيات فالذنوب

فقال عبيد

أقفر من أهله عبيد * فاليوم لا يبدى ولا يعيد
عنت له معنة نكود * وحان منها له ورود

فقال أنشدني هبلتك أمك فقال (المنايا على الحوايا) فقال بعض القوم أنشد الملك هبلتك أمك فقال (لا يرحل رحلك من ليس معك) فقال له آخر ما أشد جزعك من الموت فقال

لا غرو من عيشة نافده * وهل غير ما ميتة واحده
فابلغ بنيّ وأعمامهم * بأن المنايا هي الراصده
لها مدة فنفوس العباد * اليها وان كرهت قاصده
فلا تجزعوا لحمام دنا * فللموت ما تلد الوالده

فقال له المنذر لابد من الموت ولو عرض لى أبي في هذا اليوم لم أجد بدا من ذبحه فأما اذ كنت لها وكانت لك فاختر من ثلاث خصال ان شئت من الاكحل . وان شئت من الابجل . وان شئت من الوريد . فقال عبيد (ثلاث خصال مقادها شر مقاد . وحادبها شر حاد ولا خير فيها لمرتاد . فان كنت لا بد قاتلي فاسقنى الخمر حتى اذا ذهلت لها ذواهلي وماتت لها مفاصلي فشأنك وما تريد) فأمر المنذر له بحاجته من الخمر فلما أخذت منه وقرب ليذبح أنشأ يقول

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه * خلالا أرى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة * سحائب ما فيها لذي خيرة أنق
سحائب ريح لو توكل ببلدة * فتتركها الا كما ليلة الطلق

وأمر به ففصد فلما مات طلي بدمه الغريان .

﴿ عمرو بن هند مضرط الحجارة ﴾

هو عمرو بن المنذر بن امرئ القيس ويسمونه المحرّق الثانى ويعرف باسم امه هند بنت عمة امرئ القيس الشاعر المفلق ولدت للمنذر عمراً هذا وقابوسا . وكان عمرو هذا من أكبر وأشهر ملوك الحيرة فكان له من الهيبة فى نفوس العرب والسلطان والمكان ما جعل الكل فى خشية من فتكه وبطشه ولذلك اطاعته جميع القبائل واستتب له الأمر وانتظم له الملك وكان له ابن قتل بسهمه ناقة لشخص من بنى عبدالله بن دارم التميمى فقتله صاحب الناقة فهمّ عمرو بمحاربة بني دارم وسار بجيشه الى جبل (أوار) واشتهر هذا اليوم بيوم (أوارة الثانى) وقتل عمرو بنفسه فى ذلك اليوم تسعة وتسعين شخصا من بني دارم ﴿ويحكى﴾ ان رجلا من البراجم جاء ليمدح عمراً وقتئذ فأمر بقتله فقال البرجيّ « ان الشقيّ وافد البراجم » فذهبت مثلا لمن يوقع نفسه فى البلاء . وعمرو بن هند هذا هو الذى أصلح بين بني بكر وبني تغلب وبصلحه انتهت حرب البسوس . وهو صاحب المتملس وطرفة العبد الشاعرين وكان كتب لهما كتابين الى عامله بالبحرين وأوهمهما انه أمر لهما فيهما بصلة . كان قد أمره فيهما بقتلهما بسبب هجائهما لاخيه قابوس . أما المتملس فانه دفع صحيفته الى رجل من الحيرة فقرأها له فلما عرف ما فيها ألقاها فى نهر بقرب الحيرة ورجع : وأما طرفة فانه مضى بصحيفته الى العامل فقتله فبلغ ذلك المتلمس فقال وكان قد نصح طرفة بالعدول عن الذهاب فأبى

عصاني فما لاقى الرشاد وانما * تبين من أمر الغوى عواقبه
فاصبح محمولا على آلة الردى * يعج نجيع الجوف فيه ترائبه

(وقال المتلمس لما رمي الصحيفة بالنهر)

قذفت بها فى اليمّ من جنب كافر * كذلك ألقى كل رأى مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها * يجول بها التيار فى كل جدول

ومات عمرو هذا مقتولا قتله عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر المشهور (١)

(١) وكان السبب في قتل عمرو بن هند انه بالغ في العظمة والكبرياء حتى توهم في نفسه الفضل على الناس كلهم وخيل له أنه ليس من أمير في العرب لايخدمه ويتمني رضاه فكانت تلك الدعوى سبب قتله — وذلك أنه قال يوما لجلسائه (هل تعرفون أحدا من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي) قالوا (مانعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه) فسكت مضرط الحجارة على مافى نفسه وبعث الى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه أمه . فأقبل ابن كلثوم فى فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وبلغ عمرو بن هند قدومه فامر فضربت خيامه فيما بين الحيرة والفرات وصنع طعاما دعا اليه وجوه العرب من أهل دولته فقرب لهم الطعام على باب السرادق وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق ولامه هند قبة في جانب السرادق وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة وكان مضرط الحجارة قد قال لامه (اذا فرغ الناس من الطعام ولم تبق الا الطرف نحى خدمك عنك فاذا دنت الطرف استخدمى ليلى) فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى (ناوليني ذاك الطبق) فقالت لها (لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها) فألحت عليها فقالت ليلى (واذلاه يا آل تغلب) فسمعها ولدها ابن كلثوم فثار الدم في عروقه والقوم يشربون فعرف عمرو بن هند الشر فى وجهه ووثب ابن كلثوم الى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فاخذه وضرب به مضرط الحجارة فقتله وخرج فنادي يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله ولحقوا بالحيرة وفى ذلك قال معلقته الشهيرة التى سيأتي ذكرها عند الكلام على المعلقات ومطلعها

ألا هبي بصحنك فاصبحينا * ولا تبقي خمور الاندرينا

وقام بها خطيبا في سوق عكاظ وموسم مكة وكان بنو تغلب تفتخر بها وتعظمها جدا

﴿ النعمان بن المنذر ابو قابوس ﴾

بلغت الدولة فى أيام هذا الملك منتهى الترف والرخاء وكان معاصراً لهرمز الرابع وكسرى ابرويز وكان لابرويز ملك العجم سفير (ترجمان) يقال له عدى بن زيد النعمانى فحبسه النعمان لوشاية وصلت اليه وجعل عدي يقول الشعر وهو فى الحبس (١) فبلغ النعمان قوله فندم على حبسه وخاف منه اذا اطلقه . وبلغ كسرى ابرويز حال عدى فكتب الى النعمان أن يطلقه وعلم النعمان بالرسالة قبل وصول الرسول فشاور أصحابه فخوفوه من اطلاقه فبعث اليه جماعة خنقوه ودفنوه . وكان الرسول قد رآه فى السجن قبل وصوله الى

وتحفظها صغارهم وكبارهم حتى هجوا بذلك قال بعض شعراء بنى بكر بن وائل

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة * قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم * ياللرجال لفخر غير مسئوم
ان القديم اذا ماضاع آخره * كساعد فله الايام محطوم

(وقال ابن صريم التغلبي يفخر بفعل عمرو بن كلثوم في قصيدة له)

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا * لتخدم أمى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا * فامسك من ندمائه بالمخنق
وجلله عمرو على الرأس ضربة * بذي شطب صافي الحديدة رونق

(١) يقول وهو في الحبس وأول ماقاله من الشعر وهو محبوس قوله

ليت شعري عن الهمام ويأتيـــك بخبر الانباء عطف السؤال
أين عنا اخطارنا المال والانـــفس اذ ناهدوا ليوم المحال
ونضالى في جنبك الناس يرمو * ن وأرمي وكلنا غير آل
فأصيب الذى تريد بلا غش وأربي عليهم وأوالى
ليت اني أخذت حتفي بكفى ولم ألق ميتة الانذال
محلوا محلهم لصرعتنا العا * م فقد أوقعوا الرحا بالثفال

النعمان فلما أدى الرسالة قال له النعمان اذهب الى السجن فخذه فقيل له انه مات منذ أيام فعلم انهم غدروا به وقتلوه فعاد الى النعمان بذلك فرشاه واستوثقه أن لا يقول لكسرى وقد ندم على ما فرط منه

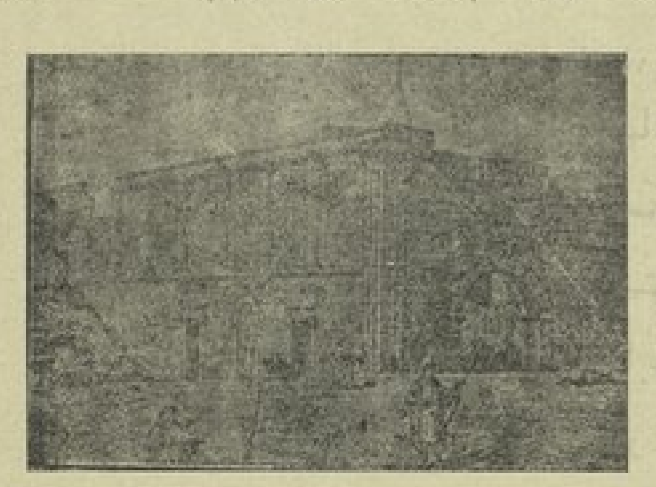
ورأى النعمان ابنا لعدي اسمه زيد فاراد أن يكرمه تكفيراً عن اساءته لأبيه فطلب اليه زيد أن يسعى له عند كسرى ليجعله مكان أبيه ففعل فتقرب زيد من كسرى وفي نفسه شيء على النعمان يضمره ويظهر الثناء عليه ويترقب الفرص فاتفق ان كسرى احتاج الى نساء لتزويج أولاده فاشار عليه زيد أن يطلب من النعمان بعض بنات عمه واثنى على جمالهن وحسنهن وهو يعلم ان النعمان يضن بذلك فكلفه كسرى أن يسير في طلبهن وأنفذ معه سفيراً يعرف العربية ليسمع جواب كسرى .

فلما دخل زيد والرسول على النعمان افهماه ما طلبه كسرى فشق ذلك عليه فقال « ما في عين السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم » فسأل الرسول زيداً عن معنى لفظ « عين » فقال « البقر » فلما عادا الى كسري اخبراه بما قاله فغضب لقوله « ما في بقر السواد ما يكفيه » وسكت أشهراً ثم بعث يستقدمه اليه . وبلغ النعمان غضبه فاخذ سلاحه وما استطاع حمله ولحق بجبل طيء وكان متزوجا اليهم وطلب اليهم أن يمنعوه فابوا عليه خوفا من كسرى . فاقبل وليس أحد من العرب يقبله حتى نزل بذي قار على بني شيبان سراً فلقي هناك هانيء بن قضيبة بن هانيء بن مسعود (ومن قال انه لقي جده هانيء بن مسعود فقد اخطأ لانه لم يدرك يوم ذي قار « كذا قال أبو عبيدة ») الشيباني وكان سيداً منيعا فاودعه أهله وماله وفيه ٤٠٠ درع وتوجه الى كسرى فلما وصل الى بابه بعث اليه من قيده وأرسله مخفوراً الى خانقين وحبسه فيها حتى جاء

الطاعون فمات فيه سنة ٦١٣ م . وبذلك قامت الحرب بين العرب والعجم والتحم الفريقان (بذى قار) فسميت الواقعة بواقعة ذى قار وفيها انهزمت الاعجام تحت قيادة زارويه الذى تملك على العجم بعدابرويز بصفوفهم وخيولهم وثبت العرب ثباتاجميلا فانتصروا وولى الفرس الادبار مع كثرة عددهم . وبهذه الهزيمة عاد ملك الحيرة الى آل النعمان وبقى فيهم الى أن استولى عليها المسلمون بقيادة خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . ويقول بعضهم ان النعمان هذا هو صاحب الغريين وهو خلاف ماعليه الاكثر

ملوك بنى غسان

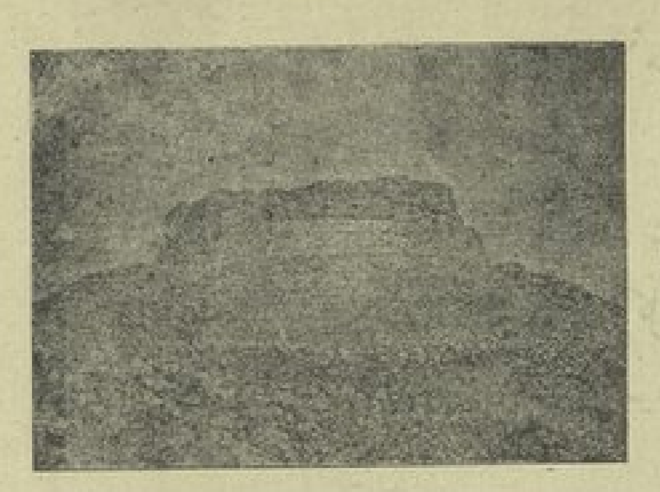
هؤلاء الملوك أصلهم من اليمن من نسل قحطان من قبيلتى (الأوس والخزرج) الذين هاجروا من بلادهم بسبب سيل العرم ونزلوا على ماء بقرب دمشق يقال له (غسان) فاشتهروا بذلك فتملكوا على حوران والبلقاء ثم تغلبوا على الشام وأخرجوا منها ملوكها وهم الضجاعمة بعد أن قتلوا كثيراً منهم .



ش ٦ (قصر في بصري حوران)

وكان بنو غسان عمالا على الشام لقياصرة الروم كما كانت ملوك الحيرة عمالا عليها لاكاسرة العجم . فتحضروا بتوالى الاجيال . وأسسوا المدن وعمروها وشادوا القصور الرفيعة . وهاك شكلا منها (انظر شكل ٦) والقلاع المنيعة

وهاك مثالاً منها (انظر شكل ٧) وكانت عاصمتهم بصري فى حوران وتعرف انقاضها الآن باسكى شام وأول ملوك الغسانيين باتفاق كثير من المؤرخين الثقات (جفنة بن عمرو)



ش ٧ (قلعة صلخد في حوران)

﴿ جفنة بن عمرو ﴾

تولى هذا الملك على سرير الملك بعد قتل الضجاعمة الذين هم من ملوك الطوائف وقد عظمت دولته بالشام وبنى بها مصانع كثيرة ومعاقل شهيرة وكانت مدة ملكه خمسين سنة وبعد موته خلفه على عرش الملك ابنه (عمرو) ثم تولى من بعده ابنه (ثعلبة) وهو الذي بنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلى البلقاء ثم تولى بعد موت (ثعلبة) عدة ملوك شادوا كثيراً من القصور الشامخة والأبنية الباذخة. ثم قام بالأمر (جبلة الثالث بن النعمان)

﴿ جبلة الثالث بن النعمان ﴾

كانت إقامة هذا الملك بصفين ويعرف عنه انه فاز فوزا باهراً وانتصر انتصاراً مبيناً على بنى لخم وبني نزار فى حرب (عين اباغ) وهو (واد فى الأنباغ) وقتل فى هذه الحرب المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة

وذكر ابن الأثير ان حرب (عين اباغ) كانت للحارث وذكر

سبب هذه الحرب [١]

وكانت مدة ملك جبلة ٢٢ سنة ثم قام بالأمر بعد موته ابنه (الحارث)

﴿ الحارث بن جبلة أبي شمر ﴾

كان هذا الملك كثير المغازى والغارات شجاعاً شديد البأس وكان وهابا كثير العطايا حتى قصدته الشعراء من كل صوب لامتداحه وأخذ عطائه . قيل لم يجتمع على باب أحد من ملوك عصره من الشعراء مثل من كانوا يجتمعون على بابه . ولحسان بن ثابت الانصارى فيه مدائح كثيرة . وهو صاحب يوم (مرج حليمة) [٢] كان النصر فيه للحارث وقتل فيه المنذر بن

(١) سبب هذه الحرب قال كان السبب في اقامة تلك الحرب أن المنذر المذكور نزل (عين أباغ) وبعث الى الحارث بالشام يقول «إما أن تعطيني الفدية فانصرف عنك بجنودي وإما أن تأذن بحرب» فارسل اليه الحارث « انظرنا ننظر في أمرنا » فجمع عساكره وسار بجيشه الى نحو المنذر وأرسل اليه يقول « انا شيخان فلا نهلك جنودنا وانما يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك فن قتل خرج عوضه آخر واذا فني أولادنا خرجت أنا اليك فن قتل صاحبه ذهب بالملك » فتعاهدا على ذلك وغدر المنذر بالحارث فانزل بعض رجاله بدلا من أولاده فقتل للحارث ولدان ثم علم بالمكيدة فحمل على المنذر برجاله وهم ٤٠٠٠٠ فقتلوا المنذر وهزموا رجاله .

(٢) هذا اليوم هو الذى حمل فيه المنذر بن المنذر المقتول للاخذ بثار أبيه فلاقاه الحارث في مكان اسمه (مرج حليمة) ودارت الحرب بينهما أياما لا ينتصف أحدهما من صاحبه فجعل الحارث ابنته زوجة لمن يقتل المنذر فقتله لبيد بن عمرو الغساني وكانت واقعة هائلة اجتمع فيها عرب العراق كافة تحت لواء المنذر وعرب الشام عامة تحت علم الحارث قال المبرد هذا اليوم هو أشهر أيام العرب يقال ارتفع في هذا اليوم من العجاج ما غطي عين الشمس حتي ظهرت الكواكب

المنذر . وأسر وقتل خلق كثير من أصحاب المنذر منهم شاس بن عبدة فوفد أخوه علقمة الى الحارث يطلب اليه أن يطلق أخاه ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها .

طحا بك قلب فى الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب (١)

تكلفني ليلى وقد شط وليها * وعادت عواد بيننا وخطوب

فأطلقه الملك وقال ان شئت الحباء وان شئت أساري قومك فقال أيها الملك ما كنت لأختار على قومي فاطلق له الأسرى وكساه وحباه وفعل ذلك بجميع الاسرى فلما بلغوا بلادهم أعطوا جميع ذلك لشاس وقالوا أنت كنت السبب فى اطلاقنا فاستعن بهذا على دهرك : وكانت مدة ملك الحارث ٣٧ سنة وهو الذى قتل ابن السموأل فى ادرع امرئ القيس وبعد موته تولى على سرير الملك ابنه (النعمان) ويعرف بابى كرب

﴿ النعمان بن الحارث ﴾

كان هذا الملك حسن الخلق محمود السيرة شريفاً عادلا شجاعا فاضلا كثير الفتوحات وكان يسعى كثيراً فى نشر الديانة النصرانية اكثر من أجداده

(١) وفيها يقول

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بادواء النساء طبيب

اذا شاب رأس المرء أو قل ماله * فليس له في ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث وجدنه * وشرخ الشباب عندهن عجيب

(الى أن قال)

وفي كل حى قد خبطت بنعمة * فحق لشاس من نداك ذنوب

فلا تحرمنى نائلا عن جنابة * فاني امرؤ وسط القباب غريب

ومات مقتولا في آخر غزوة من غزواته فرثاه النابغة الذبياني الشاعر المشهور بقصيدة طويل مطلعها .

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل * وكيف تصابي المرء والشيب شامل (١)

ثم قام بالأمر بعده عدة ملوك حتى تولى على سرير الملك (جبلة بن الايهم) الذى هو آخر ملوك بني غسان

﴿ جبلة بن الايهم ﴾

هذا الملك هو آخر ملوك بنى غسان . ومن أعماله بناء مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وتعرف الآن بجبلة الادهمية نسبة الى العارف بالله السلطان ابراهيم بن ادهم الزاهد لأنه دفن بها .

وقد أسلم جبلة هذا فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله

(١) ومنها

وقفت بربع الدار قد غير البلى * معارفها والساريات الهواطل
أسائل عن سعدى وقد مرّ بعدنا * على عرصات الدار سبع كوامل
(الى أن قال)
فلا تبعدن ان المنية موعد * وكل امرئ يوما به الحال زائل
فما كان بين الخير لو جاء سالما * أبو حجر الا ليال قلائل
فان تحي لاأملل حياتي وان تمت * فما في حياة بعد موتك طائل
فآب مصلوه بعين جلية * وغودر بالجولان حزم ونائل
سقى القبر غيثا بين بصري وجاسم * بغيث من الوسمى قطر ووابل
ولا زال ريحان ومسك وعنبر * على منتهاه ديمة ثم هاطل

تعالى عنه عند افتتاح الشام ثم ارتد[1] ولحق بقيصر ملك الروم ومات هنالك مرتدا

آثار آل غسان

لقد شاد الغسانيون كما ذكرنا لك كثيرا من القصور وانشؤا المدن والقرى وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج . ومما ينسب بناؤه اليهم من المواضع أو البلاد (قسطل) بالبلقاء وفيها يقول كثير عزة

سقى الله حيا بالموقر دارهم * الى قسطل البلقاء ذات المحارب

(ومنها) اذرح من أعمال الشراة . والجرباء بجانبها ويقال ان فى اذرح

---

(١) كان السبب في ارتداد جبلة انه كان يطوف بالكعبة المشرفة فوطئ رجل من بني فزارة على طرف ازاره فانحل عنه الازار فغضب جبلة ولطم الفزارى لطمة هشم بها انفه فتعلق الرجل به وانطلق الى عمر رضي الله تعالى عنه ودمه يسيل وشكا اليه ما كان من جبلة فقال أمير المؤمنين لجبلة «إما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدي اللطمة منه بالمال» فقال جبلة «أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة» فقال عمر «كلا بل كلاكما في الحق سواء» فغضب جبلة من ذلك وطلب المهلة الى الليل فلما جن عليه الليل اجتمع بغلمانه وخرج بهم هاربا الى الشام ومنها الى قيصر ملك الروم (هرقل) فاستقبله بالقسطنطينية وأكرمه وأحسن مثواه وقد تنصر ثم ندم على ما فرط منه وخروجه من الاسلام حتى لقد قيل انه قال

تنصرت الاشراف من أجل لطمة * وما كان منها لو صبرت لها ضرر
تكنفني فيها لجاج ونخوة * وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمي لم تلدني وليتني * رجعت الى القول الذى قاله عمر
وياليتني أرعى المخاض بقفرة * وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة * أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

(وقيل) انه فقأ عين الفزاري وطلب منه عمر القود لا غير وربما كان البيت الثانى والاخير من كلامه يشهدان لذلك

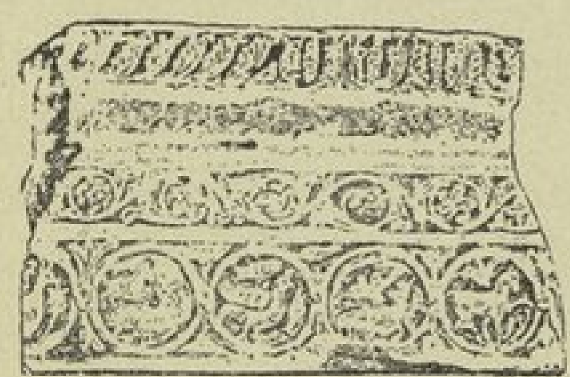
كان امر التحكيم بين أبي موسى الاشعرى وعمرو بن العاص. وشادوا أيضا نجران ومعان.

ومما شاده الغسانيون من القصور صرح الغدير والقصر الابيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى (انظر شكل ٨) وقصر الفضاء وقصر منار وقصر السويداء وقصر بركة وقصر أبين وغيرها من الابنية الباذخة.



ش ٨ (بقايا قصر المشتى)

وآخر من عنى بالبحث والتنقيب عن تلك الآثار الجليلة الاستاذ (دوسو الفرنساوى) الذى ارتاد جبال حوران ووعورها فى اللجا والحراء والرحبة وجبل الصفا واطلع على كثير من الآثار والانقاض فاستدل من ذلك على خط دفاع كان فى اطراف حوران يفصل بينها وبين البادية وهذا الخط كان مؤلفا فى الاصل من عدة حصون فى جملتها القصر الأبيض والنمارة ودير الكهف والقاعة الزرقاء وقد شاهد انقاضها فرأى القصر الأبيض الذى أريناك بشكل بقاياه مبنيا فى منبسط من الارض مربع الشكل حوله سور فيه برج عال (انظر شكل ٩)



ش ٩ (بقايا القصر الابيض)

وقد وصف الاستاذ دوسو قصور النمارة وغيرها . أما القصر الابيض فقد كان يمتاز عن غيره من القصور بنقوش جميلة فيها صور بديعة وطيور غريبة وخيول وفهود واسود وبقر وافيال حتى السمك كما ترى في الشكل .

ملوك كندة

أول ملوك كندة (حجر بن عمرو آكل المرار) وكانت كندة قبل توليته عليهم فى فوضى يسطو القوي منهم على الضعيف فلما تولى حجر وكان ذا رأى سديد وعقل رشيد ووجاهة سدد أمرهم وساسهم أحسن سياسة وجعل للعدل مكانة سامية بينهم فحسنت أحوال كندة بحسن عدله وكمال سياسته . ولما مات خلفه ابنه (عمرو)

عمرو بن حجر بن عمرو

تولى هذا الملك بعد موت أبيه وكان يلقب بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه . فلما مات قام بالأمر بعده ابنه (الحارث)

الحارث بن عمرو بن حجر

كان هذا الملك شديد البأس قوى السلطان كثير المغازى والغارات ولاه كسرى (قباذ) ملك العجم على العراق فعظم فى أعين القبائل وتوافدوا اليه وفيهم الاشراف من معد يهنئونه ويتقربون اليه بالطاعة وطلبوا منه أن يولى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما قام بينهم من القتل . مما ستراه فى كلامنا عن أيام العرب ان شاء الله تعالى . ففرق فيهم أربعة من أولاده تولى كل منهم بعض تلك القبائل على هذه الصورة :

١ حجر بن الحارث تولى بنى أسد بن جذيمة وغطفان

٢ شرحبيل بن الحارث تولى بكر بن وائل بأسرها
٣ معديكرب « « « قيس عيلان وطوائف غيرهم
٤ سلمة « « « تغلب والنمر بن قاسط

أما أبوهم الحارث فلم يطل سلطانه على الحيرة لأن قباذ مات وتولى أنوشروان فأعاد المنذر وفر الحارث بماله وأولاده على الهجن فتبعه المنذر على الخيل من تغلب واياد وبهراء فلحق بأرض كلب ونجا فانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا(١)

أما الحارث فظل في بني بكر حتى قتل فيهم. واختلفوا في سبب قتله وبقي بنوه الأربعة على ما ملكوه ولكن موت أبيهم أضعف نفوذهم. وعمل المنذر صاحب الحيرة على الانتقام لنفسه فسعى في الافساد بينهم بالتحاسد على الهدايا(٢) فقتل الاخوان سلمة وشرحبيل وذهب سلطانهما وبقتلهما أضعف

---

(١) في ديار بني مرينا. وفي ذلك يقول امرؤ القيس

ملوك من بني حجر بن عمرو * يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا * ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل * ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم * وتنتزع الحواجب والعيونا

(٢) بالتحاسد على الهدايا وذلك أنه وجه الى أحدهم سلمة بن الحارث أمير تغلب بهدايا نفيسة ودسّ الى أخيه شرحبيل من قال له «ان سلمة أكبر منك وهذه الهدايا تأتيه من المنذر» فقطع الهدايا عنه ثم أغرى بينهما حتى تحاربا فقتل شرحبيل في معركة تعرف بيوم الكلاب خرج كل منهما بمن تحت رعايته من قبائل عدنان واقتتلوا فعادت العائدة على شرحبيل. وخاف الناس أن يخبروا أخاه سلمة بقتله فلما علم سلمة بذلك جزع جزعا شديدا وادرك أن

نفوذ أخويهما الآخرين حجر صاحب بني أسد ومعد يكرب صاحب قيس عيلان . ورأى بنو أسد تضعضع تلك الدولة فتنكر والحجر ملكهم وقد ساءت سيرته فيهم . فاجتمعوا على خلافه وبدؤا بنبذ طاعته وكان حجر قد فرض عليهم إتاوة في كل سنة فامسكوا عن أدائها وضربوا الجباة الذين أرسلهم في طلبها . فحمل عليهم حجر بجند من ربيعه فأعمل فيهم السيف وأباح الاموال وأسر منهم طائفة فيهم عبيد بن الابرص الشاعر المشهور فقام بين يدى الملك فقال أيها الملك اسمع مقالتي وأنشد أبياتاً . منها .

اما تركت تركت عفـ * ـواً أو قتلت فلا ملامه

أنت المليك عليهمو * وهمو العبيد الى القيامه[1]

المنذر انما أراد أن يقتل بعضهم بعضا فاصبح لا يأمن على نفسه وخرج من تغلب والتجأ الى بكر بن وائل فاذعنت له وحسدت عليه وقالوا لا يملكنا غيرك فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا فحلف ليسيرن اليهم فان ظفر بهم ليذبحنهم على قنة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض وسار اليهم في جموعه فالتقوا باوارة فاقتتلوا قتالا شديدا وانجلت الواقعة عن هزيمة بكر وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله فقتل وقتل في المعركة خلق كثير وأسر المنذر من بكر أسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة فجعل الدم يجمد فقيل له « أبيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه الارض لم يبلغ دمهم الحضيض ولكن لو صببت عليه الماء لسال الى الحضيض » ففعل فسال الدم الى الحضيض وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار وتسمى هذه الواقعة في التاريخ (يوم أوارة الثاني)

(١) هذان البيتان من قصيدة طويلة مطلعها .

ياعين فابكي ما بني * أسد فهم أهل الندامه

(ومنها)

أهل القباب الحمر والنعم المؤبل والمدامه

فرق له حجر حين سمع قوله فبعث فى أثرهم فاقبلوا حتى اذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة الاسدى وحرضهم فهجموا على قبة الملك تخيم عليه حجابه ليمنعوه فاقبل علباء بن الحارث الكاهلى وكان حجر قد قتل أباه فطعن حجرا فاصاب نساه (١) فقتله. فقى ذلك يقول الاسدى.

وقصدة علباء بن قيس بن كاهل * منية حجر فى جوار ابن خدان

فكتب حجر وصيته قبل أن تزهق روحه وأبان فيها من قتله وكيف كان خبره ودفعها الى رجل وأمره أن يأتى بها بنيه واحداً واحداً وقال له أيهم لم يجزع ادفعها اليه مع سلاحى وخيلى وقدورى فانطلق الرجل بوصيته الى نافع ابنه وكان اكبرهم فأخذ التراب فوضعه على رأسه ثم استقرأهم واحداً واحداً فكلهم فعل ذلك الا ابنه امرأ القيس الشاعر المشهور وكان أصغرهم سنا فلم يجزع كما جزع اخوانه وقام فى أخذ ثأر أبيه في خبر طويل (٢)

وذوو الجياد الجرد وال * إسل المثقفة المقامه
حلا أبيت اللعن حلا ان فيما قلت آمه
في كل واد بين يثـرب فالقصور الى اليمامه
تطريب عان أو صيا * ح محرق أو صوت هامه
ومنعتهم نجدا فقد * حلوا على وجل تهامه
برمت بنوا أسد كما * برمت ببيضتها النعامه
جعلت لها عودين من * نشم وآخر من ثمامه

(١) فاصاب نساه النسا مثال الحصى عرق في الفخذ اه

(٢) فى خبر طويل وهاك نصه .

لما أتى الرسول امرأ القيس وجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد فقال قتل حجر فلم يلتفت الى قوله وامسك نديمه فقال له امرؤ القيس اضرب فضرب حتى اذا قال ما كنت لافسد عليك دستك ثم سأل الرسول عن أمر أبيه فاخبره فقال الخمر علىّ

وبموت حجر تضعضعت دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معديكرب على قيس عيلان وأمراء صغار لهم سيادة على بعض القبائل الى أن ظهر الاسلام فذهبت جميعها .

والنساء حرام حتى اقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي مائة وفي ذلك يقول

أرقت ولم يأرق لما بي نافع * وهاج لي الشوق الهموم الروادع

ثم قال «ضيعني صغيرا . وحملني دمه كبيرا . لاصحو اليوم . ولا سكر غدا . اليوم خمر وغدا أمر . » فذهبت مثلا ثم قال .

خليليّ ما في اليوم مصحي لشارب * ولا في غد اذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا فلما صحا آلى لا يأكل لحما . ولا يشرب خمرا . ولا يدهن بدهن . ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأر أبيه ولما جن عليه الليل رأى كوكبا فقال

أرقت لبرق بليل أهل * يضيء سناه بأعلى الجبل

أتاني حديث فكذبته * بأمر تزعزع منه القلل

بقتل بني أسد ربهم * ألا كل شيء سواه جلل

فاين ربيعة عن ربها * وأين تميم وأين الخول

ألا يحضرون لدي بابه * كما يحضرون اذا ما أكل

ثم ارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكرا وتغلب فاستنهضهم وسألهم النصر على بني أسد فأجابوه الى طلبه . ومن حديثه في تشدده وأخذ الثأر أنه لما جمع الجيوش من انحاء بلاد العرب لاخذ ثأر أبيه مرّ بصنم يقال له (ذو الخلصة) فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة الآمر والناهي والمتربص فأجالها فخرج الناهي ثم أجالها فكان كذلك ثم أجالها فلم يخرج سوى الناهي أيضا فجمع قداحه وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال ويحك لو أبوك قتل ماعقتني ومضى الى القتال فظفر ببني أسد . فلينظر القاريء الى مقدار شغف العرب بأخذ الثأر حتى انهم ليخالفون آلهتهم اذا نهتهم عنه وبعد أن ظفر ببني أسد ونال منهم ما أراد من ثأر أبيه حجر قال .

حلت لي الخمر وكنت امرءاً * عن شربها في شغل شاغل

ملوك العرب المتفرقة

﴿ عمرو بن لحى ﴾

كان هذا الملك سلطانا على الحجاز فى أوائل القرن الثالث من الميلاد وهو أول من أدخل الاصنام فى بلاد العرب وأمر بعبادتها وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام على ديانة العرب ان شاء الله تعالى .

فاليوم اسق غير مستحقب * اثما من الله ولا واغل

ثم ألح المنذر فى طلب امرئ القيس فتفرقت جموعه خوفا من المنذر فتنقل امرؤ القيس الى قبائل العرب لينجدوه فلم يجد أحدا ينجده رهبا من بأس المنذر حتى سار الى السموءل ابن عادياء اليهودى فاجاره وأودع عنده الادرع ثم سار الى قيصر ملك الروم يستنجده وقال عند سيره قصيدته المشهورة التي مطلعها

أري أم عمرو دمعها قد تحدرا * بكاء على عمرو وما كان اصبرا

(ومنها)

بكي صاحبي لما رأي الدرب دونه * وأيقن انا لاحقان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينيك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وأخذ يجوب البلاد حتي وصل الى قيصر الروم ـ فاستنجده وأعطاه جيشا كثيفا فوشي به بعض حساده لقيصر فخلع عليه القيصر حلة منسوجة بالذهب كانت مسمومة وبعث بها اليه وقال اني أرسلت اليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك فاذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة واكتب الى بخبرك من منزل منزل فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها فأسرع فيه السم وسقط جلده ولذلك سمى ذا القروح وقال في ذلك من قصيدة

لقد طمح الطماح من بعد أرضه * ليلبسني من دائه ماتلبسا

فلو أنها نفس تموت سوية * ولكنها نفس تساقط أنفسا

﴿ زهير بن الحباب ﴾

كان هذا الملك وجيها مقبولا ويسمى زهيراً الكاهن لجودة رأيه وهو الذي غزا غطفان لأن بني بغيض بن الريث بن غطفان بنوا حرما مثل حرم مكة وولى سداناته بنو مرة بن عوف فغاظه ذلك فغزاهم وظفر بهم وأبطل حرمهم وأخذ أموالهم ورد نساءهم عليهم . وفي ذلك يقول .

ولولا الفضل منا ما رجعتم * الى عـذراء شيمتهـا الحياء

وقد وفد زهير هذا الى ابرهة الحبشي بنجد فاكرمه ابرهة وولاه أمر بني بكر وبني تغلب واستمر زهير أميراً عليهم حتى خرجوا عن طاعته فغزاهم وقتل منهم (١) وكان كثير الظفر . ولما أسنّ شرب الخمر صرفا فمات بسبب ذلك .

فلما سار الى بلدة من بلاد الروم تدعى (أنقره) بفتح الهمزة وسكون النون وكسر القاف معرب (انكورية) احتضر بها فقال رب خطبة محبرة * وطعنة مسحنفرة * وجفنة متعنجرة * وقصيدة مستحضرة * تبقى غدا بانقرة * (محبرة) مهذبة منقحة (مسحنفرة) نافذة ماضيـة (جفنة) قصعة صغيرة ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك بجواره فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال .

أجارتنا ان المزار قريب * واني مقيم ماأقام عسيب
أجارتنا انا غريبان هاهنا * وكل غريب للغريب نسيب
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريب

(١) وقتل منهم وفي ذلك يقول .

أين أين الفرار من حذر المو * ت اذا يتقـون بالاسـلاب
اذ أسرنا مهلهـلا وأخاه * وابن عمرو في القيد وابن شهاب
وسبينا من تغلب كل بيضا * ء رقود الضحي برود الرضاب
حـين تدعو مهلهلا يالبكر * ها أهـذى حفيظة الاحساب

زهير بن جذيمة

كان لهذا الملك اتاوة على هوازن يأخذها كل سنة بسوق عكاظ أيام الموسم بالحجاز فحقدوا عليه لذلك وتحارب زهير مع بني عامر فاتفقت هوازن مع خالد بن جعفر بن كلاب العامري على حرب زهير واقتتلوا فالتقى زهير بخالد واقتتلا قتالا شديداً واعتنقا وسقطا الى الارض من فوق ظهور فرسيهما فشد ورقاء بن زهير على خالد وضربه بالسيف فلم يصنع شيئا وحمل جندح ابن البكاء على زهير فقتله وعاد بنو هوازن الى منازلهم وحمل بنو زهير أباهم الى بلادهم[1] وبعد موته تولى على سرير الملك ابنه (قيس)

ويحكم ويحكم أبيح حماكم * يابني تغلب انا ابن رضاب
وهمو هاربون في كل فج * كشريد النعام فوق الروابي
واستدارت رحا المنايا عليهم * بليوث من عامر وجناب
فهمو بين هارب ليس يألو * وقتيل معفر في التراب
فضل العز عزنا حين نسمو * مثل فضل السماء فوق السحاب

(١) وفي ذلك يقول ورقاء بن زهير

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد * فاقبلت أسعى كالعجول أبادر
الى بطلين ينهضان كلاهما * يريد رياش السيف والسيف نادر
فشلت يميني يوم أضرب خالدا * ويمنعه مني الحديد المظاهر
فياليت اني قبل أيام خالد * وقبل زهير لم تلدني تماضر
لعمري لقد بشرت بي اذ ولدتني * فماذا الذي ردت عليك البشائر
فلا يدعني قومي صريحا لحرة * لئن كنت مقتولا وتسلم عامر
فطر خالد ان كنت تستطيع طيرة * ولا تقعن الا وقلبك حاذر
أتتك المنايا ان بقيت بضربة * تفارق منها العيش والموت حاضر

﴿ قيس بن زهير (١) ﴾

كان هذا الملك داهية من دواهى العرب شديد البأس قوى السلطان وافر العقل سديد الرأى ومن جودة رأيه لقب بقيس الرأى . قدم يوما بأخذ ثأر أبيه من بنى عامر فلم يتمكن فرحل الى الحجاز واشترى حصانه المسمى (بداحس) ثم نزل على حذيفة بن بدر الفزارى وهناك جرى سباق بين خيل لقيس وخيل لحذيفة وكانت نتيجة ذلك السباق ان قتل قيس ابنا لحذيفة ثم قتل حذيفة ابنا لقيس ثم انضم الى قيس الربيع بن زياد وبنو عبس وانضم الى حذيفة قبيلة بنى بدر وبنى ذبيان وقامت بسبب ذلك حرب هائلة تعرف فى التاريخ بحرب (داحس والغبراء) وسيأتى الكلام عليها عند التكلم على

---

(١) وكان قيس هذا شاعرا مجيدا . فمن شعره قوله .

اذا أنت أقررت الظلامة لامرئ * رماك باخرى شعبها متفاقم
فلا تبد للاعداء الاخشونة * فمالك منهم ان تمكن راحم

(وقوله أيضا يرثي حمل بن بدر)

تعلم ان خير الناس ميت * على جفر الهباءة لايريم
ولولا ظلمه مازلت أبكي * عليه الدهر ماطلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر * بغي والبغي مرتعه وخيم
أظن الحلم دل على قومي * وقد يستجهل الرجل الحليم
ومارست الرجال ومارسوني * فمعوج علىّ ومستقيم
فلا تغش المظالم لن تراه * يمتع بالغنى الرجل الظلوم
ولاتعجل بامرك واستدمه * فما صلى عصاك كمستديم
ألاقى من رجال منكرات * فانكرها وما أنا بالغشوم
ولايعتبك عن قرب بلاء * اذا لم يعطك النصف الخصوم

حروبهم ان شاء الله تعالى. وفى هذه الحرب فاز قيس وحلفاؤه وظهرت من وقتئذ شجاعة عنترة العبسى صاحب المعلقة المشهورة التى سيأتى ذكرها فى الكلام على المعلقات وانتهت هذه الحرب بعقد صلح بين بنى عبس وبنى فزارة .

ثم أتى بعد ذلك عدة ملوك أضربنا صفحا عن ذكرهم فى صفحات التاريخ الى أن بزغت شمس الاسلام الزهراء وأضاءت على المعمورة جمعاء ودخل الكل فى دين الله أفواجا فانمحت سلطة العرب وتقلص ظلها وانتقلت للنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الراشدين من بعده وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب وفقنا الله تعالى الى ما فيه النفع لذوى الألباب .

اخلاق الامة العربية في اطوار الجاهلية

لا يخفى على القارئ اللبيب ما كان عند العرب من الانفة والبسالة والعظمة والشجاعة وعلو الهمة والشهامة . فقد كانت نفوسهم أبية لا يسامون الخسف وكانوا يأبون الضيم والصغار ويذبون عن الأهل والجار ولو جار ويأخذون بالثار ويغارون على العرض ويحرصون على الكرامة مع الافتخار بالحسب والنسب

ولقد وعدتك أيها الاديب فى صدر هذا الكتاب انى سأسرد عليك ما اتصفت به الامة العربية من الصفات الجليلة والمحاسن الجميلة التى انكرها كثير من أهل هذا العصر ممن جهلوا تاريخهم المجيد أو تجاهلوه . وأذكر لك

بعض من اشتهروا بها وضربت بهم الامثال

وليت شعرى انى يجحدون أخلاق أمة جمع فيها من مكارم الاخلاق الفاضلة وحميد الصفات الكاملة ما تشتت بعضه فى صنوف العالم أجمع فكأين من أمة اختصت بمكرمة واحدة لا يوجد بها غيرها بخلاف الأمة العربية فانك لا تجد مكرمة من المكارم الا وقد أخذت هذه الامة منها بالحظ الأوفر والنصيب الاكبر. ولقد وصفهم الحارث بن كلدة لما قدم على كسرى فسأله عن أخلاق العرب ومذاهبهم فقال. « لهم أنفس سخية. وقلوب جرية. وعقول صحية مرضية. وأحساب نقية. يمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الرمية. ألين من الهواء. وأعذب من الماء. يطعمون الطعام. ويضربون الهام. وعزهم لا يرام. وجارهم لا يضام. ولا يروع اذا نام »

ووفاء بوعدى سأسرد لك ما قد وعدت به. فمن هذه الصفات التى قل أن يتصف بها غير العرب من الأمم المضروب بها الامثال (الشجاعة)

﴿ شجاعتهم ﴾

لا أحيطك علما أيها اللبيب الى ما كان عند هؤلاء القوم من القوة والشجاعة والحمية وعزة النفس والمدافعة الى آخر ماسردت عليك

ولا غرو فى ذلك فاليهم انتهت القوة والشجاعة والبأس الشديد لا سيما قوم عاد (١) فانهم قد تظاهروا بقوتهم حتى قالوا من أشد منا قوة كما قال تعالى

(١) فمن هؤلاء القوم شداد بن عاد فقد كان ذا قوة وبطش شديد. سار في الارض وطاف البلاد حتي ملك مشارقها ومغاربها وله حروب في ذلك كثيرة.

« فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » .

وفى هذا أكبر دليل وأجلّ برهان على أن قوة البشر انتهت اليهم . يدل على ذلك ان الله تعالى كلما ذكر أمة فى القرآن الكريم ذكرهم بمن كان أقوى منهم قبلهم الا قوم عاد فانه تعالى بكتهم بقوته المقدسة . ولقد كانت الشجاعة خُلقا فى العرب عامة وآثارها بينهم أظهر من الكرم فان الكرم قد لا يظهر أثره واضحا الا من أغنيائهم وقد يكون للفقير عذر أن يبخل . وأما

ولما مات شداد خلفه ابنه (مرثد) بحضرموت مع بعض الجنود فلما توجه الي مدينته المذكورة جلس مكان أبيه فلما بلغه ما أصاب والده وقومه معه أمر بحمل جثة أبيه من تلك المفازة الي حضرموت فحملت مطلية بالصبر والكافور وأمر بحفر مغارة في الجبل لوضع الجثة فحفرت وجعله على سرير من ذهب ووضعه فيها وألقى عليه سبعين حلة منسوجة بالذهب ووضع عند رأسه لوحاً من ذهب مكتوبا فيه هذه الابيات .

اعتبر أيها المغرور بالعمر المديد
أنا شداد بن عاد * صاحب الحصن العميد
وأخو القوة والقد * رة والملك الحشيد
دان أهل الارض لي من * خوف قهري والوعيد
وملكت الشرق والغر * ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعد * دة أيضاً والعديد
فأتي هود وكنا * فى ضلال قبل هود
فدعانا لو قبلنا * منه للامر الرشيد
فعصيناه ونادينا ألاهل من محيد
فأتتنا صيحة تد * وى من الأفق البعيد
وترامينا كزرع * وسط بيداء حصيد

الشجاعة فلا مندوحة له منها لأنها ان كانت اختيارية فى الهجوم فهي اجبارية فى الدفاع ولا عذر مطلقا لعربى أن يكون جبانا .

وأنى لا يكون ذلك كذلك والعربى طالما افزعه من نومه وهو فى حضانة أمه قولهم (واصباحاه) وروعه فى سفره صوت خصم لدود (خل الظعينة وانج بنفسك) فيثب متقلداً سيفه . معتقلا رمحه . متنكبا قوسه . يده على قذال مهره كلما سمع هيعة [1] طار اليها .

وأما كون العرب أشجع من غيرهم فلأن الشجاعة كانت فيهم من الصفات الغريزية والسجايا الطبيعية . وقوة للنفس معنوية . لا تدرك الا بآثارها وغاياتها . ولا تعلم الا بمقتضياتها وعلاماتها . وهى الاقدام فى مواضع الاحجام . وعدم المبالاة بالحياة ولا بالممات وكلما كانت هذه الآثار أعظم . كان مبدؤها أقوى وأتم . والعرب لم تزل رماحهم متشابكة وأعمارهم في الحروب متفانية . وسيوفهم متقارعة . وابطالهم في ميادين الغوغاء متنازعة . قد رغبوا عن الحياة وطيب اللذات . وزهدوا التأييد عزهم عن المقيل فى أفياء الشهوات وهم كما قال القائل فيهم .

قوم اذا نزل الغريب بدارهم * تركوه رب صواهل وقيان
واذا دعوتهمو ليوم كريهة * سدوا شعاع الشمس بالفرسان
لاينكتون الارض عند سؤالهم * لتطلب العلات بالعيدان
بل يسفرون وجوههم فيرى لها * عند السؤال كأحسن الألوان

ولقد كانوا يتمادحون بالموت فى الهيجاء وميادين الحروب . ويتهاجون

(١) الهيعة صوت المستغيث

بالموت على الفراش ويقولون لمن مات كذلك مات فلان حتف أنفه . (وعن بعضهم) وقد بلغه قتل أخيه أنه قال ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه . انا والله لا نموت حتما ولكن قطعا بأطراف الرماح وموتا تحت ظلال السيوف (وقال شاعرهم)

وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل [1]

﴿ ومثل هذا قول عمرو بن شاس ﴾

لسنا نموت على مضاجعنا * بالليل بل أدواؤنا القتل

﴿ وقال الشنفرَى الازدى ﴾

فلا تدفنونى ان دفني محرم * عليكم ولكن أبشرى أم عامر
اذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثري * وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائرى

(١) الظبات جمع ظبة وهى حد السيف . قيل أراد بالظبات السيوف كلها فاضاف الحد اليها أى انهم لشجاعتهم وشرفهم لا يقتلون الا بالسيوف ولا يقتلون بالعصي ولا بالحجارة كما يقتل رعاع الناس . وهذان البيتان من قصيدة للسموءل بن عادياء اليهودي تنبئ عما كان عليه العرب من كرم الاخلاق والشهامة وهي

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا انا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما قلَّ من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به * الى النجم فرع لا ينال طويل

هنالك لا أرجو حياة تسرني * سجيس الليالى مبتلى بالجرائر

﴿ وقال آخر ﴾

وانا لتستحلى المنايا نفوسنا * وتترك أخرى مرة فنذوقها

﴿ وقال الحصين بن الحمام المري ﴾

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد * لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الاعقاب تَدمَى كلومنا * ولكن على أعقابنا تقطر الدما

وأنا لقوم ما نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل
صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا * اناث اطابت حملنا وفحول
علونا الى خير الظهور وحطنا * لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا * كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق * ولا ذمنا فى النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا * لها غرر معلومة وحجول
وأسيافنا فى كل غرب ومشرق * بها من قراع الدارعين فلول
معودة ان لا تسل نصالها * فتغمد حتي يستباح قبيل
سلى ان جهلت الناس عنا وعنهمو * وليس سواء عالم وجهول
فان بنى الديان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

﴿ وقال آخر ﴾

وسائلة بالغيب عنى ولو درت * مقارعتي الابطال طال نحيبها
اذا ماالتقينا كنت أول فارس * يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

﴿ وقال عنترة العبسى من قصيدة (١) ﴾

بكرت تخوفني الحتوف كأنني * أصبحت من عرض الحتوف بمعزل
فأجبتها ان المنية منهل * لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمى * انى امرؤ سأموت ان لم أقتل

﴿ وقال ابن الاطنابة ﴾

أبت لى همتى وأبى بلائى * واخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت * مكانك تحمدي أو تستريحي

(١) هذه القصيدة من أحسن ماقال عنترة في الشجاعة (ومنها) .
ان المنية لو تمثل مثلت * مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل
اني امرؤ من خير عبس منصبا * شطرى وأحمي سائرى بالمنصل
واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت * ألفيت خيرا من معم مخول
والخيل تعلم والفوارس انني * فرقت جمعهمو بضربة فيصل
اذ لا أبادر في المضيق فوارسى * أولا أوكل بالرعيل الأول
ان يلحقوا أكرر وان يستلحموا * أشدد وان يلفوا بضنك أنزل
حين النزول يكون غاية مثلنا * ويفر كل مضلل مستوهل
والخيل ساهمة الوجوه كأنما * تسقى فوارسها نقيع الحنظل
ولقد بكيت على الطوي وأظله * حتى أنال به كريم المأكل

لادفع عن ما آثر صالحات * وأحيا بعد عن عرض صحيح

﴿ومثل هذا قول قطرى بن الفجاءة﴾

وقولى كلما جشأت لنفسى * من الابطال ويحك لا تراعى
فانك لو سألت حياة يوم * سوى الأجل الذى لك لم تطاعي
فصبراً فى مجال الموت صبراً * فما نيل الخلود بمستطاع

﴿وقال آخر﴾

محرمة أكفال خيلي على القنا * ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا طعن مدبر * وتندق منها فى الصدور صدورها

ولقد خص العرب من الشجاعة في حروبهم والنجدة فى مصابرة عدوهم بما شهدت به تواريخ الامم . واعترفت به ألسن العرب والعجم . وضربت به الأمثال فى النوادي . وسارت بذكره الركبان فى البوادى . ولاعجب فهذا شعرهم ينطق بما كانوا عليه من الشجاعة وعلو الهمة والاقدام على المهالك ولا بأس بايراد شىء منه حجة لقولنا وتأييداً لما وصفناهم به (فمن ذلك قول شاعرهم) .

لقد علم القبائل أن قومي * ذوو جدٍّ اذا لُبس الحديد
وأنا نعم أحلاس القوافي * اذا استعر التنافر والنشيد[1]
وأنا نضرب الملحاء حتي * تولى والسيوف لنا شهود[2]

(١) يقال فلان حلس كذا أى ملازم له
(٢) الملحاء من الملحة وهو البياض يخالطه سواد

﴿ وقال أبو الغول الطهوى في قوم من العرب ﴾

فدت نفسي وما ملكت يميني * فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا * اذا دارت رحا الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيئ * ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وان هم * صلوا بالحرب حينا بعد حين
همو منعوا حمى الوقبى بضرب * يؤلف بين أشتات المنون
فنكب عنهمو درأ الاعادي * وداووا بالجنون من الجنون
ولا يرعون أكناف الهوينا * اذا حلوا ولا أرض الهدون

﴿ وقال ربيعة بن مقروم الضبي ﴾

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها * بسليم أوظفة القوائم هيكل
فدعوا نزال فكنت أول نازل * وعلام أركبه اذا لم أنزل
وألدّ ذي حنق عليّ كأنما * تغلى عداوة صدره في مرجل
أرجيته عني فأبصر قصده * وكويته فوق النواظر من عل

﴿ وقال عمرو بن كلثوم ﴾

معاذ الاله أن تنوح نساؤنا * على هالك أو أن نضج من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا * بأرض براح ذي أراك وذي أثل
فما أبقت الأيام ملمال عندنا * سوى جذم أذواد محذفة النسل

﴿ وقال شاعر من حمير ﴾

من رأى يومنا ويوم بني التيـ * ـم اذا التف صيقه بدمه
لما رأوا أن يومهم أشب شذ * دوا حيازيمهم على ألمه
كأنما الاسد في عرينهم * ونحن كالليل جاش في قتمه

لا يسلمون الغداة جارهمو * حتي يزل الشراك عن قدمه
ولا يخيم اللقاء فارسهم * حتي يشق الصفوف من كرمه
ما برح التيم يعتزون وزر * ق الخط تشفي السقيم من سقمه
حتي تولت جموع حمير والـفل سريعا يهوى الى أممه
وكم تركنا هناك من بطل * تسفى عليه الرياح فى لممه

وأمثال هـذا الشعر ممـا يدل على بسالتهم وشجاعتهم كثير (١) وقد

(١) كثير. ومنه قول شريح بن قرواش العبسى

ولما رأيت النفس جاشت عكرتها * على مسحل فى أى ساعة معكر
عشية نازلت الفوارس عنـده * وزل سنانى عن شريح بن مسهر
واقسم لولا درعـه لتركتـه * عليه عواف من ضباع وأنسر
وما غمرات المـوت الا نزالك ال * كمى على لحم الكمى المقطر

(وقال يحيى بن منصور الحنفى)

وجدنا أبانا كان حل ببلدة * سوي بين قيس قيس عيلان والفزر
فلما نأت عنا العشيرة كلها * أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كريهة * ولا نحن أغضينا الجفون على الوتر

(وقال آخر في واقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير)

ونحن أجرنا الحي كلبا وقد أتت * لها حمير ترجي الوشيج المقوما
تركنا لها شق الشمال فأصبحوا * جميعا يزجون المطى المخزما
فلما دنوا صلنا ففرق جمعهم * سحابتنا تنـدى أسرتها دما
فغادرن قيلا من مقاول حمير * كأن بخديه من الدم عـندما
أمر على أفواه من ذاق طعمها * مطاعمنـا يمججن صابا وعلقما

(وقال في ذلك هلال بن رزين أحد بنى نور بن عبد مناة)

وبالبيـداء لمـا ان تـلافت * بها كلب وحـل بها النـذور

امتلأت بطون الاسفار الادبية وما سردنا هذه الابيات الا لتأييد ما كانوا

فخانت حمير لما التقينا * وكان لهم بها يوم عسير
وأيقنت القبائل من جناب * وعامر ان سيمنعها نصير
أجادت وبل مدجنة فدرت * عليهم صوب سارية درور
فولوا تحت قطقطها سراعا * تكبهم المهندة الذكور

(وقال بشامة بن حزن النهشلي)

ولقد غضبت لخندف ولقيسها * لما ونى عن نصرها خذالها
دافعت عن اعراضها فمنعتها * ولدىّ في أمثالها أمثالها
انى امرؤ اسم القصائد للعدا * ان القصائد شرها اغفالها
قومي بنو الحرب العوان بجمعهم * والمشرفية والقنا اشعالها
مازال معروفا لمرة في الوغي * علّ القنا وعليهم انهالها
من عهد عاد كان معروفا لنا * أسر الملوك وقتلها وقتالها

(وقال أبو الابيض العبسى)

وذي أمل يرجو تراثي وان ما * يصير له مني غداً لقليل
ومالى مال غير درع ومغفر * وأبيض من ماء الحديد صقيل
وأسمر خطيٌّ القناة مثقف * وأجرد عريان السراة طويل
أقيه بنفسي في الحروب واتقى * بهاديه انى للخليل وصول

(وقال العباس بن مرداس السلمي)

فلم أر مثل الحي حيا مصبحا * ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرّ واحمي للحقيقة منهمو * واضرب منا بالسيوف القوانسا
اذا ماشددنا شدة نصبوا لنا * صدور المذاكي والرماح المداعسا
اذا الخيل جالت عن صريع نكرها * عليهم فما يرجعن الا عوابسا

(وقال حجر بن خالد الثعلبي)

وجدنا أبانا حلّ في المجد بيته * وأعيا رجالا آخرين مطالعه

عليه من الشجاعة والاقدام على المهالك . ولقد كابد النبي صلى الله عليه وسلم منهم فى تأليفهم واتحاد كلمتهم ماقد بلغ منه السيل الزبى وجاوز الحزام

فمن يسع منا لاينل مثل سعيه * ولكن متى مايرتحل فهو تابعه
يسود ثنانا من سوانا وبدؤنا * يسود معداً كلها لاتدافعه
ونحن الذين لايروّع جارنا * وبعضهمو للغدر صمّ مسامعه
ندهدق بضع اللحم للباع والندى * وبعضهمو تغلى بذم مناقعه
ويحلب ضرس الضيف فينا اذاشتا * سديف السنام تستريه أصابعه
منعنا حمانا واستباحت رماحنا * حمي كل قوم مستجير مرابعه

(وقال الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي)

اذا المهرة الشقراء أدرك ظهرها * فشب الاله الحرب بين القبائل
وأوقد نارا بينهم بضرامها * لها وهج للمصطلى غير طائل
اذا حملتني والسلاح مشيحة * الى الروع لم أصبح على سلم وائل
فدى للفتى ألقي الىّ برأسها * تلادي وأهلي من صديق وجامل

(وقال وداك بن ثميل المازني)

رويد بني شيبان بعض وعيدكم * تلاقوا غدا خيلى على سفوان
تلاقوا جياداً لاتحيد عن الوغي * اذا ما غدت فى المأزق المتداني
عليها الكماة الغرّ من آل مازن * ليوث طعان عند كل طعان
تلاقوهمو فتعرفوا كيف صبرهم * على ماجنت فيهم يد الحدثان
مقاديم وصالون فى الروع خطوهم * بكل رقيق الشفرتين يماني
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو * لأية حرب أم بأي مكان

(وقال حريث بن عناب النبهاني)

تعالوا أفاخركم أأعيا وفقعس * الي المجد أدنى أم عشيرة حاتم
الى حكم من قيس عيلان فيصل * وآخر من حي ربيعة عالم
ضربناكم حتى اذا قام ميلكم * ضربنا العدا عنكم ببيض صوارم

الطبيين * ونحن نسرد في هذا الصدد بعض من ضرب بهم المثل في الشجاعة من العرب في أطوار الجاهلية. وان كان كل منهم استحق أن يضرب به المثل وينوه بشأنه في القول والعمل لأن العرب كانوا في الشجاعة على ما ذكرناه من المنزلة التي لا تطاول وقد قامت الدلائل الواضحة والبراهين الظاهرة على ذلك الا ان كتب الأمثال والوقائع اقتصروا على ذكر من شاع أمره على ألسنة الشعراء واشتهر ذكره بين القبائل .

﴿ بعض من ضرب بهم المثل في الشجاعة من عرب الجاهلية ﴾

﴿ مجمّع بن هلال بن خالد بن مالك ﴾

كان هذا الرجل ممن يضرب بشجاعته المثل بين العرب . ومن حديثه أنه غزا مرة يزيد بن سعد بن زيد مناة فلم يصب شيئا فرجع من غزاته فربماء لبني تيم وعليه ناس من بني مجاشع فقتل منهم وأسر فقال في ذلك

خلوا ابا كنافي وا كناف معشري * اكن حرزكم في المأقط المتلاحم
فقد كان اوصاني ابي أن أضيفكم * الى وانهي عنكمو كل ظالم

(وقال عامر بن الطفيل)

طلقت اذا لم تسألي أي فارس * حليلك اذ لاقى صداء وخثعما
أكرّ عليهم دعلجا ولبانه * اذا ما اشتكي وقع الرماح تحمحما

(وقال بعض بني تيم الله بن ثعلبة)

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها * فطعنت تحت كنانة المتمطر
ونطاعن الابطال عن أبنائنا * وعلى بصائرنا وان لم نبصر
ولقد رأيت الخيل شلن عليكمو * شول المخاض أبت على المتغبر

وأمثال هذا الشعر كثير وفيما قد سردناه كفاية وهو كاف بالمقصود ووافٍ بالمرام

ان أمس ماشيخا كبيرا فطالما * عمرت ولكن لا أرى العمر ينفع
مضت مائة من مولدي فنضوتها * وخمس تباع بعد ذاك وأربع
وخيل كأسراب القطا قد وزعتها * لها سبل فيها المنية تلمع
شهدت وغنم قد حويت ولذة * أتيت وما ذا العيش الا التمتع
وعائرة يوم الهيجا رأيتها * وقد ضمها من داخل القلب مجزع
لها غلل في الصدر ليس ببارح * شجى نشب والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها * تعست كما أتعستني يا مجمع
فقلت لها بل تعس أخت مجاشع * وقومك حتى خدك اليوم أضرع
عبأت له رمحا طويلا وآلة * كأن قبس يعلى بها حين تشرع
وكائن تركت من كريمة معشر * عليها الحموش ذات حزن تفجع

﴿ ربيعة بن مكدم[1] ﴾

كان هذا الرجل فارساً شجاعا وبطلا مغواراً يضرب به المثل في الشجاعة والحمية من صغر سنه . ومن حديثه ان دريد بن الصمة خرج في كتيبة فرأي ربيعة بن مكدم يقود ظعينة (قال ابن فارس الظعينة لا تكون ظعينة حتى تكون

(١) كان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على رمس أحد غيره قال أحد شعراء العرب المجيدين وقد مر على قبره فنفرت ناقته منه .

نفرت قلوصي من حجارة حرة * بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري ياناق منه فانه * شريب خمر مسعر لحروب
لا يبعدن ربيعة بن مكدم * وسقى الغوادي قبره بذنوب
لولا السفار وطول قفر مهمه * لتركتها تحبو على عرقوب

امرأة في هودج على راحلة) فبعث دريد اليه فارساً من أصحابه وقال له صح به (خلّ الظعينة وانج بنفسك) وهم لا يعرفونه فانتهى اليه الفارس فصاح به وألحّ عليه فلما أبى ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة

سيري على رسلك سير الآمن ٭ سير رداح ذات جأش ساكن
ان انثنائي دون قرني شائني ٭ أبلى بلائي واخبري وعايني

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظعينة . فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما فعل صاحبه . فلما انتهى اليه ورآه صريعاً صاح به فتصام عنه فظن أنه لم يسمع فألقى زمام الراحلة الى الظعينة ثم رجع اليه وهو يقول

خلّ سبيل الحرة المنيعه ٭ انك لاق دونها ربيعه
في كفه خطية مطيعه ٭ أولا فخذها طعنة سريعه
والطعن مني في الوغى شريعه

ثم حمل عليه فصرعه فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ماصنعا فلما انتهى اليهما رآهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل سبيل الظعينة فقال للظعينة اقصدي قصد البيوت ثم أقبل عليه قائلا

ماذا تريد من شتيم عابس ٭ ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه . فارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق ربيعة وقد دنا من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا ووجد ربيعة قد انكسر رمحه وبقي أعزل . فقال له أيها الفارس ان مثلك لا يقتل واني لا أري معك رمحا والخيل ثائرة باصحابها فدونك هذا الرمح فاني منصرف الى أصحابي فمثبطهم عنك فانصرف دريد وقال لأصحابه ان

فارس الظعينة قد حماها وقتل فرسانكم . وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه فانصرفوا فانصرف القوم (وقال دريد)

ماإن رأيتُ ولاسمعتُ بمثله * حامي الظعينة فارسا لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة * ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه * مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجي ظعينته ويسحب رمحه * متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رمحه * مثل البغاث خشين وقع الاجدل
ياليت شعري من أبوه وأمه * يا صاح من يك مثله لا يجهل

﴿وقال ربيعة﴾

ان كان ينفعك اليقين فسائلي * عني الظعينة يوم وادي الاخرم
اذ هي لأول من أتاها نهبة * لولا طعان ربيعة بن مكدّم
اذ قال لي أدنى الفوارس ميتة * خلّ الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه * عمداً ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه * فهوى صريعاً لليدين وللفم
ومنحت أخر بعده جياشة * نجلاء فاغرة كشدق الاضجم
ولقد شفعتهما بآخر ثالث * وأبى الفرار لي الغداة تكرمي

﴿وممن﴾ اشتهروا بالشجاعة في أطوار الجاهلية وقد كان يضرب بهم المثل بين العرب . جعفر بن كلاب العامري . وعمرو بن كلثوم . وعمرو بن معديكرب الزبيدي . وعامر بن الطفيل . وعمرو بن عبدود العامري . وبسطام بن قيس الشيباني . وعنترة العبسي الشاعر الشهير . ودريد بن الصمة . وزيد الخيل . وهانئ بن مسعود . وأمية بن حرثان . وعروة بن

الورد وابو براء عمرو بن مالك الملقب بملاعب الاسنة . وزيد الفوارس . ورداد الاعنة وغيرهم ممن لا يحيط بهم الحصر وسيأتى ان شاء الله تعالى ذكر شيء من أخبار هؤلاء فى وقائعهم ٧

﴿صراحتهم﴾

(ومما كان عندهم) من الخصال الزاهية والمزايا السامية « الصراحة » وهى الابانة عما فى مقصودهم خالصة من شائبة الرياء والملق (قال شاعرهم) المثقب العبدى

فاما أن تكون أخى بصدق * فأعرف منك غثى من سميني
والا فاطرحني واتخذني * عدواً أتقيك وتتقيني

﴿ وقال آخر وهو عدى بن زيد من شعراء الحيرة ﴾

وبالعدل فانطق ان نطقت ولا تجر * وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد

﴿ وقال آخر وهو امرؤ القيس ﴾

انى لأصرم من يصارمني * وأجد وصل من ابتغى وصلى

﴿ وقال أيضاً ﴾

فان تدفنوا الداء لا نخفه * وان تبعثوا الحرب لا نقعد
وان تقتلونا نقتلكم * وان تقصدوا الدم لا نقصد

﴿ وقال آخر ﴾

ولست بلاق المرء أزعم انه * خليل وما قلبى له بخليل

﴿ وقال ذو الاصبع العدوانى ﴾

والله لو كرهت كفى مصاحبتى * لقلت اذ كرهت قربى لها بينى

﴿ وقال معن بن أوس المزنى ﴾

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركب حدَّ السيف من أن تضيمه * اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

ولهم فى هذا المعنى شعر كثير لا يكاد يحصى وهذا مما يدل على ان « الصراحة » كانت فى العرب فطرة من فطرهم . وهى أثر من اثار قوة نفوسهم وطهارتها من درن النفاق والملق و استشمارها بعزة النفس .

﴿ عزة نفوسهم ﴾

(ومما كان عندهم) من الصفات الحميدة والخصال الجليلة (عزة النفس وكرامتها) ولايخفى انها فضيلة عالية وصفة راقية . وهى اكرام المرء نفسه ووضعها فى مرتبتها . ولقد كانت فطرة من فطرتهم ينطبق بها عملهم وقولهم

﴿ قال شاعرهم المثقب العبدى ﴾

فلو اني تعاندنى شمالى * لما أتبعتها أبدا يميني
اذاً لقطعتها ولقلت بيني * كذلك أجتوي من يجتويني

﴿ وقال آخر ﴾

فان تكن الايام فينا تبدلت * ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة * ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

﴿ وقال عنترة ﴾

أحب بني عبس وان هدروا دمي * محبة عبد صادق القول صابر
وأدنو اذا ما أبعدونى والتقى * رماح العدا عنهم وحر الهواجر

(وقد عير) بنو ذبيان النابغة بخشيته النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقال

وعيرتني بنو ذبيان خشيته * وهل عليّ بأن أخشاه من عار

ولهم في ذلك شعر كثير . (ويتفرع) من العزة صفات جمة . منها (الحفاظ) وهو الدفاع عن الحرم والعشيرة (قال شاعرهم) البراق وهو من شعراء ربيعة

لعمري لست أترك آل قومي * وأرحل عن فنائي أو أسير
أأنزل بينهم ان كان يسر * وأرحل ان ألمّ بهم عسير
وأترك معشري وهمو أناس * لهم طول على الدنيا يدور

ومنها (سكني البادية) خوف رفهية الحضر ومذلته

﴿ قال الاسود بن يعفر التميمي ﴾

فتخيروا الارض الفضاء لعزهم * ويزيد رافدهم على الرفاد

ومنها (الجلد في الشدائد) حتى انهم ليفخرون بعدم البكاء عند نزول المصائب قال بشامة بن حزن النهشلي

اني لمن معشر أفنى أوائلهم * قيل الكماة (ألا أين المحامونا)
لو كان في الالف منا واحد فدعوا * من فارس خالهم اياه يعنونا
اذا الكماة تنحوا أن يصيبهمو * حد الظبات وصلناها بايدينا
ولا تراهم وان جلت مصيبتهم * مع البكاة على من مات يبكونا

﴿ وقال آخر يصف جلده في الشدائد ﴾

فلا أنا يأتيني طريف بفرجة * ولا أنا مما أحدث الدهر جازع
أأجزع مما أحدث الدهر بالفتى * وأي كريم لم تصبه القوارع

ومنها ﴿الأخذ بالثار﴾ وهذا الخلق عام فيهم لا بد أن يثأروا لقتيلهم ولو أدى ذلك الى هلاك القبيلة ﴿قال مهلهل﴾

ان نحن لم نثأر به فاشحذوا * شفاركم منا لحز الحلوق
ذبحاً كذبح الشاة لا يتقي * ذابحها الا بشخب العروق

ولقد كانوا يحرمون الخمر والطيب والنساء على أنفسهم حتى يثأروا ﴿قال دريد بن الصمة﴾

شلت يميني ولم أشرب معتقة * ان أخطأ الموت أسماء بن زنباع

﴿وقال آخر وهو المهلهل﴾

خذ العهد الاكيد على عمري * بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس * ولبسي جبة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي * الى أن يخلع الليل النهار
والا أن تبيد سَرَاة بكر * فلا يبقى لها أبداً آثار

وقد يكون من ذلك امتناع النساء قال ابن كلثوم.

على آثارنا بيض حسان * نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم * بعولتنا اذا لم تمنعونا

﴿وقال امرؤ القيس﴾ بعد أن أخذ بثأر أبيه من بني أسد

حلت لي الخمر وكنت امرأ * عن شربها في شُغُل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب * اثماً من الله ولا واغل

﴿وقال شاعرهم﴾

أقول للنفس تأساء وتعزية * احدى يديّ أصابتني ولم ترد
كلاهما خَلَف من فقد صاحبه * هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

فانظر أيها القارئ اللبيب الى قول هذا الأعرابي الذى قتل أخوه ابنا له يردد أسفه فى خلال حياته ويعزى نفسه عن القتيل ويعطفها على ذى قرابته ويعتذر له وفى فؤاده حسرة على فلذة كبده ونار تتأجج للأخذ بثأره ولكن الى جانب هذه النار الرأفة على ذوى الرحم تبرد من شواظها ولهبها.

وانظر فى الحيرة التى تستولى على أحدهم اذا اقتتل ذوو قرباه وقتل بعضهم بعضا فانه يكون بين أمرين لا ترجيح لأحدهما على الآخر. الأخذ بالثأر والعطف على الاقارب وهما يتنازعان عليها لانها فطرة فيه وسليقة. فهذا الحارث بن وعلة الذهلي يقول.

قومي همو قتلوا أميم أخى ٭ فاذا رميت يصيبني سهمى
ولئن عفوت لأعفونْ جللا ٭ ولئن سطوت لأوهنن عظمى

﴿ومما يتفرع عن العزة﴾ المروءة والنجدة عند الفزع. وحسبك أيها الأديب بالمروءة أنها صفة جامعة لصفات الكمال. حاوية لمحاسن الخلال. وسجية جبل على التخلق بها ذوو النفوس الزكية. وشيمة طبع على حبها أرباب الهمم العلية. وهم العرب ذوو الاخلاق المرضية ٭ فمن مروءتهم عدم أكل الديات ﴿قال شاعرهم الاعشى﴾

وان منيت بنا فى ظل معركة ٭ لا تلفنا من دماء القوم ننتفل

ومنها ﴿عدم الانتقار﴾ والانتقار هو الدعوة الخاصة ويقال لها النقرى والدعوة العامة يقال لها الجفلى ﴿قال شاعرهم طرفة﴾

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ٭ لا ترى الآدب فينا ينتقر

﴿وقال أمية بن أبى الصلت﴾ فى عبدالله بن جدعان وكان قد صنع الفالوذ

بمكة فوضع الموائد بالابطح الى باب المسجد ثم نادى مناديه الامن أراد الفالوذ فليحضر فحضر الناس وكان منهم أمية

له داع بمكة مشمعلٌ * وآخر فوق دارته ينادي
الى رُدُح من الشيزي ملاء * لباب البر يلبك بالشهاد

﴿ وقال حاتم ﴾

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك * ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد (١)
اذا ماصنعت الزاد فالتمسى له * أكيلا فانى لست آكله وحدى
أخا طارقا أو جار بيت فانني * أخاف مذمات الاحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * وما فيَّ الا تلك من شيمة العبد

ولقد بلغت المروءة فى كثير منهم حد الايثار ولو كان بهم خصاصة

﴿ قال حاتم ﴾

أما والذى لا يعلم السر غيره * ويحيى العظام البيض وهي رميم
لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا * محافظة من أن يقال لئيم

---

(١) عنى بذي البردين عامر بن أحيمر بن بهدلة * وكان من حديث البردين حين لقب به أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء وأخرج المنذر بردين يوما يبلو (يختبر) الوفود وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن أحيمر فاخذهما واتزر باحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت أعز العرب قبيلة . قال : العز والعدد في معد ثم في نزار ثم في مضر ثم في خندف ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرني . فسكت الناس فقال المنذر هذه عشيرتك كما تزعم فكيف انت في أهل بيتك وفي نفسك . فقال : انا أبو عشرة وخال عشرة وعم عشرة . وانا في نفسي فشاهد العز شاهدي ثم وضع قدمه على الارض فقال : من ازالها عن مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردين .

واني لأستحي يميني وبينها * وبين في داجي الظلام بهيم

﴿ وقال دريد بن الصمة ﴾

تراه خميص البطن والزاد حاضر * عتيد ويغدو في القميص المقدد[١]

﴿ ومن مروءتهم ﴾ أن بعضهم كان يجود على الحيوان استحياء منه متى حضر أكله : حتى أن بعضهم كان يعطى عدوه اذا حضر نار الشواء . ﴿ قال شاعرهم المرقش الأكبر ﴾[٢]

ولما أضأنا النار عند شوائنا * عرانا عليها أطلس اللون بائس

نبذنا اليه حزة من شوائنا * حياء وما فحشي على من أجالس

﴿ وقال عروة بن الورد يفتخر باشتراك الناس فى انائه ﴾

انى امرؤ عافى انائي شركة * وأنت امرؤ عافي انائك واحد[٣]

وقد أبان زهير بن أبي سلمى مذهب الاشتراكية وانه من أخلاق العرب الفاضلة قبل أن يظهر فى العالم المتمدن باكثر من ألف سنة فقال .

هنالك ان يستخبلوا المال يخبلوا[٤] * وان يسألوا يعطوا وان ييسروا يغلوا

(١) خميص البطن أي ضامره والعتيد الحاضر المهيأ والمقدد المشقق الممزق

(٢) المرقش لقب غلب عليه بقوله

الدار وحش والرسوم كما * رقش في ظهر الاديم قلم

(٣) العافي طالب المعروف معناه اني امرؤ كريم لا آكل وحدي بل ياكل معى عدة يشاركونني في انائي وأنت امرؤ تأكل وحدك فعافي انائك واحد وبعد هذا البيت

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى * بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

أقسم جسمي فى جسوم كثيرة * وأحسو قراح الماء والماء بارد

(٤) يستخبلوا المال أى يستعار منهم ويخبلوا أي يعيرونه .

على مكثريهم رزق من يعتريهمو * وعند المقلين السماحة والبذل

وقد سبقته الى ذلك الخرنق [١] أخت طرفة فقالت .

والخالطون لجينهم بنضارهم * وذوى الغنى منهم بذى الفقر [٢]

(١) ورد نسب الخرنق في ديوانها المحفوظ بالمكتبة الخديوية رواية أبي عمرو بن العلاء هكذا (هى الخرنق بنت بدر بن هفان بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن على بن بكر بن وائل بن نزار بن معد بن عدنان وهي أخت طرفة بن العبد لامه وأمها وردة) . وجاء في تاج العروس (خرنق امرأة شاعرة قال أبو عبيدة هي بنت بدر بن هفان من بنى سعد بن ضبيعة رهط الاعشي) وقال في خزانة الادب وفي العباب للصاغاني وفي كتاب التصحيف للعسكري وشروح ابيات كتاب سيبويه والجمل (خرنق بنت هفان القيسية من بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على الخ) بحذف بدر وقالوا هى أخت طرفة بن العبد لامه . وقال يعقوب بن السكيت فى ابيات المعاني هي عمة طرفة بن العبد والله أعلم وقيس هو رهط الاعشى أيضا واليه ينسب فيقال أعشى قيس وخرنق من الاسماء المنقولة اه (قلت) ولا مشاحة في ان الاصح فى نسبها ماروى هنا في أول الديوان وذلك مما أيده أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة وكلاهما من مشاهير النسابين

(٢) هذا البيت من قصيدة ترثى بها زوجها عمرو بن مرثد وابنها علقمة بن عمرو واخويه حسان وشرحبيل وهي .

لا يبعدن قومى الذين همو * سم العداة وآفة الجزر

النازلون بكل معترك * والطيبون معاقد الازر

الضاربون بحومة نزلت * والطاعنون باذرع شعر

والخالطون لجينهم بنضارهم * وذوى الغنى منهم بذى الفقر

ان يشربوا يهبوا وان يذروا * يتواعظوا عن منطق الهجر

قوم اذا ركبوا سمعت لهم * لغطا من التأييه والزجر

من غير ما فحش يكون بهم * في منتج المهرات والمهر

هذا ثنائي ما بقيت لهم * فاذا هلكت أجنى قبري

روى صاحب الخزانة (٢:٣٠٧) وصاحب المقاصد النحوية (٣:٦٠٣) وامالى القالى

والظاهر أنها تريد من خلط اللجين بالنضار الكناية عن اختلاط الطبقات بعضها ببعض من جهة المكانة وأما اختلاط الغني بالفقير من افاضة الاغنياء على الفقراء حتى تم الجميع السعة فقد صرحت به في عجز البيت. ومثل هذا البيت قول عمرو بن الاطنابة أحد بني الخزرج .

والخالطين فقيرهم بغنيهم * والباذلين عطاءهم للسائل [1]

﴿ وقال حاتم ﴾

واني لعف الفقر مشترك الغنى * وتارك شكل لا يوافقه شكلي [2]

(٢ : ١٦٠) والخالطين نحيتهم بنضارهم قال في الخزانة النحيت الخامل الساقط الذكر والنضار الخالص النسب العزيز الشهير تقول انهم خالطوا خاملهم برفيعهم وفقيرهم بغنيهم فاكتسبوا منهم الغنى والخصال الحميدة والمحاسن الجميلة فليس فيهم خامل ولا فقير اه وفي لسان العرب (٢ : ٤٠٣ و٧ : ٧٠) قال النحيت الدخيل في القوم اه

(١) هذا البيت من قصيدة في كرم العرب وصفاتهم المحمودة وهي .

اني من القوم الذين اذ انتدوا * بدؤا بحق الله ثم النائل
المانعين من الخنا جاراتهم * والحاشدين على طعام النازل
والخالطين فقيرهم بغنيهم * والباذلين عطاءهم للسائل
الضاربين الكبش يبرق بيضه * ضرب المهجهج عن حياض الابل
والقائلين لدى الوغى أقرانهم * ان المنية من وراء الوائل
والقائلون فلا يعاب كلامهم * يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خزر عيونهم الى أعدائهم * يمشون مشي الاسد تحت الوابل
ليسوا بانكاس ولا ميل اذا * ما الحرب شبت اشعلوا بالشاعل

(٢) هذا البيت مطلع القصيدة وبعده

وشكلي شكل لا يقوم لمثله * من الناس الا كل ذي نيقة مثلي

﴿ وقال دريد بن الصمة فى النجدة عند الفزع ﴾

أعاذل انما أفني شبابى * ركوبي في الصريخ الى المنادى

﴿ وقال سلامة بن جندل التميمى ﴾

وقد نقدم في الهيجا اذا لقحت * يوم الحفاظ ونحمي كل مكروب
كنا اذا ما أتانا صارخ فزع * كان الصراخ له قرع الظنابيب

﴿ وقال ذو الاصبع العَدْواني ﴾ في جملة وصية لولده أسيد (واسمح بمالك. واحم حريمك . وأعزز جارك . وأعن من استعان بك . وأكرم ضيفك. وأسرع النهضة فى الصريخ فان لك أجلا لايعدوك . وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك) ثم قال من قصيدته في هذه الوصية

واذا دعيت الى المهم * م فكن لفادحه حمولا

﴿ وقال زهير بن أبى سلمى ﴾

اذا فزعوا طاروا الى مستغيثهم * طوال الرماح لاضعاف ولاعُزْل

ولى نيقة فى المجد والبذل لم تكن * تأنقها فيما مضى أحد قبلي
واجعل مالي دون عرضى جنة * لنفسى فاستغني بما كان من فضلى
ولى مع بذل المال والبأس صولة
اذا الحرب أبدت عن نواجزها العصل
وما ضر لى أن سار سعد بأهله * وافردني بالدار ليس مع أهلي
سيكفى ابتناى المجد سعد بن حشرج * واحمل عنكم كل ماحل من ازلي
وما من لئيم غاله الدهر مرة * فيذكرها الا استمال الى البخل

بخيلٍ عليها جِنّةٌ عبقرية * جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

كرمهم

ومما يتفرع عن المروءة « الكرم » وحسبك أيها الأديب الكريم انه رأس الفضائل وعنوان المحامد وغرة المناقب .

وايم الحق انه لمن أجلّ ما يتحلى به الانسان من حليّ المحسن . وأجمل ما يتسم به المرء من سمات النبل . وهو المشهور بانه الستار للعيوب . الغافر للذنوب ولعمري انه لعادة من أحسن العادات وأفضلها . وصفة من أجمل الصفات وأعظمها . اذ كل متخلق به يكون محبوبا من الناس مغبوطاً منهم لان النفس من طبيعتها ميالة الى من أحسن اليها راغبة في كل جواد كريم .

ولقد كانت هذه الميزة منتشرة في الأمة العربية انتشاراً زائداً وقل أن يوجد فيهم من يتصف بالبخل . ومن اتصف بهذه الخصلة الذميمة منهم فقد كان يضرب به المثل في اللؤم اذ لولا ذلك لما بقى اسم « مادر » البخيل المشهور يضرب به المثل عند المذلة والانتقاص كما يضرب المثل « بحاتم » الجواد المشهور عند المدح والثناء . وقد ملئت أشعارهم بذلك وفخروا بالكرم كثيراً حتى أن الواحد منهم ربما أدّي به كرمه الى الفاقة ويرى ذلك محمدة يشكر عليها ويخلد اسمه بها . ولا غرو فان هذا لا يحتاج الى بيان . ولا يعوّز الى اقامة دليل ولا برهان . فقد شهد لهم به الاودّاء والاعداء . واعترف لهم الاقربون والبعداء بانهم كانوا اذا ألمّ بهم ضيف حكموه على أنفسهم واستهانوا له ماوجدوه من نفيسهم وهذا شعرهم ينطق بما جبلوا عليه . ويعرب عما ألفوه وجنحوا اليه . وهو مما لا يمكن استيعابه فى هذا المقام . وأنى لنا الاحاطة بالبحر المحيط وقد

ضاقت عنه دوائر الافهام غير أن المعسور لا يسقط بالميسور . فلا بد من تحلية عاطل جيد هذا السفر المستطاب . ببعض من عقود نظام درر ذلك العباب . كما وعدناك في صدر هذا الكتاب .

﴿ قال عمرو بن الأهتم ﴾

ذريني فان الشح يا أم هيثم * لصالح أخلاق الرجال سروق
ذريني وحطى في هواى فانني * على الحسب الزاكى الرفيع شفيق
ذريني فانى ذو فعال تهمنى * نوائب يغشى رزؤها وحقوق
وكل كريم يتقى الذم بالقرى * وللحق بين الصالحين طريق
لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها * ولكن أخلاق الرجال تضيق

﴿ وقال قيس بن عاصم المنقري ﴾

انى امرؤ لا يعتري خلقي * دنس يفنده ولا أفن (١)
من منقر في بيت مكرمة * والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم * بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم * وهمو لحفظ جواره فطن

﴿ وقال سالم بن قحفان العنبرى ﴾

فلا تعذليني فى العطاء ويسرى * لكل بعير جاء طالبه حبلا (٢)

(١) يفنده أى يفحشه والافن ضعف العقل معناه انه شريف الخصال كريم الاخلاق نقي العرض ثابت العقل

(٢) من خبر هذه الابيات ان سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فاعطاه بعيراً من ابله وقال لامرأته هاتى حبلا يقرن به ما أعطيناه الي بعيره ثم أعطاه بعيرا آخر وقال هاتي

فانى لا تبكي عليّ إفالها * اذا شبعت من روض اوطانها بقلا
فلم أر مثل الابل مالا لمقتن * ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

﴿ وقال حاتم ﴾

وعاذلة قامت عليّ تلومني * كأني اذا اعطيت مالى أضيمها
أعاذل ان الجود ليس بمهلكى * ولا مخلد النفس الشحيحة لومها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامهُ * مغيبة في اللحد بال رميمها
ومن يبتدع ماليس من خيم نفسه * يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ولا يدري الانسان أيعجب من الأب أم من الابن أم من أمة توجد فيها أسرة توصف بهذه الأبيات.

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل * ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
وأفرد في شعب عجوزاً ازاءها * ثلاثة أشباح تخالهمو بهما
رأى شبحاً وسط الظلام فأمه * فلما رأي ضيفاً تشمر واهتما
فقال هيا رباه ضيف ولا قرى * بحقك لا تحرمه تي الليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة * هيا أبت اذبحني ويسر لهم طعما

حبلا ثم أعطاه ثالثا وقال هاتي حبلا فقالت مابقي عندي حبل فقال عليّ الجمال وعليك الحبال فرمت اليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فانشأ يقول (لاتعذليني في العطاء الى آخر الابيات) فاجابته امرأته .

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذي * تكفل بالارزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصدات أعدها * لها ماشي منها على خفه جمل
فأعط ولا تبخل لمن جاء طالبا * فعندى لها خطم وقد زاحت العلل

(الخطم جمع خطام وهو مايقاد به البعير وزاحت أى زالت)

ولا تعتذر بالعدم علّ الذي طرا * يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروّي قليلا ثم أحجم برهة * وان هو لم يذبح فتاه فقدّهما
فبينا هما عنّت على البعد عانة[١] * قد انتظمت من خلف مسحلها[٢] نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها * على انه منها الى دمها أظما
فامهلها حتى تروت عطاشها * وأرسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوص[٣] ذات جحش سمينة[٤] * قد امتلأت لحما وقد طبقت شحما
فيابشره اذا جرّها نحو قومه * ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى
وبات أبوهم من بشاشته أبا * لضيفهمو والأم من بشرها أما
وباتوا كراما قد قضوا حق جارهم * وما غرموا غرما وقد غنموا غنما

﴿ وقال النمري ويقال انها لرجل من باهلة ﴾

وداع دعا بعد الهدوء كأنما * يقاتل أهوال السرى وتقاتله[٥]
دعا بائسا شبه الجنون ومابه * جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه * بصوت كريم الجدّ حلو شمائله[٦]
فابرزت ناری ثم أثقبت ضوءها
وأخرجت كلبي وهو فى البيت داخله
فلما رآنى كبر الله وحده * وبشر قلبا كان جما بلابله
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا * رشدت ولم أقعد اليه أسائله

(١) عانة القطيع من حمر الوحش (٢) مسحل كنير حمار الوحش
(٣) نحوص الانثى من حمر الوحش (٤) أى لها ولد
(٥) الهدوء السكون والسري السير ليلا (٦) حلو شمائله أى اخلاقه كريمة

وقمت الى برك هجان أعـده * لوجبة حق نازل أنا فاعله[١]
بأبيض خطت فعله حيث ادركت * من الارض لم تخطل على حمائله[٢]
فجال قليلا واتقاني بخيره * سناما وأملاه من الني ء كاهله
بقرم هجان مصعب كان فحلها * طويل القرى لم يعد ان شق نازله[٣]
فخر وظيف القرم في نصف ساقه * وذاك عقال لا ينشط عاقله
بذلك أوصاني أبي وبمثله * كذلك أوصاه قديما أوائله

فانظر ايها الأديب الكريم الى ما حوته هذه الابيات . من ضروب أشرف المحاسن وأعلى الصفات . مما يدل على مكارم أخلاق العرب الفاضلة . وجليل صفاتهم الكامله . وهكذا فليكن من رغب في الحمد . وتصدى لنيل السعادة والمجد . لا اخلى الله الأرض من أمثال هؤلاء الكرام ولا زال والتحية وسلام .

ولقد كان لهم غير ما سردناه لك شعر كثير[٤] على هذا المسلك وكله

(١) البرك اسم جمع لما يبرك من الابل والهجان كرائم الابل ووجبة الحق أى نزوله

(٢) الابيض السيف ونعل السيف ما يكون في أسفل غمده من حديد أوغيره من المعادن ولم تخطل أى لم تضطرب ولم تطل وحمائل السيف علاقاته

(٣) القرم الجمل الشاب والمصعب الفحل الكريم الذى لا يبتذل في العوارض بل يقصر على الضراب . والقرى وشق نازله طلع سنه وذلك سن يطلع للجمال في السنة التاسعة من اعمارها .

(٤) شعر كثير فنه قول المقنع الكندى

نزل المشيب فاين تذهب بعده * وقد ارعويت وحان منك رحيل
كان الشباب خفيفة أيامه * والشيب محمله علىّ ثقيل

يدل على ما كان متنافسا فيه بين العرب من الصفات المحمودة وعلى ما كانوا عليه من الكرم والسخاء والسماحة . وقد قال النعمان لكسرى في وصف العرب بالسخاء « وأما سخاؤهم فان ادناهم رجلا الذي تكون عنده البكرة

ليس العطاء من الفضول سماحة * حتى تجود ومالديك قليل

(وقال آخر)

سأقدح من قدري نصيباً لجارتي * وان كان مافيها كفافاً على أهلي
اذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي * يكون قليلا لم تشاركه في الفضل

(وقال سوادة اليربوعي)

ألا بكرت ميّ عليّ تلومني * تقول الاأهلكت من أنت عائله
ذريني فان البخل لايخلد الفتى * ولايهلك المعروف من هو فاعله

(وقال النابغة الذبياني)

له بفناء البيت سوداء فخمة * تلقم أوصال الجزور العراعر
بقية قدر من قدور تورثت * لآل الجلاح كابرا بعد كابر
تظل الاماء يبتدرن قديحها * كما ابتدرت سعد مياه قراقر

(وقال العكلي)

أعاذل بكيني لاضياف ليلة * تزور القرى أمست بليلا شمالها
أعاذل مهلا لاتلمني ولا تكن * خفيا اذا الخيرات عدت رجالها
أري ابلي تجزي مجازي هجمة * كثير وان كانت قليلا افالها
مثاكيل ماتنفك أرحل جمة * ترد عليهم نوقها وجمالها

(وقالت حبيبة بنت عبد العزى العوراء)

ألى الفتى بر تلكأ ناقتي * فكسا مناسمها النجيع الاسود
اني ورب الراقصات الى منى * بجنوب مكة هديهن مقلد
أولي على هلك الطعام ألية * أبدا ولكنى أبين وأنشد

أو الناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزىء بالشربة فيعقرها له ويرضي أن يخرج عن دنياه كلها عما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر »

وصي بها جدي وعلمني أبي * نفض الوعاء وكل زاد ينفد
فاحفظ حميتك لاأبالك واحترس * لا تخرقه فارة أو جدجد
(الحميت زق السمن والجدجد طائر صغير شبه الجراد ينزل على الزق فيخرقه)

(وقال عروة بن الورد)

سلي الطارق المعتر يا أم مالك * اذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي انه أول القري * وأبذل معروفي له دون منكر

(وقال آخر)

وانا لمشاءون بين رحالنا * الى الضيف منا لاحف ومنيم
فذو الحلم منا جاهل دون ضيفه * وذو الجهل منا عن أذاه حليم

(وقال اياس بن الارت)

واني لقوّال لعافيّ مرحبا * وللطالب المعروف انك واجده
واني لممن يبسط الكف بالندي * اذ شنجت كف البخيل وساعده
لعمرك ما تدري أمامة أنها * ثني من خيال ما أزال أعاوده
فشقت على زكبي وعنت وكانني * وردت عليّ الليل قرنا أكابده

(وقال مسكين الدارمي)

كأن قدور قومي كل يوم * قباب الترك ملبسة الجلال
كأن الموقدين بها جمال * طلاها الزفت والقطران طالى
بأيديهم مغارف من حديد * أشبهها مقيرة الدوالى

(وقال حجر بن خالد يمدح النعمان بن المنذر)

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد * كمثل أبي قابوس حزما ونائلا
فساق المي الغيث من كل بلدة * اليك فاضحي حول بيتك نازلا

(ومما) يدل على مزيد كرم العرب وسخائهم انه كانت لهم نار تسمى نار القرى وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل وكانوا يوقدونها على الاماكن المرتفعة لتكون أشهر وربما أوقدوها بالمندلى الرطب (وهو عطر ينسب الى مندل وهى بلدة من بلاد الهند) ونحوه مما يتبخر به ليهتدي اليها العميان وهذه النار أجل سائر نيرانهم ولم تزل مذكورة على ألسنة شعرائهم ﴿قال أبو زياد الاعرابى الكلابى﴾ يصف بعض أجواد العرب

له نار تشب على يفاع * اذا النيران ألبست القناعا
ولم يك أكثر الفتيان مالا * ولكن كان أرحبهم ذراعا

﴿وقال آخر﴾

اني اذا خفيت نار لمرملة * ألقى بأرفع تل رافعا ناري
ذاك واني على جاري لذو حدب * أحنو عليه كما يحنى على الجار

فاصبح منه كل واد حللته * من الارض مسفوح المذانب سائلا
متى تمع يمنع الجود والبأس والتقى * وتصبح قلوص الحرب جرباء حائلا
فلا ملك مايدركنك سعيه * ولا سوقة مايمدحنك باطلا

(وقال آخر)

ومستنبح بعد الهدوء دعوته * بشقراء مثل الفجر ذاك وقودها
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا * بموقد نار محمد من برودها
نصبنا له جوفاء ذات ضبابة * من الدهم مبطانا طويلا ركودها
فان شئت أثويناك في الحي مكرما * وان شئت بلغناك أرضا تريدها

الى غير ذلك من الشعر الذي هو على هذا المسلك وما قدسردناه واف بالمرام وكاف بالمقصود.

﴿ وقال المرار الفقعسي ﴾

فيا ليت لا أخفي اذا الليل جنني ٭ سنا النار عن سار ولا متنور
فيا موقدي ناري ارفعاها لعلها ٭ تضيء لسار آخر الليل مقتر
وماذا علينا أن يواجه نارنا ٭ كريم المحيا شاحب المتحسر
اذا قال من أنتم ليعرف أهلها ٭ رفعت له باسمي ولم أتنكر
فبتنا بخير من كرامة ضيفنا ٭ وبتنا نزجي طعمه غير ميسر

﴿ وقال حاتم لغلامه ﴾

أوقد فان الليل ليل قرّ ٭ والريح ياموقد ريح صرّ
علّ يري نارك من يمرّ ٭ ان جلبت ضيفا فانت حرّ

﴿ وقال حماس بن ثامل ﴾

ومستنبح في لجّ ليل دعـــونه ٭ بمشبوبة في رأس صمد مقابل (١)
وقلت له اقبل فانك راشد ٭ وان على النار الندى وابن ثامل (٢)

وقد كانوا يقتنون الكلاب لأمور جليلة (منها) انها كانت تدل الاضياف على منازلهم بنباحها وكانوا يمدحونها على ذلك قال قائل منهم في مدح كلب له .

أوصيك خيراً به فان له ٭ خلائقا لا أزال أحمدها
يدل ضيفي عليّ في غسق الليل اذا النار نام موقدها

(١) المستنبح الذي يطلب نباح الكلاب ليهتدي بذلك في طريقه على مكان الضيافة ولج الليل معظم ظلمته وأصله المعظم الماء والمشبوبة النار المضرمة والصمد المكان المرتفع
(٢) راشد مهتد والندي الجود

﴿ وقال آخر ﴾

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه * ليسقط عنه وهو بالثوب معصم (١)
عوى في سواد الليل بعد اعتسافه * لينبح كلب أو ليفزع نوّم (٢)
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى * له عند اتيان المهبين مطعم
يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا * يكلمه من حبه وهو أعجم

﴿ وقال أيضاً ﴾

واذا أتانا طارق متنوّر * نبحت فدلته عليّ كلابي
وفرحن اذا أبصرنه يضربنه * من أنسها بشراشر الاذناب

وقد كان لعبهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فكان أهل الثروة والأجواد منهم فى شدة البرد وكلب الزمان ييسرون (أي يتقامرون) بالقداح وهى عشرة على جزور يجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً وسيأتى تفصيل ذلك فى محله ان شاء الله تعالى فاذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناس وعاشوا (وكانت) العرب تمدح بأخذ القداح وتعيب من لا ييسر وتسميه البَرَم (قال متمم بن نويرة) يرثى أخاه مالكا من قصيدة تقدم ذكرها .

ولا برما تهدى النساء لعرسه * اذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

(١) تستكشط أى تكشف ومعصم أي مستمسك والمعنى ورب ضال عن السبيل متمسك بثوبه لئلا تسقطه عنه الريح

(٢) الاعتساف الاخذ في الطريق على غير هداية والمعنى انه صوت بصوت شبيه بالعواء ليسمعه كلب فيجيبه فيهتدي بذلك في طريقه أو يتيقظ له قوم نيام فيتلقوه أو يرفعوا له نار الضيافة

﴿ وقال لبيد بن ربيعة العامري في معلقته ﴾

وجزور أيسار دعوت لحتفها * بمغالق متشابه أجسامها
ادعو بهن لعاقر أومطفل * بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما * هبطا تبالة مخصباً اهضامها
تهوي الى اطناب كل رزية * مثل البلية قالص اهدامها
ويكللون اذا الرياح تناوحت * جلحاً تمد شوارعا أيتامها

﴿ وقال العرندس في قوم من العرب ﴾

هينون لينون أيسار ذوو كرم * سوّاس مكرمة أبناء أيسار
ان يسئلوا الحق يعطوه وان خبروا * في الجهد أدرك منهم طيب أخبار
وان توددتهم لانوا وان شهموا * كشفت أذمار شر غير أشرار
فيهم ومنهم يعد المجد متلداً * ولا يعد نثا خزى ولا عار
لا ينطقون عن الفحشاء ان نطقوا * ولا يمارون ان ماروا باكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التي يسري بها الساري

والشعر في ذلك كثير وفي هذا القدر كفاية .

اشهر مشاهير

﴿ من ضرب بهم المثل في الكرم من الامة العربية في أطوار الجاهلية ﴾

﴿ حاتم الطائي ﴾ (١)

حاتم هذا كان جواداً مشهوراً وشاعراً مفلقا ولقد بلغ من اعجاب العرب به

(١) هو الذي ذكر في قول الشاعر
ان السماحة والمروءة والندي * في قبة ضربت على ابن الحشرج

انهم لم يغادروا حسنة مما يتفاخر به أهل الجاهلية الا وصفوه بها فقال ابن الاعرابي

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدى بن أبي اخزم واسمه هزومة بن ربيعة بن جرول بن ثعـل بن عمرو بن الغوث بن طيء . وقال ابن السكيت: انمـا سمي هزومة لانه شج أوشج . وانما سمى طيء طيئا واسمه جلهمة لانه أول من طوي المناهل وهو ابن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان . ويكنى حاتم أبا سفانة وأبا عدىّ . كنى بابنته سفانة وهي أكبر ولده وبابنه عدي بن حاتم * وقد أدركت سفانة وعدي الاسلام فاسلما :

(وحكي) عن علي كرم الله وجهه انه قال يوما . ياسبحان الله ماأزهد كثيرا من الناس في الخير عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا . فلو كنالا نرجو جنة ولا نخاف نارا ولا ننتظـر ثوابا ولا نخشى عقابا لـكان ينبغي لنا ان نطلب مـكارم الاخلاق فانها تدل على سبيل النجاة فقام رجل فقال : فداؤك أبي وأمي ياأمير المؤمنين اسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال نعم . وما هو خير منه . لما أتينابسبايا طيء كانت في النساء جارية حماء حوراء العينين لمساء لمياء عيطاء شماء الانف معتدلة القامة ردماء الـكعبين خدلجة الساقين خميصة الحصر ضامرة الـكشحين مصقولة المتنين فلما رأيتها أعجبت بها فقلت لاطلبنها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فيئى . فلما تـكلمت أنسيت جمالها لمـا سمعت من فصاحتها فقالت : يامحمد هلك الوالد . وغاب الوافد . فان رأيت ان تخلي عني فلا تشمت بي احياء العرب فاني بنت سيد قومى . كان أبي يفك العاني ويحمى الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المـكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط . انا بنت حاتم طيء . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ياجارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق والله يحب مكارم الاخلاق : (ولحاتم) قصيدة طويلة تتعلق بالـكرم ومكارم الاخلاق وهي:

وعاذلتين هبتا بعد هجعة * تلومان متـلافا مفيـداً ملوما
تلومان لمـاغور النجم ضلة * فتى لايرى الاتلاف في الحمد مغرما

« كان حاتم من شعراء العرب وكان جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله . وكان حيثما نزل عرف منزله . وكان مظفرا اذا قاتل غلب . واذا غنم أنهب . واذا سئل وهب واذا ضرب بالقداح فاز . واذا سابق سبق . واذا أسر أطلق . وكان يقسم أن لا يقتل واحد أمه . وكان اذا اهل الشهر الأصم الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية ينحر فى كل يوم عشراً من الأبل فأطعم الناس واجتمعوا اليه . فكان ممن يأتيه من الشعراء الحطيئة وبشر بن أبى خازم »

فقلت وقد طال العتاب عليهما * ولو عذرانى أن تبينا وتصرما
ألا لا تلومانى على ماتقدما * كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فانكما لا ما مضى تدركانه * ولست على مافاتنى متندما
فنفسك أكرمها فانك ان تهن * عليك فلن تلقى لك الدهر مكرما
أهن للذى تهوي التلاد فانه * اذا مت كان المال نهبا مقسما
ولا تشقين فيه فيسعد وارث * به حين تخشى أغبر اللون مظلما
يقسمه غنما ويشرى كرامة * وقد صرت في خط من الارض أعظما
قليل به مايحمدنك وارث * اذا ساق مما كنت تجمع مغنما
تحلم عن الادنين واستبق ودهم * ولن تستطيع الحلم حتى تحلما
متى ترق أضغان العشيرة بالانا * وكف الاذي يحسم لك الداء محسما
وما ابتعثتني في هواي لجاجة * اذا لم أجد فيها امامي مقدما
اذا شئت ناويت امرأ السوء مانزا * اليك ولاطمت اللئيم الملطما
وذواللب والتقوى حقيق اذارأي * ذوى طبع الاخلاق أن يتكرما
فجاور كريما واقتدح من زناده * وأسند اليه ان تطاول سلما
وعوراء قد أعرضت عنها فلم يضر * وذي أود قومته فتقوما
وأغفر عوراء الكريم ادخاره * وأصفح عن شتم اللئيم تكرما

وقد كان فوق ذلك عفيف النفس بعيدا عن الفحشاء والمنكر ويؤيد ذلك قوله .

اذا ما بتّ أشرب فوق ري * لسكر في الشراب فلا رويت
اذا مابت أختل عرس جاري * ليخفيني الظلام فلا خفيت
أأفضح جارتي وأخون جاري * معاذ الله أفعل ما حييت

وحاتم هو القائل لغلامه « يسار » وكان اذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد نارا في يفاع من الارض لينظر اليها من أضل الطريق ليلا فيصمد نحوه .

ولا أخذل المولى وان كان خاذلا * ولا أشتم ابن العم ان كان مفحما
ولا زادني عنه غناي تباعداً * وان كان ذا نقص من المال مصرما
وليل بهيم قد تسربلت هوله * اذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك حمدا ولا غنى * اذا هو لم يركب من الامر معظما
يري الخمص تعذيبا وان يلق شبعة * يبت قلبه من قلة الهم مبهما
لحي الله صعلوكا مناه وهمه * من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما
ينام الضحى حتى اذا ليله استوى * تنبه مثلوج الفؤاد مورما
مقيما مع المثرين ليس ببارح * اذا كان جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوك يساور همه * ويمضي على الاحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لايرى الخمص ترحة * ولا شبعة ان نالها عد مغنما
اذا ماراي يوما مكارم أعرضت * تيمم كبراهن ثمت صمما
ويغشى اذا ما كان يوم كريهة * صدور العوالى فهو مختضب دما
تري رمحه مع نبله ومجنه * وذا شطب عضب الضريبة مخذما
وأحناء سرج قاتر ولجامه * عتاد فتي هيجا وطرفا مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه * وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

أوقد فان الليل ليل قرّ * والريح يا واقد ريح صرّ
عل يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فأنت حر

﴿ومن حديثه﴾ أن ماوية امرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة فأذهبت الخف والظلف فبتنا ذات ليلة باشد الجوع فأخذ حاتم عديا وأخذت سفّانة فعللناهما حتى ناما ثم أخذ يعللني بالحديث لأنام فرفقت به لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أني نائمة فقال لى أنمت مرارا فلم أجبه فسكت ونظر من وراء الخباء فاذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة تقول يا أباسفانة قد أتيتك من عند صبية جياع ناموا فقال . احضريني صبيانك فوالله ما ناموا من الجوع الا بالتعليل فقام الى فرسه فذبحه . ثم أجج نارا ورفع اليها شفرة وقال اشتوي وكلي واطعمي ولدك وقال لى ايقظي صبيك فأيقظتهما ثم قال والله ان هذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصرم حالهم كحالكم فجعل يأتي الصرم بيتا بيتا ويقول عليكم النار فاجتمعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية فما أصبحوا حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ولم يذق منه شيئا . وأحاديث كرم حاتم كثيرة ومشهورة (١) وفي كتب الأدب والتاريخ

(١) وأحاديث كرم حاتم ومبالغته في الجود والسخاء كثيرة ومشهورة (منها) . ان أحد قياصرة الروم بلغته أخبار جود حاتم فاستغربها . وكان قد بلغه ان لحاتم فرسا من كرام الخيل عزيزة عنده فارسل اليه بعض حجابه يطلب منه الفرس هدية اليه وهو يريد ان يمتحن سماحته بذلك فلما دخل الحاجب ديار طيّ سأل عن منازل حاتم طيّ حتى دخل عليه فاستقبله أحسن استقبال ورحب به وهو لا يعلم أنه حاجب الملك وكانت المواشي في المرعى فلم يجد اليها سبيلا لقرى ضيفه فنحر الفرس وأضرم النار . ثم دخل على ضيفه يحادثه فأعلمه انه رسول قيصر قد حضر يستميحه الفرس فساء ذلك حاتما

مسطورة . ومن شعر حاتم قوله .

وعاذلة هبت بليل تلومني * وقد غاب عيوق الثريا فعرّدا
تلوم على اعطائي المال ضلة * اذا ضن بالمال البخيل وصرّدا
تقول ألاأمسك عليك فانني * أرى المال عندالمسكين معبدا
ذريني وحالي ان مالك وافر * وكل امرئ جار على ماتعودا
أعاذل لا آلوك الا خليقتي * فلا تجعلي فوقي لسانك مبردا
ذريني يكن مالي لعرضي جنة * يقي المال عرضي قبل ان يتبددا
أريني جوادا مات هزلا لعلني * أري ماترين أوبخيلا مخلدا
والافكفي ببعض لومك واجعلي * الى رأي من تلحين رأيك مسندا

وقال : هلا اعلمتني قبل الآن فاني قد نحرتها لك اذ لم أجد جزوراً غيرها . فعجب الرسول من سخائه وقال : والله لقد رأينا منك أكثر مما سمعنا .

(ومن حديثه) انه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بارض عنزة ناداه أسير لهم : يا أبا سفانة اكلني الاسار والقمل . قال : ويلك والله ما أنا في بلاد قومي وما معي شيء وقد أسأت بي اذ نوهت باسمي فساوم به العنزيين فاشتراه منهم فقال : خلوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أؤدّي فداءه ففعلوا فاتى بفدائه .

(ومن حديثه أيضاً) قضية قراه بعدموته وهي من العجائب . روي محرز مولى أبي هريرة قال مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم فنزلوا قريبا منه فقام اليه رجل يقال له ابو الخيبرى وجعل يركض برجله قبره ويقول اقرنا فقال له بعضهم ويلك مايدعوك ان تعرض لرجل قد مات . فقال ان طيا تزعم انه ما نزل به أحد الا قراه ثم اجنهم الليل وناموا فقام أبوالخيبري فزعا وهويقول (وارا حلتاه) فقالوا له مالك : قال اتاني حاتم في النوم وعقر ناقتي بالسيف وأنا انظر اليها ثم انشدني شعرا حفظته يقول فيه .

أبا الخيبرىّ وانت امرؤ * ظلوم العشيرة شتامها

ألم تعلمي أني اذا الضيف نابني * وعز القري أقرى السديف المسرهدا
أسود سادات العشيرة عارفا * ومن دون قومي في الشدائد مذودا
وألفى لاعراض العشيرة حافظا * وحقهمو حتى أكون المسودا
يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد * وما كنت لولا ماتقولون سيدا
كلوا الآن من رزق الاله وأيسروا * فان على الرحمن رزقكمو غدا
سأذخر من مالى دلاصا وسابحا * وأسمر خطيا وعضبا مهنداً
وذلك يكفيني من المال كله * مصوناً اذا ما كان عندي متلداً

﴿ وقال أيضا ﴾

ولما رأيت الناس هرت كلابهم * ضربت بسيفى ساق أفعى نخرت
فقلت لاصباه صغار ونسوة * بشهباء من ليل الثمانين قرت

أتيت بصحبك تبغي القرى * لدى حفرة قد صدت هامها
اتبغي لى الذم عند المبيت * وحولك طي وانعامها
فانا لنشبع أضيافنا * ونأتي المطي فنعتامها

فقاموا واذا ناقة الرجل تكوس عقيرا فانحروها وباتوا يأكلون وقالوا قرانا حاتم حياً وميتاً واردفوا صاحبهم وانطلقوا سائرين واذا برجل راكب بعيراً ويقود آخر قد لحقه وهو يقول أيكم ابو الخيبري . قال الرجل أنا . قال نخذ هذا البعير انا عدي بن حاتم جاءني حاتم في النوم وزعم أنه قراكم بناقتك وأمرني أن أحملك فشأنك والبعير ودفعه اليهم وانصرف . والى هذه القصة أشار ابن دارة الغطفاني في قوله يمدح عدى ابن حاتم

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل * لدن شب حتى مات في الخير راغبا
به تضرب الامثال في الشعر ميتاً * وكان له اذ ذاك حيا مصاحبا
قري قبره الاضياف اذ نزلوا به * ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

عليكم من الشطين كل ورية * اذا النار مست جانبيها ارمعلت
ولا ينزل المرء الكريم عياله * وأضيافه ما ساق مالا بضرّت

﴿وقال أيضا﴾

أكف يدي عن أن ينال التماسها * أكف صحابي حين حاجتنا معا
أبيت هضيم الكشح مضطمر الحشا * من الجوع أخشي الذم أن أتضلعا
واني لأستحيي رفيقي أن يرى * مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

ولحاتم أشعار جمة تدل على غزارة كرمه (١) وعلو أخلاقه. وتوفى حاتم

---

(١) أشعار جمة تدل على غزارة كرمه وعلو أخلاقه (منها) قوله

أماويّ قد طال التجنب والهجر * وقد عذرتني من طلابكم العذر
أماوي ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الاحاديث والذكر
أماويّ اني لا أقول لسائل * اذا جاء يوما حل في مالنا نزر
أماويّ اما مانع فبين * واما عطاء لاينهنهه الزجر
أماويّ مايغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر
اذا أنا دلاني الذين أحبهم * لملحودة زلج جوانبها غبر
وراحوا عجالا ينفضون أكفهم * يقولون قد دلى أناملنا الحفر
أماويّ ان يصبح صداي بقفرة * من الارض لا ماء هناك ولا خمر
ترى أن ما أهلكت لم يك ضرني * وأن يدى مما بخلت به صفر
أماويّ اني رب واحد أمه * أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الاقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر
واني لا آلو بمال صنيعة * فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العاني ويؤكل طيبا * وما ان تعريه القداح ولا الخمر

عام (٦٠٥ م) ودفن في عوارض وهو جبل لطيء ولم يمت حتى ذاع صيته في الآفاق وكادت شهرته أن تصل السبع الطباق وضربت به الامثال ولهجت به الشعراء . *(قال بعضهم)* :

وحاتم طي ان طوى الموت جسمه * فنشر اسمه في الجود عاش مخلدا

﴿هرم بن سنان المري﴾

كان هذا الرجل من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم في الاحسان والمعروف وهو ممن يضرب به المثل في ذلك وهو صاحب زهير بن أبي سلمى الذى يقول فيه .

متى تلاق على علاته هرما * تلق السماحة في خَلق وفي خُلق

ولا أظلم ابن العمان كان اخوتي * شهودا وقد أودي باخوته الدهر
عنينا زمانا بالتصعلك والغني * كما الدهر في أيامه العسر واليسر
كسبنا صروف الدهر لينا وغلظة * وكلا سقاناه بكاسهما الدهر
فما زادنا بأوا على ذى قرابة * غنانا ولا أزري باحسابنا الفقر
فقدما عصيت العاذلات وسلطت * على مصطفى مالى أناملى العشر
وماضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمى * يجاورني أن لا يكون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة * وفي السمع مني عن حديثهم وقر

(وقال أيضاً)

وقائلة أهلكت بالجود مالنا * ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعيني انما تلك عادتي * لكل كريم عادة يستعيدها

(وقال أيضاً)

تنوط لنا حب الحياة نفوسنا * شقاء ويأتي الموت من حيث لا ندرى
متي ما يجيء يوما الى المال وارثي * يجد جمع كف غير ملاى ولا صفر
يجد فرسا مثل العنان وصارما * حساما اذا ما هز لم يرض بالهبر

وكان سنان أبو هرم سيد غطفان ماتت أمه وهي حامل به وقالت اذا نامت فشقوا بطني فان سيد غطفان به فلما ماتت شقوا بطنها واستخرجوا منه سنانا وفي بني سنان يقول زهير .

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم * طابوا وطاب من الأولاد ماولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن اذا فزعوا انس اذا أمنوا * مُرَزَّؤن بهاليل اذا قصدوا
مُحَسَّدون على ما كان من نعم * لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

﴿ وقال زهير أيضاً فى هرم بن سنان ﴾

وابيض فياض يداه غمامة * على معتفيه ماتغب فواضله (١)
تراه اذا ماجئته متهللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وأسمر خطيا كأن كعوبه * نوي القسب قد أرمى ذراعا على العشر
واني لاستحي من الارض ان أري * بها الناب تمشي فى عشياتها الغبر
وعشت مع الاقوام بالفقر والغني * سقاني بكاسي ذاك كلتاهما دهرى

(وقال أيضاً)

قدورى بصحراء منصوبة * وما ينبح الكلب أضيافيه
وان لم أجد لنزيلي قرى * قطعت له بعض أطرافيه

(وقال أيضاً)

ولا أزرّف ضيفي ان تأويني * ولا أدانى له ماليس بالداني
له المؤاساة عندى ان تأويني * وكل زاد وان أبقيته فانى

(١) معتفيه أي قاصده ليسأله . ماتغب أى لاتنقطع .

أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله * ولكنه قد يتلف المال نائله[١]

﴿وقال زهير بن سلمى فيه أيضاً﴾

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ * ـكن الجواد على علاته هرم
هو الجواد الذى يعطيك نائله * عفوا ويظلم أحيانا فيظلم

ولزهير هذا أشعار كثيرة[٢] فى مدح هرم بن سنان وكرمه ﴿وقد وفدت﴾ ابنة هرم على سيدنا عمر بن الخطاب رضى تعالى عنه فقال لها : ما كان الذى أعطى أبوك زهيرا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه . فقالت : أعطاه خيلا تنضى . وابلا تتوى . وثيابا تبلى . ومالا يفنى . فقال عمر : لكن ما اعطاكم

(١) ابان هنا ان جود هرم كان صادرا عن طيب فطرته لا عن سورة الخمر وهذا على مايقول كثير من شاربيها أنها تحمل على الكرم . والرأي الواضح فيها قول بعض الفضلاء

والراح كالريح ان مرت على عطر * تذكو وتخبث ان مرت على الجيف

(٢) أشعار كثيرة (منها) قوله .

دع ذا وعد القول في هرم * خير الكهول وسيد الحضر
لو كنت من شيء سوى بشر * كنت المنور ليلة البدر
ولانت أوصل من سمعت به * لشوابك الارحام والصهر
ولنعم حشو الدرع أنت اذا * دعيت نزال ولج في الذعر
وأراك تفرى ما خلقت وبعـ * ـض القوم يخلق ثم لا يفري
أثني عليك بما علمت وما * أسلفت في النجدات من ذكر
والستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

(وقال زهير أيضاً)

قد جعل المبتغون الخير من هرم * والسائلون الى أبوابه طرقا
من يلق يوما على علاته هرما * يلق السماحة فيه والندى خلقا

زهير لا يبليه الدهر . ولا يفنيه العصر (ويروى) أنها قالت : ما أعطى هرم زهيرا قد نسى . فقال عمر . لكن ما أعطا كم زهير لا ينسى .

﴿ومن حديث هرم﴾ انه كان قدحلف أن لا يمدحه زهير الا أعطاه ولا يسأله الا اعطاه ولا يسلم عليه الا أعطاه عبدا أو وليدة أو فرسافاستحيا مما كان يقبل منه فكان اذا رآه في ملأ قال (عموا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت) وروى (وخيركم تركت)

﴿ كعب بن مامة الايادى ﴾

كان هذا الرجل ممن يضرب بهم المثل أيضا فى الجود والكرم .

﴿ومن حديثه﴾ انه خرج فى ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجر [1] فضلوا فتصافنوا ماءهم وهوان يطرح فى القعب حصاة ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة . وتلك الحصاة هى المقلة فيشرب كل انسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فلما دار القعب وانتهى الى كعب أبصر النمري يحدد النظر اليه فآثره كعب بمائه وقال للساقى : « اسق أخاك النمري » فشرب

(وقال أيضاً فيه وفي أهل بيته)

اليك أعملتها فتلا مرافقها * شهرين يجهض من أرحامها العلق
حتي دفعن الى حلو شمائله * كالغيث تنبت في آثاره الورق
من أهل بيت برى ذو العرش فضلهم * يبني لهم في جنان الخلد مرتفق
المطعمين اذا ما آزمة أزمت * والطيبين ثيابا كلما عرقوا
ان قامروا اقمروا أو فاخروا فخروا * أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا
تنافس الارض موتاهم اذا دفنوا * كما تنفس عند الباعة الورق

(١) ناجر هو شهر صفر وقد ذكر في قول الشاعر
صبحناهمو كأسا من الموت مرة * (بناجر) حتي اشتد حر الودائق

النمري نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر اليه النمري كنظره أمس . فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم وقالوا (لكعب وهو مشرف على الهلاك من شدة الظمأ) يا كعب انك وراد . فعجز عن الجواب فلما يئسوا منه خيموا عليه بثوب يمنعه من الوحوش أن تأكله وتركوه مكانه فقاض . فقال أبو دؤاد الايادى [1] يرثيه :

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ * خمراً بماء اذا ناجودها بردا

---

(١) أبو دؤاد الايادي . قال بعضهم هو جارية بن الحجاج . وقال الاصمعي هو حنظلة ابن الشرقي الايادي . كان شاعراً مجيداً جاراً لكعب بن مامة الايادي الذى آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمرى فمات عطشا فضرب به المثل في الجود وبلغه عنه شيء فقال .

وأتاني تقحيم (كعب) لى المنـطق ان التكيئة الاقحام

في نظام ما كنت فيه فلابجـ * زنك قول لكل حسناء ذام

ولقد رأى ابن عمى (كعب) * انه قد يروم ما لا يرام

غير ذنب بنى كنانة منى * ان أفارق فانني مجذام

(وفيها يقول)

لا أعد الاقتار عدما ولكن * فقد من قد رزئته الاعدام

من رجال من الاقارب بادوا * من حذاق هم الرؤس العظام

فيهم للملاينين أناة * وعرام اذا يراد عرام

فعلى أثرهم تساقط نفسي * حسرات وذكرهم لى سقام

(وكانت) لابي دؤاد الايادى امرأة يقال لها أم حبتر يقول فيها .

في ثلاثين زعزعتها حقوق * أصبحت أم حبتر تشكوني

زعمت لي بانني أفسد الما * ل وأزويه عن قضاء ديوني

أملت أن أكون عبداً لمالى * وبهابها مع المال دوني

وهي طويلة . ولها يقول وقد عاتبته على سماحته بماله فلم يعتبها فصرمته .

من ابن مامة كعب ثم عيّ به * زوُّ المنيـة الا حرة وقدا[1]
أوفى على الماء كعب ثم قيـل له * رد كعب انـك ورّاد فما وردا

﴿ وفيه يقول حبيب ﴾

يجود بالنفس اذ ضنّ البخيل بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

﴿ واليه والى حاتم أشار الشاعر ﴾

كعب وحـاتم اللـذان تقسما * خطط العلا من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا * فى الجهد ميتة خضرم صنديد
الا يكن فيها الشهيد فقومـه * لا يسمحون به بألف شهيد

﴿ عبد الله بن حبيب العنبرى ﴾

كان ابن حبيب هذا ممن يضرب بهم المثل فى الجود فيقولون أقرى

حاولت حين صرمتنى * والمرء يعجز لا محاله
والدهر يلعب بالفتى * والدهر أروغ من ثعاله
والمرء يكسب ماله * والشح يورثه الكلاله
والعبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه المقاله
والسكت خير للفتى * فالحين من بعض المقاله

(ومن أمثاله السائرة من شعره قوله)

أكل امريء تحسبين امرأ * ونار تأجج بالليل نارا

وكانت اياد تفخر على العرب بقولها (منا أجود الناس كعب بن مامـة ومنا أشعر الناس أبو دؤاد)

(١) عي به أي عيت الاحداث الا أن تقتله عطشا . وزو المنية قدرها . وقال الاصمعي زو المنيـة ما يحدث من هلاك المنية . ويقال الزو القدر يقال قضي علينا وقدر وحم وزي وهذا أكثر .

من آكل الخبز وهو أحد بني سمرة . سمى آكل الخبز لانه كان لا يأكل التمر ولا يرغب فى اللبن . وكان سيد بني العنبر فى زمانه . وهم اذا فخروا قالوا منا آكل الخبز . ومنا مجير الطير[1] (وأما) السبب فى تلقيبهم عبد الله بن حبيب بآكل الخبز فلأن الخبز نفسه عندهم كان ممدوحا . وذكر ابو عبيدة ان هوذة بن على الحنفى دخل على كسرى ابرويز . فقال له : أى أولادك أحب اليك . قال الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يبرأ قال ما غذاؤك ببلدك قال الخبز فقال كسرى هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر . فصار الخبز عندهم ممدوحا كما صار ما يناسبه بعض المناسبة ممدوحا وهو الفالوذ[2] لأنه أشرف طعام وقع اليهم ولم يطعم الناس هذا الطعام أحد من العرب الا عبد الله بن جدعان الجواد المشهور فمدحه أبو الصلت بذلك فقال .

* دع ما يناسبه كل المناسبة *

أعني الثريد وهو فى أشرافهم عام وأول من هشم الثريد عمرو العلا الملقب بهاشم وهو جد النبي صلى الله عليه وسلم وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه فمدح به فى قول الشاعر .

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

قال حمزة فهذا المثل مع ما يتلوه حكاه عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه الموسوم بكتاب (أطعمة العرب)

﴿ أوس بن حارثة بن لأم الطائى ﴾

كان أوس ممن يضرب به المثل فى الكرم والجود . ويقال له ابن سعدي

(١) مجير الطير هو ثور بن شحمة العنبر .

(٢) الفالوذ ضرب من الحلواء وهو الذي يؤكل ويسوى من لب الحنطة فارسى معرب

﴿ قال الشاعر المفلق ﴾ .

وما كعب بن مامة وابن سعدي * بأجود منك يا عمر الجوادا[(١)]

وكان بشر بن أبي خازم الأسدى أولا يهجو أوسا[(٢)] وكان أوس نذر

قال يعقوب ولا يقال الفالوذج اه لسان العرب

(١) هذا البيت من قصيدة جرير التى مدح فيها عمر بن عبد العزيز (ومنها) .

يعود الفضل منك على قريش * وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد أمنت وحشهمو برفق * ويعيي الناس وحشك أن تصادا
وتبنى المجد ياعمر بن ليلي * وتكفى الممحل السنة الجمادا
وتدعو الله مجتهداً ليرضي * وتذكر في رعيتك المعادا
وما كعب بن مامة وابن سعدى * بأجود منك ياعمر الجوادا
تعود صالح الاخلاق اني * رأيت المرء يلزم ما استعادا

(٢) يهجو أوسا. وسبب هجاء بشر لاوس ما حكاه أبو العباس المبرد فى الكامل قال : أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيداً مقدّما. وفد هو وحاتم بن عبد الله الطائي على عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء فدعا أوسا فقال له : أأنت أفضل أم حاتم فقال أبيت اللعن لوملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة. ثم دعا حاتما فقال : أأنت أفضل أم أوس فقال أبيت اللعن انما ذكرت بأوس ولأحد ولده أفضل

(وكان) النعمان بن المنذر دعا بحلة وعنده وفود العرب من كل حي فقال احضروا في غد فاني ملبس هذه الحلة أكرمكم فحضر القوم الا أوسا فقيل له لم تتخلف فقال ان كان المراد غيري فأجمل الاشياء أن لا أكون حاضرا وان كنت المراد فسأطلب ويعرف مكاني فلما جلس النعمان لم ير أوسا فقال اذهبوا الى أوس فقولوا له احضر آمنا فحضر فألبسه الحلة فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئة اهجه ولك ثلثمائة ناقة فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلا لا أري في بيتي أثاثا « متاع المنزل » ولامالا الا من عنده ثم قال

كيف الهجاء ومانفك صالحة * من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

لئن ظفر به ليحرقنه فلما تمكن منه أطلقه وأحسن اليه فمدحه بعدة قصائد ·

فقال لهم بشر بن أبي خازم أحد بني أسد بن خزيمة أنا أهجوه لكم فأخذ الابل وفعل · فأغار أوس على الابل فاكتسحها فجعل لا يستجير حياً الا قال قد أجرتك الامن أوس وكان في هجائه اياه قد ذكر أمه فأتى به فدخل أوس على أمه فقال : قد أتينا ببشر الهاجي لك ولي فما ترين فيه فقالت له : أوتطيعني فيه : قال نعم · قالت أرى ان ترد عليه ماله · وتعفو عنه · وتحبوه · وأفعل مثل ذلك · فانه لا يغسل هجاءه الا مدحه فخرج اليه فقال ان أمي سعدى التي كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا · فقال : لاجرم والله لامدحت حتى أموت أحداً غيرك ففيه يقول ·

الى أوس بن حارثة بن لأم * ليقضي حاجتي فيمن قضاها

فما وطئ الثرى مثل ابن سعدي * ولا لبس النعال ولا احتذاها

هذا ماسرده المبرد ولم يذكر أني تمكن منه أوس · وقد حكاه معمر بن المثنى في شرحه قال · ان بشر بن أبي خازم غزا طيئا ثم بنى نبهان فجرح فأثقل جرحه وهو يومئذ يحمى أحد أصحابه وانما كان في بني والبة فأسره بنو نبهان فخبؤه كراهية ان يبلغ أوسا فسمع أوس أنه عندهم فقال والله لا يكون بيني وبينهم خير أبدا أو يدفعوه الي ثم أعطاهم مائتي بعير وأخذه فجاء به وأوقد نارا ليحرقه · وقال بعض بني أسد لم تكن ناراً ولكنه أدخله في جلد بعير حين سلخه · ويقال جلد كبش · ثم تركه حتي جف عليه فصار فيه كأنه العصفور فبلغ ذلك أمه سعدى بنت حصين الطائية وهي سيدة فخرجت اليه فقالت : ماتريد أن تصنع · فقال : احرق هذا الذى شتمنا · فقالت : قبح الله قوما يسودونك ويقتبسون من رأيك · والله لكانما أخذت به · أما تعلم منزلته فى قومه · خل سبيله وأكرمه · فانه لايغسل عنك ماصنع غيره · فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه ما كان يريد أن يصنع وقال ابعث الى قومك يفدونك فانى قد اشتريتك بمائتى بعير فأرسل بشر الى قومه فبعثوا له الفداء وبادرهم أوس فاحسن كسوته وحمله على نجيبه الذي كان يركبه وسار معه حتى اذا بلغ أدني غطفان وجعل بشر يمدح أوسا وأهل بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة فهجاهم بخمس ومدحهم بخمس · اهـ

﴿هاشم بن عبد مناف (١)﴾

هو عمرو العلا الملقب بهاشم وهو جد نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. كان هذا الرجل جواداً مشهوراً يضرب به المثل فى الكرم والسخاء. وهو أول من هشم الثريد وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه فمدح به كما ذكرنا لك فيما تقدم فى قول الشاعر.

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

(١) هاشم بن عبد مناف لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف حسده أمية بن أخيه وتكلف أنه يصنع كما يصنع هاشم فعجز فعيرته قريش وقالوا له أتتشبه بهاشم ثم دعا هاشما للمنافرة فأبي هاشم ذلك لسنه وعلو قدره فلم تدعه قريش فقال هاشم لأمية أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة والجلاء عن مكة عشر سنين فرضي أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان فخرج كل منهما في نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم. « والقمر الباهر. والكوكب الزاهر. والغمام الماطر وما بالجو من طائر. وما اهتدى بعلم مسافر. من منجد وغائر. لقد سبق هاشم أمية الى المفاخر » فنصر هاشم على أمية فعاد هاشم الى مكة ونحر الابل وأطعم الناس وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية وتوارث ذلك بنوهما.

وكان يقال لهاشم واخوته عبد شمس والمطلب ونوفل أقداح النضار « الذهب » ويقال لهم المجبرون لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب. وفيهم يقول الشاعر.

قل للذى طلب السماحة والندي * هلا مررت بآل عبد مناف

الرائشون وليس يوجد رائش * والقائلون هلم للاضياف

(وعن) بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله تعالي عنه على باب بني شيبة فمر رجل وهو يقول:

وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السقاية والرفادة فكان يعمل الطعام للحجاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ويقال لذلك الرفادة . واتفق أنه أصاب الناس سنة جدب شديد فخرج هاشم الى الشام « وقيل بلغه ذلك بغزة من الشام » فاشترى دقيقاً وكعكا وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريداً وأطعم الناس حتى أشبعهم فسمى بذلك هاشما. وكان اذ هلّ هلال ذى الحجة قام صبيحته وأسند ظهره الى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته .

(يا معشر قريش انكم سادة العرب أحسنها وجوها . وأعظمها أحلاما « عقولا » وأوسطها « أشرفها » أنسابا . وأقرب العرب بالعرب أرحاما . يا معشر قريش انكم جيران بيت الله تعالي . أكرمكم الله تعالى بولايته . وخصكم بجواره دون بنى اسماعيل. وانه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم. فأكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون شعثا

يا أيها الرجل المحول رحله * ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم * منعوك من عدم ومن اقتار

فالتفت رسول الله صلي الله عليه وسلم الي أبي بكر رضى الله تعالى عنه فقال أهكذا قال الشاعر قال لا والذى بعثك بالحق ولكنه قال .

يا أيها الرجل المحوّل رحله * ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم * منعوك من عدم ومن اقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم * حتي يعود فقيرهم كالكافي
ويكللون جفانهم بسديفهم * حتى تغيب الشمس بالرجاف
منهم عليّ والنبيّ محمد * القائلان هلم للاضياف

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه .

غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح. فأكرموا ضيفه وزوار بيته. فورب هذه البنية لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله مالم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم الا طيبا لم يؤخذ ظلما ولم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصبا) فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة * وقد لهجت بهاشم وبغزارة كرمه العرب كثيراً في أشعارها ﴿ قال بعضهم ﴾ .

وأطعم فى المحل « عمرو العلا » * فللمستنين به خصب عام

﴿ وقال أيضا ﴾

« عمرو العلا » ذو الندى من لا يسابقه * مرّ السحاب ولا ريح تجاريه
جفانه كالجوابي للوفود اذا * لبوا بمكة ناداهم مناديه
أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت * قوتا لحاضره منهم وباديه

﴿ عبد الله بن جدعان[1] ﴾

كان هذا الرجل من مشاهير الأجواد . وممن سارت بجوده الأمثال

(١) عبد الله بن جدعان تيمي يكني أبا زهير وهو ابن عم عائشة رضي الله تعالى عنها ولذلك قالت يارسول الله ان ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة قال صلى الله عليه وسلم لا . انه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين كذا قاله السهيلى في روض الانف . وفى كتاب ري العاطش وأنس الواحش لاحمد بن عمار ان ابن جدعان ممن حرم الخمر في الجاهلية بعد أن كان بها مغرى . وذلك

فى الأقطار والبلاد . وكان يسمى بجاسى الذهب لأنه كان يشرب في إناء من ذهب وقالوا في المثل (أقرى من جاسى الذهب) وكان من قريش ومدحه أمية بن أبى الصلت الثقفى بقوله .

له داع بمكة مُشْمَعِلٌّ * وآخر فوق دارته ينادي
الى رُدُحٍ من الشيزى ملاء * لباب البر يلبك بالشهاد[1]

وأخبار ابن جدعان في الجود والكرم كثيرة[2] وقد ذكر طرفا منها

أنه سكر ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه فأخبر بذلك حين صحا فحلف ان لا يشربها أبدا فلما كبر وهرم أراد بنوتيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه في العطاء فكان يدعو الرجل فاذادنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له قم فانشد لطمتك واطلب ديتها فاذافعل ذلك أعطته بنوتيم من مال ابن جدعان اه

(١) الردحة سترة تكون في مؤخر البيت أوقطعة تزادفيه والرداح الجفنة العظيمة وروى الجوهرى المصراع الاول من هذا البيت هكذا « الى ردح من الشيزي عليها» والشيز والشيزي خشب أسود يتخذ منه القصاع . وقوله لباب البر أى من لباب البر

(٢) وأخبار ابن جدعان في الجود والكرم كثيرة (منها)

ان أمية بن أبي الصلت قدم عليه فلما دخل عليه قال له عبد الله بن جدعان أمرما أتى بك فقال أمية كلاب غرماء نبحتني ونهشتني فقال له عبد الله قدمت عليّ وأناعليل من حقوق لزمتني ونهشتني فانظرني قليلا مافي يدي وقد ضمنتك قضاء دينك ولا أسأل عن مبلغه فأقام أمية أياما فأتاه فقال .

أأذكرحاجتي أم قد كفاني * حياؤك ان شيمتك الحياء
وعلمك بالامور وأنت قرم * لك الحسب المهذب والسناء
كريم لايغيره صباح * عن الخلق السني ولامساء
تبارى الريح مكرمة ومجداً * اذا ما الضب أجحره الشتاء
اذا أثني عليك المرء يوما * كفاه من تعرضك الثناء

الزبير بن بكار في كتابه (فضائل قريش) — ومن خبره أنه كان في ابتداء أمره صعلوكا ترب اليدين وكان مع ذلك شريرا فاتكا لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يأويه أبدا فخرج هائما في شعاب مكة حائرا نائرا يتمنى الموت أن ينزل به فرأى شقا في جبل فظن ان

اذا خلفت عبد الله فاعلم * بأن القوم ليس لهم جزاء
فأرضك كل مكرمة بناها * بنو تيم وأنت لهم سماء
فابرز فضله حقا عليهم * كما برزت لناظرها السماء
فهل تخفي السماء على بصير * وهل بالشمس طالعة خفاء

فلما أنشده أمية هذا الشعر كانت عنده قينتان فقال خذ أيتهما شئت فأخذ احداهما وانصرف فمر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها وقالوا له لقد لقيته عليلا فلو رددتها عليه فان الشيخ يحتاج الى خدمتها كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حق ضمنه لك فوقع الكلام من أمية موقعا وندم فرجع اليه ليردها عليه فلما أتاه بها قال ابن جدعان لعلك انما رددتها لان قريشا لاموك على أخذها وقالوا كذا وكذا فوصف لأمية ماقال له القوم فقال أمية والله ماأخطأت ياأبازهير فقال ابن جدعان فما الذى قلت في ذلك فقال أمية .

عطاؤك زين لامرئ ان حبوته * ببذل وماكل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه * اليك كما بعض السؤال يشين

فقال عبد الله لأمية خذ الاخرى فأخذهما جميعا وخرج فلما صار الى القوم بهما أنشا يقول

ومالى لا أحييه وعندي * مواهب يطلعن من النجاد
لأبيض من بني تيم بن كعب * وهم كالمشرفيات الحداد
لكل قبيلة هاد ورأس * وأنت الرأس تقدم كل هادي
له باجُيْف قد علمت معد * وان البيت يرفع بالعماد

فيه حية فتعرّض للشق يريد أن يكون ما يقتله فيستريح فلم ير شيئاً فدخل فيه فاذا به ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراجين فلما قرب منه حمل عليه الثعبان فخرج له فانساب (أي رجع) عنه مستديراً بدارة عند البيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان فأقبل اليه فقام اليه كالسهم فخرج فانساب عنه فوقف ينظر اليه ويفكر في أمره فوقع في نفسه أنه مصنوع فأمسكه بيديه فاذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فاذا جثث طوال لم ير مثلهم طولا وعظماً وعند رؤسهم لوح من فضة فيه تاريخهم واذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً الحارث بن مضاض صاحب العذبة الطويلة واذا عليهم ثياب من وشي لا يمس منها شيء الا انتثر هباءً من طول الزمان مكتوب في اللوح عظات (وقال) ابن هشام كان اللوح من رخام وكان منقوشاً فيه «أنا نفيلة ابن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبي الله هود عليه الصلاة والسلام عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غور الأرض ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجيني من الموت» وتحته مكتوب .

قد قطعت البلاد في طلب الثر * وة والمجد قالص الأثواب

له داع بمكة مشمعلّ * وآخر فوق دارته ينادي
الى ردح من الشيزى ملاء * لباب البر يلبك بالشهاد

(وقال فيه أيضاً)

ذكر ابن جدعان بخيـ * ـر كلما ذكر الكرام
من لا يخون ولا يعق * ولا تغيره اللئام
يجب النجيبة والنجيـ * ـب له الرحالة والزمام

وسريت البلاد قفرا لقفر * بقناة وقوة واكتساب
فأصاب الردى بنات فؤادى * بسهام من المنايا صياب
فانقضت مدتى وأقصر جهلى * واستراحت عواذلى من عتابى
ودفعت السفاه بالحلم لما * نزل الشيب فى محل الشباب
صاح هل رايت أوسمعت براع * ردّ فى الضرع ماقرى فى الحلاب

واذا فى وسط البيت أموال عظيمة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفضة فأخذ منه ماأخذ وعلم الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل الى أبيه بالمال الذى خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف. وفى القاموس وربما كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم طعامه . وكانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير وسقط فيها صبي فغرق ومات. — وفى غريب الحديث لابن قتيبة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كنت أستظلّ بظلّ جفنة عبد الله بن جدعان صكّة عُميٍّ» يعني فى الهاجرة (١)

قيس بن سعد

كان هذا الرجل أيضا من أسخياء العرب وأجوادهم قيل له يوما هل

(١) سميت الهاجرة صكة عمى لخبر ذكره أبو حنيفة فى الأنوار وهو أن عميا رجل من عدوان وقيل من اياد . وكان فقيه العرب في الجاهلية فقدم في قومه معتمرا أوحاجا فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في وسط الظهيرة من أتى مكة غدا في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا الابل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغداة وعمي تصغير أعمى على الترخيم فسميت الظهيرة صكة عمى .

رأيت قط أسخى منك : قال نعم . نزلنا بالبادية على امرأة فحضرها زوجها فقالت له انه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها وقال شأنكم فقلت ما أكلنا من التي نحرت البارحة الا القليل فقال اني لا أطعم أضيافي الغاب فأقمنا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا في بيته مائة دينار وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه ومضينا فلما متع النهار اذا رجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن القرى ثم انه لحقنا وقال : لتأخذنها والا طعنتكم برمحي فأخذناها وانصرف.

فلينظر الأديب الى كرم هذا الرجل الجليل فلله دره. ولا زالت مآثر العرب تتلى على مدى الدهور . وكرّ الأزمنة والعصور .

﴿ أزواد الركب ﴾

قال ابن بكار في أنساب قريش . (كان أزواد الركب من قريش ثلاثة ﴿الأول﴾ مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس . ﴿الثاني﴾ زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى . ﴿الثالث﴾ أبو أمية بن المغيرة ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . سموا بذلك لأنهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم أحد . ولم يسم بذلك من عرب الجاهلية غير هؤلاء الثلاثة * وكان عند أبي أمية بن المغيرة أربع عواتك . عاتكة بنت عبد المطلب وهي أم زهير وعبد الله وهو الذي قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » وعاتكة بنت جذل الطعان . وهي أم أم سلمة والمهاجر . وعاتكة بنت عتبة ابن ربيعة . وعاتكة بنت قيس من بني نهشل ابن دارم التميمية) اهـ

وأخبار هؤلاء الثلاثة كثيرة. وما ورد فيهم من الشعر في مدحهم أكثر والمقام لا يسع ذلك (وكان) أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم زوج أخته عاتكة بنت عبد المطلب خرج تاجراً الى الشام فمات بموضع يقال له « سرو سحيم » فقال أبو طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات يرثيه بها .

ألا ان زاد الركب غير مدافع * بسرو سحيم غيبته المقابر
بسرو سحيم عارف ومناكر * وفارس غارات خطيم وياسر
تنادوا بأن لا سيد الحى فيهمو * وقد فجع الحيان كعب وعامر
فكان اذا يأتي من الشام قافلا * بمقدمه تسعى الينا البشائر
فيصبح أهل الله بيضا كأنما * كستهم حبيراً ريدة ومعافر
ترى داره لا يبرح الدهر عندها * مجعجعة كوم سمان وباقر
اذا أكلت يوما أتى الدهر مثلها * زواهق زهم أو مخاض بهازر
ضروب بنصل السيف سوق سمانها * اذا عدموا زاداً فانك عاقر
والا يكن لحم غريض فانه * تكب على أفواههن الغرائر
فيا لك من ناع حبيت بآلة * شراعية تصفر منها الأظافر

﴿ مطاعيم الريح ﴾

(قال ابو الندى) هم كنانة بن عبد ياليل الثقفي عم أبي محجن . ولبيد بن ربيعة . وأبوه . كانوا اذا هبت الصبا أطعموا الناس وخصوا الصبا لانها لاتهب الا في جدب . واستمر على ذلك لبيد حتى أسلم وألزم نفسه ذلك في الاسلام فخطب الوليد بن عقبة الناس بالكوفة فقال : ان أخاكم لبيداً كان آلى على

نفسه في الجاهلية أن لا تهب الصبا الا أطعم الناس وألزم نفسه ذلك فى الاسلام وهذا اليوم من أيامه فأعينوه فأنا أول من يعينه ثم نزل . فبعث اليه بمائة بكرة وكتب اليه

أرى الجزار يشحذ شفرتيه * اذا هبت رياح أبى عقيل
أغرّ الوجه أبيض عامرىّ * طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بحلفتيه * على العلات والمال الجزيل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه * ذيول صبا تجاوب بالاصيل

فلما أتاه الشعر قال لابنته أجيبيه فقد أرانى ولا أعيا بجواب شاعر فقالت

اذا هبت رياح أبي عقيل * دعونا عند هبتها الوليدا
أغرّ الوجه أبيض عبشميا * أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا * عليها من بنى حام قعودا
أباوهب جزاك الله خيرا * نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد * وظني يا ابن أروى أن تعودا

فقال أحسنت لولا انك استطعمتيه قالت انه ملك وليس بسوقة ولا بأس باستطعام الملوك .

وكانت العرب تضرب بمطاعيم الريح الأمثال . لما جبلوا عليه من سخاء الطبع ومحاسن الخلال . وكريم الخصال . وخلدوا لهم الذكر الجميل والثناء الجزيل . وهو أحسن مايدخر . وأجل مايقتنى ويؤثر .

﴿ عبدة الكلابية ﴾

هى امرأة كانت مذكورة بالسخاء . ولهجت ألسن العرب بكرمها

بالثناء . فقد روى أبو بكر بن دريد بسنده الى أبي عبيدة . قال مرّ رجل من أهل الشام بامرأة من كلب . فقال لها هل من لبن يباع فقالت انك للئيم أو قريب عهد بقوم لئام . هل يبيع الرِّسل كريم . أو يمنعه الا لئيم . انا لندع الكوم (١) لأضيافنا تكوس . اذا عكف الدهر الضروس . ونغلى اللحم غريضا (٢) ونهنيه نضيجا (٣)

﴿قتادة بن مسلمة الحنفي﴾

كان هذا الرجل أيضا من أسخياء العرب ومشاهيرهم في الكرم وبه يضرب المثل فى الجود . وكان يسمى غيث الضريك . وقالوا أقوى من غيث الضريك . وهو الفقير * ومن كانوا يضرب بهم المثل من أجواد الأمة العربية فى أطوار الجاهلية لا يمكننا أن نستوعبهم . ومن وقف على أخبارهم تبين له ان كل واحد من عرب الجاهلية كان يستحق أن يضرب به المثل « وأما بعد ظهور الاسلام » فقد تأكد ذلك لديهم واستوجبته نصوص الشريعة السمحاء عليهم فانضم هذا الداعى الى الداعى الطبيعى وسيأتى ذكر ذلك فى محله ان شاء الله تعالى

حياؤهم

ومن أفضل ما كان عندهم من صفات الانسان . وأجمل كمال يتحلى به « الحياء » ولهم فى ذلك ما ليس لغيرهم . نعم لأنك تجد أيها الأديب

(١) الكوم — القطعة من الابل

(٢) غريضا أى طريا (٣) نضيجا أي منشويا قال الشاعر .

قد انشوي شواؤنا المرعبل * فاقتربوا الي الغداء فكلوا

المتصف به شجاعا ذا مروءة كريما حليما صادقا موفيا بالوعد أمينا شريف النفس: ولقد اتصفت الأمة العربية . بهذه الصفات المرضية . ومما يدل على ان العرب متصفون بهذه الصفة الجليلة قول قائلهم .

أجامل قوما بالحياء وقد أرى * صدورهمو تغلى على مراضها

﴿ وقال آخر ﴾

كريم يغض الطرف فضل حيائه * ويدنو وأطراف الرماح دواني (١)
وكالسيف ان داوته لان مسه * وحداه ان خاشنته خشنان (٢)

﴿ وقال أمية بن الصلت يمدح عبدالله بن جدعان من أبيات ﴾

أأذكر حاجتي أم قد كفاني * حياؤك ان شيمتك الحياء
اذا أثنى عليك المرء يوما * كفاه من تعرضك الثناء

والحياء كان عندهم على ضروب . فمنها ﴿ صيانة نفوسهم ﴾

صيانة نفوسهم

من أجل ما كان عندهم من ضروب محاسن الحياء « صيانة نفوسهم » وهو غض بصرهم عن نساء جارهم . وهو من محاسنهم المأثورة . وصفاتهم المشكورة وحسبك أيها القارئ أن التطلع على نساء الجار من أخبث ما تأتيه النفوس الدنيئة . وأقبح ما تميل اليه أهواء ذوي العقول الرديئة .

(١) يغض الطرف أى يكفه معناه أنه كريم يغض طرفه لاستحيائه وانه شجاع لايهاب الحرب بل يقرب من الرماح كلما قربت منه .

(٢) وكالسيف الخ معناه انك ان لاطفته ولاينته وجدت منه كل رفق ولين وان عاديته وخاشنته لقيت منه كل قسوة وخشونة .

ولا يخفى ان فى هذا الزمن أناسا ميالين بطبيعتهم الى الشر و روحب الفجور فلو تركوا وأهواءهم وما يشتهون وما تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء من الشهوات والانكباب على اللذات والتوسع فى وسائلها لأفضى ذلك بهم الى نبذ الفضائل . والتخلق بالرذائل . حتى يصير ذلك عادة فاشية فيهم وطبيعة لهم وحينئذ فحدّث عنهم ولا حرج عما يفشو بينهم من المفاسد والقبائح والرذائل والفضائح مما يخرجهم عن طور الانسانية الكاملة الى الحيوانية المحضة.

وحبذا لو تركوا تلك العادة المذمومة واتبعوا ما كان عليه أجدادهم القدماء من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة أولئك الذين عاشوا فى البيد والقفار ولم يعرفوا التمدن ولا الارتقاء كما يزعم بعض من جهل تاريخهم الجليل وهم طالما اتصفوا بأوصاف لم توجد في أمة أخذت من التمدن أعلاه . ومن الرقى أجلاه . سيما ما كانوا عليه فى عصر الاسلام اذ زادهم الدين الاسلامي أخلاقا حميدة على أخلاقهم بعد أن دثر ما كان عندهم من التخيلات والمذاهب التى سنتكلم عليها قريبا ان شاء الله تعالى .

ثم هذبهم الدين فأصبحوا بنعمة الله اخوانا متحابين متحالفين و بزغت فيهم اذ ذاك شمس العلوم فأضاءت العالم أجمع وسنوفى هذا الكلام حقه فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ومما يدل على أن العرب يرثون من التطلع على نساء جارهم قول شاعرهم الممتلئ مروءة ونجدة .

واغض طرفى ان بدت لى جارتى * حتى يوارى جارتى مأواها

﴿ وقال آخر ﴾

أعمى اذا ما جارتى برزت * حتى يواري جارتى الستر

وأصم عما كان بينهما * سمعي وما بي غيره وقر

﴿ وقال آخر ﴾

ولست بصادر عن بيت جاري * صدور العير غمره الورود[١]
ولست بسائل جارات بيتي * أغياب رجالك أم شهود
ولا ألقى لذي الودعات سوطي * لألهيه وريبته أريد[٢]

﴿ وقال حاتم طيّ من قصيدة[٣] ﴾

وما تشتكيني جارتي غير أنها * اذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها * اليها ولم تسبل عليّ ستورها

(١) ولست بصادر الخ أي لا أصدر عن بيت مثل العير الذي قد تغمر أي لم يرو وفيه حاجة الى العودة يقول فأنا لا آتي بيت جاري هكذا أريد الريبة

(٢) ذو الودعات الصبي يقول لا ألهي الصبي بالسوط وأخلو أنا بأمه كما يفعل فساق هذا العصر الذي انتشر فيه الفساد. أعني القرن الرابع عشر من الهجرة النبوية . ومثل هذا البيت قول مسكين الدارمي .

لا آخذ الصبيان ألثمهم * والأمر قد يعزى به الامر

(٣) هذه القصيدة التي تنبئ عن غزارة كرم حاتم وعلو مكارم أخلاقه من أحسن ماقال وهي .

ألا أرقت عيني فبت أديرها * حذار غد أحجي بأن لا يضيرها
اذا النجم أضحى مغرب الشمس مائلا * ولم يك بالآفاق بون ينيرها
اذا ما السماء لم تكن غير حلبة * كجدة بيت العنكبوت ينيرها
فقد علمت غوث بأنا سراتها * اذا أعلمت بعد السرار أمورها
اذا الريح جاءت من أمام أخائف * وألوت بأطناب البيوت صدورها
وانا نهين المال في غير ظنة * وما يشتكينا في السنين ضريرها

هذا أيها القارئ قول شاعرهم الكريم . ألم يقل انى أحفظ جارتي وأعرف حقها وبرها فلا تشتكى من فعلى الا أنى اذا غاب عنها بعلها أقطع زيارتي عنها منعاً لريب زيد وظن عمرو ولكن هذا القطع غير قاطع عنها خيري وبرى لها حتى يرجع اليها بعلها وانا لم آت بريبة .

هذه وايم الحق المروءة والانسانية . والنجدة والمدنية . وأنى هذا مما يفعله فساق هذا الزمان فى القرن الرابع عشر الهجرى . ممن عرفوا التمدين

اذا ما بخيل الناس هرت كلابه * وشق على الضيف الضعيف عقورها
فاني جبان الكلب بيتي موطأ * أجود اذا ما النفس شحّ ضميرها
وان كلابى قد أهرت وعوّدت * قليل على من يعتريني هريرها
وماتشتكى قدري اذا الناس أمحلت * أؤثفها طوراً وطورا أميرها
وأبرز قدري بالفضاء قليلها * يري غير مضنون به وكثيرها
وابلى رهن أن يكون كريمها * عقيرا أمام البيت حين أثيرها
أشاور نفس الجود حتى تطيعني * وأترك نفس البخل لا أستشيرها
وليس على ناري حجاب يكنها * لمستوبص ليلا ولكن أنيرها
فلا وأبيكم ما يظل ابن جارتي * يطوف حوالى قدرنا مايطورها
وما تشتكيني جارتي غير انها * اذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلها * اليها ولم تسبل علىّ ستورها
وخيل تعادى للطعان شهدتها * ولو لم أكن فيها لساء عذيرها
وغمرة موت ليس فيها هوادة * يكون صدور المشرفيّ جسورها
صبرنا لها في نهكها ومصابها * بأسيافنا حتى يبوح سعيرها
وعرجلة شعث الرؤوس كأنهم * بنو الجن لم تطبخ بقدر جزورها
شهدت وعوّاناً أميمة اننا * بنو الحرب نصلاها اذا اشتدّ نورها

والرقى والعمران . أولئك الذين يتوسلون بكل حيلة للتطلع على الجارات ومغازلتهن وافساد أخلاقهن وخيانتهم فى أعراضهن بأغرب الحيل وأعجبها .

ومما بلغ منه السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين أنهم قد تمادوا فى غيهم وتنافسوا فى طغيانهم . واتبعوا ما تأمرهم به نفوسهم الامارة بالسوء فاجترحوا السيئات . واستباحوا الحرمات . سيما فى شهر رمضان الذى طالب الله فيه عباده أن يقوموا ليله متعبدين متخشعين ذاكرين الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم يتلون من آيات كتابه الكريم صحفاً ليضاعف لهم بها أجوراً فلهم فى الدنيا حياة طيبة وفى الآخرة عاقبة المتقين ونعم أجر العاملين فان من الصائمين من يتناولون طعام الفطور ثم يذهبون الى المراقص يرتكبون ثمة ما سولت لهم به نفوسهم من ضروب الآثام والأوزار

(ومما) يستحسن أن نذكره فى هذا الصدد مانشرناه فى جريدة « العلم » تحت عنوان « اللاهي واللاهون » بامضاء « الاصمعي » [1] وهاك نصه .

« فى مصر فئة من المتفرنجين بجهل قد ضعفت أحلامهم وفسدت أخلاقهم فانتهكوا حرمات الله تعالى سراً وعلانيـة وارتكبوا من الآثام ما تندى له الوجوه حياء وخجلا

وليس كلامي الآن لهؤلاء الذين استخفوا بأحكام الدين وآدابه وازدروا

على مهرة كبداء جرداء ضامر * أمين شظاها مطمئن نسورها
وأقسمت لا أعطى مليكا ظلامة * وحولي عدي كلها وغريرها
أبت لى ذاكم أسرة تغلبيـة * كريم غناها مستعف فقيرها
وخوص دقاق قد حوت لفتية * عليهن احداهن قد حل كورها

(١) نشرت هذه المقالة بعنوان « خطرات صائم » بعدد « ٦٤٠ » من العلم الصادر في يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ١٣٣٠

آدابهم القومية وأصبحوا بفضل المدنية الحديثة التي خلب ألبابهم زبرجها وغشي على أبصارهم بهرجها يجترحون السيئات ويستبيحون الحرمات لا يبالون بتهديد الله ووعيده وعقابه ونُذُره فأولئك لا تجديهم عظة ولا تنفعهم عبرة وربما يظلون على ما هم عليه من الملاذ الباطلة والشهوات الأثيمة حتى يأتيهم نذير الموت بعد أوجع الآلام وأشدها وقعا عليهم وينالون من الله عز وجل ما أعده لهم من شديد العقاب وهول الحساب

لكن كلامي لطائفة من الصائمين الذين يذهبون الى أندية اللهو يحيون فيها ليالى رمضان فلا تقع عيونهم الا على باغيات متهتكات سالبات لأموالهم ناهبات لقلوبهم فاتنات لعقولهم قاتلات لنفوسهم ولا تسمع آذانهم منهن الا ماتمجه الطباع من الهذر والسخف وهم يظنون مع ذلك كله أنهم لم يجرموا ولم يأتوا من الامر مايستحيون منه كأن الذهاب الى هذه الملاهي مباح ولا يستغفرون الله بعد الاياب منها أيضاً كأن شهود تلك الاندية من اللذات المباحة للناس :

يطالب الله تعالى الصائمين بقيام الليل متعبدين قانتين متخشعين وأولئك يذهبون الى المراقص يجنون ما شاء لهم هواهم من الآثام والاوزار ويقارفون ضروب القبائح والمنكرات والخلاعات

يطالب الله عز وجل الصائمين أن يذكروه فى ليالى رمضان ويتلوا من آيات ذكره الحكيم صحفاً ليضاعف لهم بها أجوراً وكثير من الصائمين يذهبون الى القهوات والمنتديات يلعبون ما تختاره لهم نفوسهم من ضروب اللعب (كالنرد والشطرنج وغيرهما) ويزعمون انهم يحسنون صنعا

ان أشرف حال يكون عليها المسلم فى رمضان أن يقضي نهاره صائما وليله

قائما متعبداً فتسلم حواسه من الارجاس فى الصوم وكيف تسلم حواس من هو جالس فى ناد ممتلئ بالآثام والنقائص ؟؟

ليس من الصيام في شيء ولا من البر بالنفس أن يجوع الصائم ويظمأ فى نهاره حتى اذا آذن الغروب قصى حق بطنه باطايب الطعام والشراب ثم يذهب الى القهوة أو الى المرقص ليرى ثَمَّ مناظر الخبث والرذائل أمامه

لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول (كم من صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش)

جدير بهؤلاء الذين غلبت ألبابهم مدنية العصر وغشيت أبصارهم بهارجها الكاذبة حتى أفسدت الفطرة السليمة فى نفوسهم أن يهتدوا بهدى السلف الصالح ويمشوا على أثر الصائمين الصالحين من المؤمنين ويعرفوا ان الله جل شأنه يطالبهم بتأدية الفروض التى اجتنبوها والاخذ بآداب دينهم التى نبذوها والتدبر فى آياته الكريمة التى أهملوها » اه

ولنرجع الآن الى ما كنا فيه من سرد صفات الامة العربية ومكارم أخلاقها العالية وسجاياها الفاضلة وشيمها المرضية فى أطوار الجاهلية فنقول .

قناعتهم

ومما كان عندهم من المحاسن الجميلة والخصال الحميدة « القناعة » وحسبك أيها القارئ أنها فضيلة من الفضائل العظيمة والكمالات الجليلة التى تحفظ الانسان من الابتذال ومن اراقة ماء الوجه .

وايم الحق انها لمن أحسن الخصال . وأفضل شيم الكمال . ولم يتصف بها الا الأمة العربية ذات النفوس الزكية وأرباب الهمم العالية

ولعمرى ان من تحلى بهذه الصفة فقد أحرز الفضل بكماله . وجمع الخير فى أفعاله . وكل امرئ قادر على أن يتخلق بهذا الخلق الجميل . متى غلب عقله على هواه . ولقد صدق شاعرهم حيث يقول

والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

وقد أكثر شعراؤهم فى مدحها والافتخار بها . فمن ذلك قول شاعرهم

وما أنا بالساعى بفضل زمامها * لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها * لأبعثها خفا وأترك صاحبي

اذا كنت ربا للقلوص فلا تدع * رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنخها فأردفه فان حملتكما * فذاك وان كان العقاب فعاقب

﴿ وقال آخر ﴾

قد يرزق الخافض المقيم وما * شد بعنس رحلا ولا قتبا

ويحرم المال ذو المطية والر * حل ومن لا يزال مغتربا

هاك شطرا من صفات هؤلاء القوم فى جاهليتهم الذين لا يعرفون التمدين ولا الارتقاء كما زعم بعض من جهل أو تجاهل تاريخ العرب .

ولست أدرى ولا المنجم يدرى كيف ادعى بعض من زعم هذا الافتراء الباطل أن العرب لا يعرفون الحضارة والعمران ؟؟

فيا أيها المصرى المحبوب أجبنى رعاك الله وجعلك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أمحت الدهور ما كان عند العرب من الصفات التى سردتها عليك أم غيرها تعاقب الليل والنهار ؟ كلا ماعليك الا أن تجيب بان العرب هم أرق الأمم تمدينا وأجلهم رقيا . سيما وقد بلغوا من الحضارة منتهاها . ونالوا

من الغايات أقصاها . واهتدوا الى سبيل الحكمة وسلكوا منهج الرشاد فسادوا الأمم بأخلاقهم الكريمة العالية وشيمهم الكاملة . وعلا شأنهم . وبذخ مجدهم بعلومهم ومعارفهم التى قهروا بها غياهب الجهل . وذللوا أمامهم المصاعب بما اتخذوه من الوسائل الداعية الى سعادة بلادهم مما بث فيها روح المدنية والرقي والعمران . سيما أطوارهم فى عصر الاسلام الذى زادهم رقيا على رقيهم بعد أن اجتث جذور ما كان عندهم من الرموز والتخيلات التي كانوا يعتقدونها وسيأتى الكلام عليها . وأبرز أسرار الانسان من غدورها ونشر بذلك ضياء العلم والمعارف بين الامم . ولم يكتف بذلك بل أرى الامم مراشدهم ونهج لهم مناهجهم وعلمهم معني الحرية والاخاء والمساواة بالفعل لا بالقول . ثم كبح جماح الاهواء وكسر شرة الطغيان وثلم غرار الاستعباد وطارد الجور والعسف والاجحاف فهوت له عروش الجبابرة وارتجفت له فرائص الاكاسرة وخضعت لعدله جباه العاتين . وعنت له وجوه الطاغين .

أيها المصري . اذا كان ذلك الدين الحنيف قدر أن ينشل العالم من وهدة الجهالة الى أرقى الكمالات الانسانية ومن الوحشية الى أوج الحضارة والمدنية أليس بقادر أن يحملنا فى مقدمة الامم الحية التى تدير شؤونها وتسعي لمصلحة أبنائها اذا نحن تمسكنا بتعاليمه وقمنا بها خير قيام ورجعنا الى فضائله الشماء . واتبعنا أصوله السمحاء . وتدبرنا فى آيات الكتاب المجيد . الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

أيها المصرى . لاريب بعد ذلك أن الأمة العربية . هى أول أمة أينعت فيها رياض المدنية . وأشرقت فيها شمس العلوم والمعارف السنية .

وماقد ذكرناه فى هذا الصدد هو قطرة من بحر خضم . وسنوفى هذا الكلام حقه فى محله ان شاء الله تعالى .

أيها المصرى . أين قناعتهم مما نحن عليه اليوم وقد كثر فينا معاشر المصريين الطمع ولا يخفى انه من أقبح الخلائق وأذم العلائق . لا يزال صاحبه أبدا مذموما . وباقبح الصفات موسوما . قد تملك الجشع طباعه . فلا تعرض له القناعة . ولو كانت الدنيا باسرها متاعه .

فيا أيها المصريون . عليكم بالقناعة فانها من أوثق أركان العبادة . وأقوى أصول الديانة المؤدية الى السعادة . وهى ذخيرة لا تبلى مدى الأيام . وكنز لا يفنيه مر الدهور وكر الأعوام . بل هى جنة عالية قطوفها دانية . فمن طلب العز طلبه بالطاعة . ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة . بها عز النفس . والقدرة على متابعة الحق . والغنى عن الناس . ولله در من قال

* ان القنوع الغنى لا كثرة المال *

ولا غرو فى ذلك فهي رأس الصلاح . وأس الفلاح . ومصدر الفوز والنجاح . فعليكم بها لتكونوا أهنأ الامم عيشا . وأقرهم بالا . وأحسنهم حالا . وأرفعهم ذكرا . وأعظمهم قدرا . وأكملهم محاسن وأعزهم نفسا . وأكرمهم طبعا . واياكم والطمع فانه مفتاح التعب . ومطية مساوي الأخلاق . ودليل لؤم النفس ودناءة الهمة . ووثاق ذل موطد . ورق مؤبد

﴿قال الشاعر﴾

طمع الفتى ذل وعزة نفسه * عز وكم شره يجر الى شرك

حلمهم

ومن أجمل ما كان عندهم من المحاسن الراقية والصفات السامية «الحلم» الذى مهما كتب الانسان فيه ومهما سطر لايمكنه ان يحصر فوائده الساطعة. ومزاياه الرائعة .

وأنى لا يكون ذلك كذلك وهو من اكرم الخلال وأتم الخصال ومن أشرف الأخلاق وأكرمها . وأعلى مراتب الكمال وأعظمها

لعمرك ان الحلم زين لاهله * وما الحلم الاعادة وتحلم

وحسبك أيها المصرى انه ركن من أركان الشرع متين . وحصن من حصون الدين حصين .

ولعمري انه لمعدن السرور . وعقال الفتن والشرور . يبلغ به الانسان من المجد قاصيته . ويملك به من الحمد ناصيته . ولايظهر الامن ندب كريم . ولا يصدر الا عن صدر سليم .

ولا أحيطك علما أيها الاديب ان من اتصف به فاز بأوفر حظوظ الفضل والأدب . وسما فى الدارين الى أجلّ الرتب . قال تعالى « ان ابراهيم لحليم أواه منيب» وقال عليه الصلاة والسلام « تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شئ لشئ أحسن من علم الى حلم » ولله در من قال

ألا ان حلم المرء أكرم نسبة * يسمّى بها عند الفخار حليم

فيارب هب لى منك حلما فانني * أري الحلم لم يندم عليه كريم

فبالحلم يشرف الانسان . ويعرف بين جميع الاخوان . وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بحلمه الأفئدة والقلوب . وينال من عدوه

قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب .

فما أحسن الحلم الذى به يسود الانسان وينال كل مأرب ويأمن من كل معطب . « وماهو الحلم ؟؟ » هو امساك النفس عن هيجان الغضب كما أن التحلم امساكها عن قضاء الوطر . والحلم من آثار العقل وغير منفك عنه ولهذا يعبر به عن كل عقل ظهر فعلا كقوله تعالى فى ذم من لم يذعن للحق على سبيل التعجب منهم « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » ومتى استعمل الحلم فى البارىء تعالى فانما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له . ثم ان العقل كلما كان أوفر كان تأثيره أقوى وأحكم .

ولقد كان للعرب من غزارة العقل وكماله ماليس لغيرهم فلا ريب ان مؤثراته كذلك . وقد اشتهر العرب « لازالت مآثرهم تتلى على مدى الدهور وممر الازمنة والعصور » بكل مايتم الحلم به فان حلم الانسان لايتم الابامساك اللسان عن الفحش والعين عن فضولات النظر ومن أمعن الفكر فى أشعارهم وخطبهم ووقف على أخبارهم تبين له كل ماذكرناه . فقد كانوا يحرمون الظلم ويتحالفون على الكف عنه ويتناهون عن الفحشاء والمنكر ولغتهم تكني كل مايستقبح التصريح به تحرزا من التلفظ بكلمة تأباها مروءتهم . وقد أفرد الثعالبي كتابا كبيرا فى كناياتهم عما تتنزه ألسنتهم عن التعبير به وما زالوا يتمدحون بالحلم فى شعرهم ولو لم يكونوا بالغين فيه مبلغا عظيما ماالمجوا به (قال) خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يذكر قوما من العرب ويمدحهم بالحلم ومكارم الأخلاق وكرم السجية ومحمود الشيم .

عدلت الى فخر العشيرة والهوى * اليهم وفى تعداد مجدهم شغل

الى هضبة من آل شيبان أشرفت * لها الذروة العلياء والكاهل العبل

الى النفر البيض الذين كأنهم * صفائح يوم الروع أخلصها الصقل
الى معدن العز المؤيد والندى * هناك هناك الفضل والخلق الجزل
أحب بقاء القوم للناس انهم * متى يظعنوا من مصرهم ساعة يخلوا
عذاب على الافواه مالم يذقهم * عدو وبالافواه أسماؤهم تحلو
عليهم وقار الحلم حتى كأنما * وليدهمو من أجل هيبته كهل
ان استجهلوا لم يعزب الحلم عنهمو * وان آثروا ان يجهلوا عظم الجهل
هم الجبل الأعلى اذا ماتناكرت * ملوك الرجال أو تخاطرت البزل
ألم تر أن القتل غال اذا رضوا * وان غضبوا في موطن رخص القتل
لنا فيهمو حصن حصين ومعقل * اذا حرك الناس المخاوف والأزل
لعمرى لنعم الحى يدعو صريخهم * اذا الجار والمأكول أرهقه الاكل
سماة على افناء بكر بن وائل * ونبل أقاصى قومهم لهمو نبل
اذا طلبوا ذحلا فلا الذحل فائت * وان ظلموا أكفاءهم بطل الذحل
مواعيدهم فعل اذا ماتكلموا * بتلك التي ان سميت وجب الفعل
بحور تلاقيها بحور غزيرة * اذا زخرت قيس واخوتها ذهل

﴿ وقال آخر من قصيدة سيأتى ذكرها ﴾

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه * بحلمى عنه وهو ليس له حلم
اذا سمته وصل القرابة سامني * قطيعتها تلك السفاهة والاثم
فداويته حتى ارفأنّ نفاره * فعدنا كأنا لم يكن بيننا صرم

﴿ وقال النابغة الجعدى ﴾

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه ان يكدّرا

ولا خير فى جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

﴿ وقال آخر ﴾

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم * ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فانى مقوّم * ومن شاء تعويجى فانى معوّج
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبا
ولكنني أرضى به حين أحوج

﴿ وقال آخر ﴾

أظن الحلم دلّ على قومي * وقد يستجهل الرجل الحليم

﴿ وقالت الخنساء ﴾

فتى كان ذا حلم أصيل ونهية * اذا ما حبا من طائف الجهل حبت

﴿ وقال آخر ﴾

تخالهمو للحلم صما عن الخنا * وخرسا عن الفحشاء عند التهاتر
ومرضى اذا لاقوا حياء وعفة * وعند الحروب كالليوث الخوادر
لهم ذل انصاف ولين تواضع * بهم ولهم ذلت رقاب المعاشر
كأن بهم وصما يخافون عاره * وما وصمهم الا اتقاء المعاير

﴿ وقال هدبة بن الخشرم العذري ﴾

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا * فانك راء ماحييت وسامع

وقد كانت عندهم كلمة تقال فى مواطن الغضب والتشاجر فاذا سمعها أحدهم كف عما كان بصدده من التشفي وأخذ الانتقام وهى « ملكت

فأسجح » يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران القوة الغضبية ولو لم يكونوا أملك لنفوسهم وأقدر على مجاراة عقولهم . لما تمكنوا من الارتداع . اذا قارنت تلك الكلمة منهم السماع . فهم أحلم فى النفار من كل حليم . وأسلم فى الخصام من كل سليم . واذا مُنُوا بجفوة أحد لم يوجد منهم نادرة . ولم يخفر عليهم بادرة . ولا حليم غيرهم الا ذو عثرة . ولا وقور سواهم الا ذو هفوة . يصبرون على الأذى والاقلال ويتحملون نغص العيش وضيق الحال . وما كانت بينهم من الحروب والمشاجرات . والتخاصم والمنازعات . فهى محاماة لشرفهم . وصيانة لعزهم ومنزلتهم . ومحافظة على مجدهم أن يستذل . وملاحظة على علوّ حسبهم أن يسترذل . والحلم فى غير موطنه ذلة . والصبر على مالا يحمد زلة. هؤلاء رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم وهم أكمل الخلق فى كل صفة محمودة . وأعذب المناهل الموروودة . قد انتصبوا لجهاد الأعداء . وقاتلوا من زاغ عن المحجة البيضاء . حتى زاد بهم من قل . وعز بهم من ذل . وصاروا بانتقامهم في الأعداء منصورين . وبالرعب منهم محذورين . وهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ضرب رقاب بني قريظة صبراً فى يوم أحد . وهم نحو سبعمائة . وانتقم منهم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة . ولا داخلته لهم رأفة . وانما فعل ذلك فى حقوق الله تعالى . وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم فحكم ان من جرت عليه الموسى قتل ومن لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا حكم الله فوق سبعة أرقعة فلم يجز أن يعفو عن حق وجب لله تعالى عليهم .

اشهر مشاهير

﴿ من ضرب بهم المثل فى الحلم من الأمة العربية فى أطوار الجاهلية ﴾

﴿ قيس بن عاصم المنقرى [١] ﴾

كان هذا الرجل حليما مشهورا وهو أحد من يضرب بهم المثل فى الحلم (فمن حلمه) أنه كان يوما يحدث أصحابه وهو محتب اذ جيء اليه بابن أخيه موثوقا وابن له قتيل . فقال الذين شدوا وثاق ابن أخيه وأتوا بهما ان هذا قتل ابنك

(١) كان قيس هذا فارسا شجاعا وبطلا مغوارا وحليما مشهورا وشاعرا مفلقا من فحول الشعراء والفرسان كثير الغارات مظفرا في غزواته أدرك الاسلام فأسلم وحسن اسلامه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه في حياته وعمر بعده زمانا وروى عنه عدة أحاديث فلما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم بقوله:

يابني اذامت فسوّدوا كباركم ولاتسوّدوا صغاركم . فيسفه الناس كباركم . وعليكم باصلاح المال فانه منبهة للكريم . ويستغني به عن اللئيم . واذا مت فادفنوني فى ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم وايا كم والمسئلة فانها آخر مكاسب العبد وان امرأ لم يسأل الا ترك مكسبه واذا دفنتموني فأخفوا قبرى عن هذا الحي من بكر بن وائل فقد كان بيننا خماشات في الجاهلية . ثم جمع ثمانين سهما فربطها بوتر ثم قال اكسروها فلم يستطيعوا ثم قال فرقوها ففرقوها فقال اكسروها سهما سهما فكسروها فقال هكذا أنتم في الاجتماع وفي الفرقة ثم قال

انما المجد ما بنى والد الصد * ق وأحيا فعاله المولود
وتمام الفضل الشجاعة والحلـ * ـم اذا زانه عفاف وجود
وثلاثون يابنى اذا ما * جمعتكم في النائبات العهود
كثلاثين من قداح اذا ما * شدها للزمان قدح شديد
لم تكسر وان تفرقت الاسـ * ـهم أودي بجمعها التبديد

ذاك فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى اذا فرغ من الحديث التفت اليهم فلما رأى ابن أخيه القاتل خائفا وجلا رأف به وأشفق عليه وقال لمن جاؤا به: ويحكم قد ذعرتم الفتى . وملأتم فؤاده رعبا حتى استولى عليه الجزع . ثم التفت الى ابن أخيه قائلا له : بئس ما فعلت . قد نقصت عددك . وأوهنت عضدك وخنت عشيرتك . وأسقطت مروءتك . واشمت عدوك . وأسأت قومك فعلام هذا الجرم الشائن . وأنت الذي كنا نرجوك لعظائم الأمور . وندخرك للملمات . ثم التفت الى من أحضروه وقال لهم : خلوا سبيله فاني لو اقتصصت منه لكنت كمن يبتر أعضاءه بيده لأنه جزء من عشيرتي الاقربين . ثم نادى قائلا أين ابنى فلان فجاءه فقال له يا بني قم الى ابن عمك فأطلقه . والى أخيك فادفنه . وأمره بدفع دية المقتول من ماله لوالدة ابنه مواساة لها . وتخفيفا لمصابها . وهو مع هذا كله لم يظهر عليه شيء من سمات الأسى . فكان قدوة حسنة في الحلم ومكارم الأخلاق . ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول :

انى امرؤ لا يعتري خلقي * دنس يفنده ولا أفن
من منقر فى بيت مكرمة * والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم * بيض الوجوه مصاقع لسن

وذووا الحلم والكبائر أولى * ان يري منكمو لهم تسويد
وعليكم حفظ الاصاغر حتى * يبلغ الحنث الاصغر المجهود

ثم مات فقال عبدة بن الطبيب يرثيه

عليك سلام الله (قيس بن عاصم) * ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من أوليته منك نعمة * اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

لا يفطنون لعيب جارهم ۞ وهمو لحفظ جوارهم فطن

﴿ الأحنف بن قيس ﴾ (١)

كان الأحنف هذا عاقلا لسنا حليما مشهوراً بذلك . قد ضربت بحلمه الأمثال في النوادي . وسارت بذكره الركبان في البوادي : (فمن حلمه) أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدراً له يطبخها فقال الرجل : قدر ككف القرد لا مستعيرها يعار . ولا من يأتيها يتدسم . فقيل ذلك للأحنف فقال: لو شاء لقال أحسن من هذا ثم قال : ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم . فقيل له أنت أعز العرب . فقال : ان الناس يرون الحلم ذلا . وكان يقول رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه . وكان يقول : كثرة المزاح تذهب

(١) كان الاحنف بن قيس ممن اشتهروا بالحلم في عصر الاسلام وذكرناه هنا استطراداً وكانت وفاته بالكوفة أيام خرج مع مصعب بن الزبير الى قتال المختار فنزل دار عبد الله بن أبي عصيفير الثقفي فلما حملت جنازته ودلي في قبره جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء فوقفت على قبره وقالت : لله درك من مجن في جنن . ومدرج في كفن . انا لله وانا اليه راجعون . نسأل الله الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك . أن يوسع لك في قبرك . وأن يغفر لك يوم حشرك . وأن يجعل سبيل الخير سبيلك . ودليل الرشاد دليلك . ثم أقبلت بوجهها على الناس فقالت : معشر الناس ان أولياء الله في بلاده . شهود على عباده . وانا قائلون حقا . ومثنون صدقا وهو أهل لحسن الثناء . وطيب الدعاء . أما والذي كنت من أجله في عده . ومن الضمان الى غايه . ومن الحياة الي نهايه . الذي رفع عملك . عند انقضاء أجلك . لقد عشت حميداً مودوداً . ولقد مت فقيداً سعيداً . وان كنت لعظيم السلم . فاضل الحلم وان كنت من الرجال لشريفا . وعلى الارامل عطوفا . وفي العشيرة مسودا . والى الخلفاء موفدا . ولقد كانوا لقولك مستمعين . ولرأيك متبعين . ثم انصرفت اه

بالهيبة . ومن اكثر من شيء عرف به . والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل .

وقال له رجل يا أبا بحر دلني على محمدة غير مرزية . قال : الخلق السجيح والكف عن القبيح . واعلم أن أدوأ الداء اللسان البذيء . والخلق الردي . (وأبلغ) رجل مصعباً عن رجل شيئاً فأتاه الرجل يعتذر فقال مصعب الذي بلغنيه ثقة . فقال الأحنف : حلا أيها الأمير فان الثقة لا يبلغ

وكان الأحنف من أفصح خطباء العرب (ومن خطبه) التي جمعت كثيراً من الأمثال والحكم ما رواه ابن دريد بسنده الى رجل من بني تميم قال: حضرت مجلس الأحنف بن قيس وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان الكرم منع الحرم . ما أقرب النقمة من أهل البغي . لا خير في لذة تعقب ندما . لن يهلك من قصد . ولن يفتقر من زهد . رب هزل قد عاد جداً . من أمن الزمان خانه . ومن تعظم عليه أهانه . دعوا المزاح فانه يورث الضغائن . وخير القول ماصدقه الفعل . احتملوا لمن أدل عليكم . واقبلوا عذر من اعتذر اليكم . أطع أخاك وان عصاك . وصله وان جفاك . أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك . واياك ومشاورة النساء . واعلم أن كفر النعمة لؤم . وصحبة الجاهل شؤم . ومن الكرم . الوفاء بالذمم . ما أقبح القطيعة بعد الصلة . والجفاء بعد اللطف . والعداوة بعد الود . لا تكونن على الاساءة أقوي منك على الاحسان . ولا الى البخل أسرع منك الى البذل . واعلم أن لك من دنياك . ما أصلحت به مثواك ، فأنفق في حق . ولا تكونن خازنا لغيرك . واذا كان الغدر في الناس موجوداً فالثقة بكل أحد عجز . اعرف الحق لمن عرفه لك .

واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل (قال) فما رأيت كلاما أبلغ منه فقمت وقد حفظته. وايم الحق ان ماجاء في هذه الخطبة السامية لمن أبلغ العظات. وأجل الارشادات. سيما ماحوته من ضروب الامثال الساطعة. والحكم الرائعة. التي تأسر الاسماع برشاقتها. وتخلب الالباب ببراعتها. وتستهوى الافئدة بحسنها مما لم ينقل عن حكمة الفلاسفة الكبار في أجل الامم وأرقاها:

صدقهم

(ومما) كان عندهم من أجلّ الخلال الجميلة. وأسمى الخصال الجليلة «الصدق» وحسبك أيها الأديب أنه مقدمة الفضائل. وعنوان الكمال وأساس الفلاح. ومرقاة النجاة والنجاح. وأفضل خصال الانسان. وأجمل مواهب الاحسان. وهو دال على جلالة القدر. ونزاهة النفس. وعلوّ الهمة. وصلاح الشيم والشمائل. وللعرب في ذلك ما ليس لغيرهم من الأمم المتمدنة المضروب بها الأمثال. نعم لأنه لا مزية منه أجمل. ولا سجيّة أكمل. ولا عطية أشرف ولا سمة ألطف. ولا أثر منه أنفع: ومما يدل على أن العرب متصفون بالصدق قول شاعرهم.

والصدق يألفه الكريم المرتجى * والكذب يألفه الدنى الأخيب

(وقيل) لرجل من حمير ما العز فيكم قال (حوط الحريم، وبذل الجسيم، ورعاية الحق، وقول الصدق، وترك التحلى بالباطل، والصبر على المشاكل، واجتناب الحسد، وتعجيل الصفد «العطاء» ومما يتبع «الصدق» من الأخلاق الكريمة والشيم العالية والسجايا الفاضلة «الوفاء بالعهد»

وفاؤهم بالعهد

ومما كان عندهم من المحاسن التى قل أن توجد فى غيرهم من أجل الأمم وأرقاها « الوفاء بالعهد » وقد كان سجية فيهم ولم يتصف به غيرهم حتى انهم كانوا اذا غدر منهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليعرفه الناس وفي ذلك يقول شاعرهم :

أسمىّ ويحك هل سمعت بغدرة ٭ رُفع اللواء لنا بها فى مجمع

(والوفاء) من أحسن شمائل الانسان وأوضح دلائل الفضل والاحسان وأقوى أسباب المجد. وأحق الافعال بالشكر والحمد. تمس الحاجة اليه. وتجب المحافظة عليه. فمن تحلى بالوفاء. وتخلى عن الجفاء. وراعى عهد اخوانه. وحفظ حقوق أوطانه. وجبت مودته، وحسنت سيرته،

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى به وحثنا على فعله اذ قال جل شأنه « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا » وقال عز وجل « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » قال أبو السعود في كلامه على تفسير هذه الآية معناها لأى شئ تقولون نفعل مالا تفعلون من الخير والمعروف على أن مدار التعبير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم، وانما وجهها الى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً ولو قيل لم لا تفعلون ماتقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود

وفي الكشاف مايفيد أن لفظ كبر دال علي التعجب ومعني التعجب

تعظيم الامر في قلوب السامعين قال والمقت أشد البغض وأبلغه ، وقوله عند الله أبلغ من ذلك لأنه اذا ثبت مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وازاحت عنه الشكوك .

وأما كون العرب أوفى من غيرهم من الأمم فلأن الوفاء أخو الصدق والعدل ، والغدر أخو الكذب والجور ، وذلك أن الوفاء صدق باللسان والفعل معا ، والغدر كذب بهما . وفيه مع الكذب نقض العهد ، وقد جعل الله تعالى العهد من الايمان وصيره قواما لأمور الناس ، فالناس مضطرون الى التعاون ، ولا سيما العرب ولا يتم تعاونهم وتظاهرهم الا بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعايش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » وقال جل شأنه « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » وقال سبحانه وتعالى « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » وقال جل وعلا « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » وقد عظم شأن السموءل الشاعر الشهير فيما التزم به من الوفاء بدروع امرئ القيس على ماسنذكره ان شاء الله تعالى قريبا * ولقد قامت الحرب بين بكر وتغلب بن وائل أربعين سنة حتى كاد يفني بعضهم بعضا لضرع الجربي جار البسوس خالة جساس بن مرة البكري اذ رشقه كليب التغلبي رئيس القبيلتين بسهم فرأى جساس أن ذمة خالته أخفرت فقام اليه فقتله واستعرت الحرب بينهم * وما كان أعز العرب ليقابل بضرع لولا أن جساسا رأى في ذلك نقصا من وفائه .

وقامت الحرب يوم ذي قار بين الفرس والعرب بسبب أمانات النعمان الرابع أبي قابوس أودعها لدي مسعود بن هانئ الشيباني فلما قتل النعمان طلبها كسرى فحال مسعود بينه وبينها فكانت حرب شعواء انهزم فيها الفرس

شر هزيمة . وقال صلى الله عليه وسلم « اليوم انتصف العرب من العجم » نخبوه فألفوه ذلك اليوم » فالوفاء عند العرب واجب مقدس تضحى فى سبيله الاموال والدماء . والأهل والأبناء . وعلمته عنهم الأمم التى تعرفهم ولقد ضرب المثل بقوس حاجب بن زرارة اذ رهنها عند كسرى فى لطيمته(١) التى يجيرها على العرب فقبل كسرى ذلك ولما قيل له فيها قال ما كان ليسلمها أبداً

(١) العير تحمل الطيب وبز التجار ونذكر هنا قصة حاجب بن زرارة لانها تدل على ماكان عليه العرب من الصدق والوفاء ومراعاة العهود . وذلك كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان دعا على مضر وقال « اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث فيهم سنين كسني يوسف فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين فلما رأى ذلك حاجب علي قومه جمع بني فزارة وقال : اني آزمعت على أني آتي الملك يعنى كسري فاطلب أن يأذن لقومنا فيكونوا تحت هذا البحر حتى يحيوا فقالوا رشدت فافعل غير انا نخاف عليك بكر بن وائل فقال مامنهم وجه الاولى عنده يد الا ابن الطويلة التيمي وساداويه . ثم ارتحل فلم يزل ينتقل في الانحاف والبر من الناس حتى انتهى الى الماء الذي عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر دعا بنطع ثم أمر فصب عليه التمر ثم نادى حى على الغداء فنظر اليه ابن الطويلة فاذا هو بحاجب . فقال لأهل المجلس أجيبوه وأهدى اليه جزرا . ثم ارتحل فلما بلغ كسرى شكا اليه الجهد في أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذن لهم فيكونوا في حد بلاده فقال كسرى اذا أذنت عاثوا في الرعية وأغاروا . قال حاجب اني ضامن للملك أن لا يفعلوا قال فمن لي بأن تفي أنت . قال أرهنك قوسي . فلما جاء بها ضحك من حوله فقال الملك : ما كان ليسلمها أبدا اقبضوها منه . ثم جاءت مضر الى النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت حاجب فدعا لهم فخرج أصحابه الى بلادهم وارتحل عطارد بن حاجب الى كسرى يطلب قوس أبيه فقال ما أنت بالذي وضعتها . قال أجل انه هلك . وأنا ابنه وفي للملك قال ردوا عليه وكساه حلة . فلما وفد الى النبي صلى الله عليه وسلم أهداها اليه فلم يقبلها فباعها من يهودي بأربعة آلاف درهم فصار ذلك فخراً ومنقبة لحاجب وعشيرته . وفي

ومن ثمّ تعلم أن العرب هم أحفظ للعهد . وأوفى بالوعد . لأنهم مانقضوا لمحافظ عهداً . ولا أخلفوا لمراقب وعداً . يرون الغدر من كبائر الذنوب والاخلاف من مساوىء الشيم وأقبح العيوب . وما أحسن قول من يقول منهم وهو لبيد بن ربيعة العامري :

واذا الامانة قسمت فى معشر * أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه * فسما اليه كهلها وغلامها
وهمو السعاة اذا العشيرة أفظعت * وهمو فوارسها وهم حكامها (١)
وهمو ربيع للمجاور فيهم * والمرملات اذا تطاول عامها (٢)
وهمو العشيرة أن يبطئ حاسد * أو أن يميل مع العدو لئامها (٣)

فأين صدق هؤلاء ، ووفاؤهم هؤلاء الذين عاشوا فى الفيافى والقفار مما نحن عليه اليوم من التمدن والرقي وقد فشا فينا الكذب وخلف الوعد وبسبب ذلك نرى نحن معاشر المصريين كل يوم فى دركات الانحطاط الأدبي والاخلاق

ذلك يقول أبو تمام من أبيات :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها * فخاراً على ماوطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم * عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

وقد لمح بعضهم الى قوس حاجب بقوله في مليح قلندري قد حلق حاجبه فقال :

حبيبي بحق الله قل لى ماالذى * دعاك الى هذا فقال مجاوبي
وعدت بوصل العاشقين تعطفا * فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبي

(١) أفظعت أي أصيبت بأمر فظيع

(٢) المرملات من أرمل القوم اذانفدت أزوادهم .

(٣) يقول هم متعاضدون كراهة أنه يبطئ حاسد بعضهم عن نصر بعض أو يميل مع العدو لئام العشيرة .

والاجتماعي .

أراك أيها الأديب ستصرف الآيات الشريفة الى شيء خاص أو الى جماعة كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعنا من مثل ذلك واعلم بأن الآية مقال الله تعالى الذي لا تنفع عنده الاسماء ولا الصور في أي عهد كان ومن أي صنف كانوا الا من أتاه بقلب سليم ، ويل لهذه الرءوس التي تخيلت والالسنة التي كذبت . من عذاب يوم الدين ، لم يكفنا جهلنا في كل شيء حتى جعلنا له ناصراً علينا من فساد أخلاقنا وهذياننا في كل شيء ، قادتنا الخيالات الى صرف أخلاق الدين الحنيف وآدابه الساطعة . وحكمه الرائعة الى من كان قبلنا وضنينا من كتاب الله تعالى بالعناء ،

من أخاطبه الآن بتعويد أحداثنا « الصدق والوفاء » . أأخاطب الأم التي عليها المعوّل في تربية الناشئين وقد قعد بها العجز وجنى عليها عدم التربية وهي التي تغرس في الطفل الكذب وهو أول رذيلة تدنس الأخلاق وتفسد الطباع . وذلك أن الطفل مثلا يأتي عملا من الأعمال التي تنكرها عليه أمه فاذا سألته عنه أنكر ما أتاه بتاتاً . لانه يخشى اذا أقر لها بالحقيقة أن تضربه أو تحاسبه حساباً عسيراً . ومنشأ ذلك هو الجبن فلو كانت الأم تحسن التربية فلا تضربه لأقل الأسباب وأوهنها ولو كانت تعده وعداً صادقاً أنه اذا قال الحق أمن من العقاب لما عرف هذا الطفل للكذب معنى ولا حقيقة

أم أخاطب الأب وقد فشا في أكثر الآباء الآن الخلف ؟ بل أخاطب المعلمين لأنهم هم الذين بيدهم زمام أمة المستقبل وأخلاق رجالها من الناشئين . فيا أيها المعلمون هذه أمتكم قد حطها فساد الاخلاق الى الدرك الأسفل أكثر من كل شيء . فعوّدوا النشأة الحديثة الفضيلة ما استطعتم . وبثوا فيهم

من الأخلاق الكريمة والصفات العظيمة بقدر ما تجدون فيهم من الاستعداد الذي فروا به من أسرهم .

ربوا « لمصر » التي أخرها الحظ وسوء الطالع بسبب فساد الأخلاق رجالا تسعد بهم ويكسونها حلة من حلل الحرية تختال بها بين شقيقاتها من الأمم المتمدنة .

ربوا « للبلاد » وللخير والسعادة رجالا طاهري الأخلاق ليكونوا قدوة حسنة لمن بعدهم . ليكن الصدق والوفاء بالعهد أوّل ما تعنون به ؛ ان تفعلوا ذلك تنالوا ثوابا من الله والله عنده حسن الثواب .

﴿ ولنرجع ﴾ الآن الى ما كنا فيه من سرد صفات العرب الحميدة ومحاسنهم الكريمة وسجاياهم الفاضلة ومن اشتهروا بها فنقول ،

اشهر مشاهير

﴿من ضرب بهم المثل فى الصدق والوفاء من الامة العربية فى أطوار الجاهلية﴾

﴿ حنظلة بن أبى عفراء الطائى ﴾ [١]

هو الذى بسبب وفائه تنصر المنذر بن ماء السماء ، وذلك أن المنذر كان بنى غريّين (صومعتين) على قبرى نديميه عمرو بن مسعود الفقعسى وخالد بن المضلل ، كما

(١) كان حنظلة هذا شاعرا مجيدا ولم يبق من شعره الا القليل . فمن ذلك ماروواه أبو الفرج بن الطيب .

ومهما يكن من ريب دهر فانني * أرى قمر الليل المعذب كالفتى
يهلّ صغيرا ثم يعظم ضوءه * وصورته حتى اذا ماهو استوى
وقرب يخبو ضوءه وشعاعه * ويمصح حتى يستسرّ فما يرى

مرّ ذلك فى ترجمة المنذر وكان قد جعل لنفسه فى كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فكان أول من يطلع عليه يوم بؤسه يقتله ويطلى بدمه الغريين ومن جاء فى يوم نعيمه منحه مائة من ابل الملوك ، فلم يزل كذلك حتى مرّ به « حنظلة بن أبى عفراء » وكان أوى المنذر فى خبائه يوم خرج الى الصيد . وذلك أن المنذر ركب فرسه اليحموم فأجراه على أثر حمار وحش فذهب به الفرس فى الأرض ولم يقدر على ردّه ، وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء بالمطر فطلب ملجأ يتقى به حتي دفع الى خباء واذا فيه رجل من طيّ يقال له « حنظلة بن أبي عفراء » ومعه امرأة له ، فقال المنذر : هل من مأوى ، قال حنظلة : نعم ، وخرج اليه وأنزله وهو لا يعرفه ولم يكن للطائى غير شاة فقال لامرأته : أرى رجلا ذا هيئة وما أخلقه أن يكون شريفا خطيرا فماذا نقربه ؟ قالت : عندى شيء من الدقيق فاذبح الشاة وأنا أصنع الدقيق خبزاً ، فقام الرجل الى شاته فاحتلبها ثم ذبحها واتخذ من لحمها مضيرة « أكلة للعرب » فاطعمه وسقاه من لبنها واحتال له بشراب فسقاه وبات المنذر عنده تلك الليلة ، فلما أصبح لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال يا أخا طيّ أنا الملك المنذر فاطلب ثوابك قال : أفعل ان شاء الله تعالى . ثم لحقته الخيل فمضى نحو الحيرة ، ومكث الطائي بعد ذلك زمانا حتى أصابته نكبة وساءت حاله . فقالت له امرأته : لو أتيت الملك لأحسن اليك . فأقبل حتى انتهى الى الحيرة . فوافق يوم بؤس المنذر

كذلك زيد الامر ثم انتقاصه * وتكراره في اثره بعد ما مضي
تصبح فتح الدار والدار زينة * وتأتي الجبال من شماريخها العلى
فلا ذوغني يرجين من فضل ماله * وان قال أخرني وخذ رشوة أبي
ولاعن فقير يأجرن لفقره * فتنفعه الشكوي اليهن ان شكا

فلما نظر المنذر حنظلة وافداً اليه ساءه ذلك وقال له : هلا أتيت في غير هذا اليوم . فقال : أبيت اللعن لم يكن لي علم بما أنت فيه . فقال له : أبشر بقتلك . فقال له : والله قد أتيتك زائرا . ولأهلي من خيرك مائرا . فلا تكن ميرتهم قتلي فقال : لابد من ذلك فاسأل حاجة أقضها لك . فقال : تؤجلني سنة أرجع فيها الى أهلي وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير اليك فأنفذ فيّ حكمك فقال . ومن يتكفل بك حتى تعود . فنظر في وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو أبا الحوفزان بن شريك فأنشد يقول

يا شريكُ يا ابن عمرو * ما من الموت محاله
يا شريك يا ابن عمرو * يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فك اليوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب * وحيا من لا حيا له
ان شيبان قبيل * أكرم الله رجاله
وأبوك الخير عمرو * وشراحيل الحماله
رقياك اليوم في المجد وفي حسن المقاله

فوثب شريك وقال أبيت اللعن يده بيدي ودمه دمي ان لم يعد الى أجله فأطلقه المنذر وأمر له بخمس مائة ناقة وقد جعل الأجل عاما أجدع كاملا من ذلك اليوم الى مثله من العام القابل فلما حال الحول وقد بقي من الأجل يوم واحد قال المنذر لشريك ما أراك الا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك :

فان يك صدر هذا اليوم ولى * فان غدا لناظره قريب

فذهبت مثلا . ولما أصبح وقف المنذر بين قبري نديميه وأمر بقتل

شريك فقال له وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه . فتركه المنذر وكان يشتهي أن يقتله لينجي الطائي . فلما كادت الشمس تغيب قام شريك مجردا في ازار على النطع والسياف الى جانبه . وكان المنذر أمر بقتله فلم يشعر الا براكب قد ظهر فاذا هو حنظلة الطائي قد تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه المنذر قال ما الذي جاء بك . وقد أفلت من القتل ؟ قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء؟ قال ديني قال وما دينك؟ قال النصرانية قال : فاعرضها عليّ . فعرضها . فتنصر المنذر ومن كان معه من أهل الحيرة وترك تلك السنة المستهجنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائي . وقال: ما أدري أيكما أكرم وأوفى . أهذا الذي نجا من السيف فعاد اليه . أم هذا الذي ضمنه . والله لا أكون ألأم الثلاثة فأنشأ الطائي يقول :

ما كنت أخلف ظنه بعد الذي * أسدي الى من الفعال الخالي
ولقد دعتني للخلاف ضلالتي * فأبيت غير تمجدي وفعالي
اني امرؤ مني الوفاء سجية * وجزاء كل مكارم بذّال

(وبعضهم) يقول ان صاحب الغريين ويوم البؤس هو النعمان بن المنذر وهو غير صحيح . والصحيح ما ذكرناه لك وهو المنذر بن ماء السماء جد النعمان كما جاء في أمالي القالي . والاغاني وفي كتاب الاوائل لاسماعيل بن هبة الله الموصلي وغيرهم .

﴿ عوف بن محلم ﴾

كان من وفاء هذا الرجل أن مرواق القرظ بن زنباع غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه حتى أسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمه فلما دخل

عليها قالت له : انك لتختال بأسيرك كانك جئت بمروان القرظ . فقال لها مروان : وما ترجين من مروان . قالت : عِظَم فدائه قال وكم ترجين من فدائه . قالت : مائة بعير . قال مروان : ذلك لك على أن تؤديني الى خماعة بنت عوف بن محلم . وكان السبب فى ذلك ان ليث بن مالك المسمي بالمنزوف ضرطا لما مات أخذت بنو عبس سلبه وفرسه ثم مالوا الى خبائه فأخذوا أهله وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم . وكان الذى أصابها عمرو ابن قارب وذؤاب بن أسماء فسألها مروان القرظ . من أنت . قالت : أنا خماعة بنت عوف بن محلم . فانتزعها من عمرو وذؤاب لانه كان رئيس القوم وقال لها غطى وجهك والله لا ينظر اليه عربى حتى أردك الى أبيك . ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها . ويقال ان مروان قال لعمرو وذؤاب حكماني فى خماعة ، قالا قد حكمناك يا أبا صبهان ، قال فانى اشتريتها منكما بمائة من الابل وضمها الى أهله حتى اذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها الى عكاظ ، فلما انتهى بها الى منازل بنى شيبان ، قال لها هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك ، فقالت : هذه منازل قومى وهذه قبة أبي ، قال فانطلق الى أبيك فانطلقت فخبرت بصنيع مروان ، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه فى أمر خماعة وردها الى أبيها :

رددت على عوف خماعة بعدما ✽ خلاها ذؤاب غير خلوة خاطب
ولو غيرها كانت سبيئة رمحه ✽ لجاء بها مقرونة بالذوائب
ولكنه ألقى عليها حجابه ✽ رجاء ثواب أوحذار العواقب
فدافعت عنها ناشبا وقبيلة ✽ وفارس يعبوب وعمرو بن قارب

فناديتها لما تبين نصفها * بكوم المتال والعشار الضوارب [1]

صهابية حمر العوانين والذرى * مهارش أمثال الصخور مصاعب [2]

فكانت هذه يد مروان عند خماعة فلهذا قال ذلك لها: على أن تؤديني الى خماعة بنت عوف بن محلم . قالت المرأة ومن لى بمائة من الابل فأخذ عودا من الارض فقال هذا لك بها ، فمضت به الى عوف بن محلم فبعث اليه عمرو بن هند أن يأتيه به ، وكان عمرو وجد على مروان فى أمر فآلى أن لا يعفو عنه حتى يضع يده فى يده ، فقال عوف حين جاءه الرسول قد أجارته ابنتى وليس اليه سبيل ، فقال عمرو قد آليت أن لا أعفو عنه أو يضع يده فى يدى ، قال عوف : يضع يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما ، فأجابه عمرو بن هند الى ذلك . فجاء عوف مروان فأدخله عليه فوضع يده فى يده ووضع عوف يده بين أيديهما فعفا عنه عمرو . وقال «لا حرّ بوادى عوف» فارسلها مثلا أى لا سيد به يناويه . وانما سمى مروان القرظ لأنه كان يغزو اليمن وهي منابت القرظ .

﴿ الحارث بن ظالم المرى ﴾

كان من وفائه أن عياض بن ديهث مرّ برعاء الحارث وهم يسقون فسقى فقصر رشاؤه فاستعار من أرشية الحارث فوصل رشاءه فاروى ابله . فأغار

(١) قوله تبين نصفها أى انصافها . والكوم القطعة من الابل والمتالى الذى يراسل المغني بصوت رفيع .

(٢) الاصهب من الابل الذي يخالط بياضه حمرة . وهو أن يحمر أعلى الوبر ويبيض أجوافه . وجمل صهابي أى أصهب اللون والعوان النصف في سنها من كل شئ . وذري الشئ بالضم أعاليه الواحدة ذروة .

بعض حشم النعمان فاطردوا ابله. فصاح يا حار ياجاراه، فقال له الحارث: ومتى كنت جارك، قال. وصلت رشائي برشائك فسقيت ابلي، فاغير عليها وذلك الماء في بطونها، قال جوار ورب الكعبه، فأتى النعمان فقال: أبيت اللعن، أغار حشمك على جاري عياض بن ديهث فأخذوا ابله وماله فاردد ذلك عليه، فقال له النعمان: أفلا تشدما وَهي من أديمك، يريد أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب في جوار أسود بن المنذر: فقال الحارث. هل تعدون الحلية الى نفسي فأرسلها مثلاً، « أي انك لا تملك الا نفسي ان قتلتها » فتدبر النعمان كلمته فرد على عياض أهله وماله ﴿وقال الفرزدق﴾ يضرب المثل لسليمان بن عبد الملك حين وفي ليزيد بن المهلب:

لعمري لقد أوفى وزاد وفاؤه * على كل حال جار آل المهلب
كما كان أوفى اذ ينادي ابن ديهث * وصرمته كالمغنم المتنهب
فقام ابو ليلى اليه ابن ظالم * وكان متى مايسلل السيف يضرب

هذا ما ذكر في أمثال الميداني ﴿وروى﴾ الاصبهاني بسنده في الاغاني أن الحارث بن ظالم المري لما كان نزيلا عند النعمان بن المنذر أخذ مصدق للنعمان ابلا لأمرأة من بني مرة يقال لها ديهث فأتت الحارث فعلقت دلوها بدلوه ومعها بني لها، فقالت يا أبا ليلى انى أتيتك مضامة، فقال اذا أورد القوم فنادى بأعلى صوتك

دعوت بالله ولم تراعي * ذلك داعيك فنعم الداعي
وتلك ذود الحارث الكساعي * يمشي لها بصارم قطاع
* يشفي به مجامع الصداع *

وخرج الحارث بن ظالم في أثرها وهو يقول :

أنا ابو ليلى وسيفي المعلوب * كم قد أجرنا من حروب محروب

وكم رددنا من سليب مسلوب * وطعنة طعنتها بالمضبوب

* ذاك جهيز الموت عند المكروب *

ثم قال لا يردنّ عليك ناقة ولا بعير تعرفينه الا أخذته ففعلت ورأت لقوحا لها يحلبها حبشي فقالت : يا أبا ليلى هذه لي ، قال الحبشي كذبت ، فقال الحارث : أرسلها لا أم لك ، فضرط الحبشي ، فقال الحارث : است الحالب أعلم ، فصارت مثلا ، قال أبو عبيدة ففي ذلك يقول في الاسلام الفرزدق :

لعمري لقد أوفى وزاد وفاؤه * على كل جار جار آل المهلب

كما كان أوفى اذ ينادي ابن ديهث * وحرمته كالمغنم المتنهب

فقام أبو ليلى اليه ابن ظالم * وكان اذا ما يسلل السيف يضرب

وما كان جاراً غير دلو تعلقت * بحبلين في مستحصد القد مكرب

انتهى . والظاهر من الشعر ان رواية الاصبهاني أحق بالاعتبار

﴿ابو حنبل الطائي﴾

من حديث وفاء هذا الرجل ان امرأ القيس نزل به ومعه أهله وسلاحه وماله ، ولأبي حنبل امرأتان جدلية ، وثعلبية ، فقالت الجدلية : رزق آتاك الله به لا ذمة له عليك ولا عقد ، ولا جوار ، فأرى لك أن تأكله وتطعمه قومك ، وقالت الثعلبية . رجل تحرّم بك واستجارك واختارك فأري لك ان تحفظه وتفي له ، فقام ابو حنبل الى جذعة من الغنم فاحتلبها وشرب لبنها ثم مسح بطنه وحجل ثم قال :

لقد آليت أغدر في جداع * وان منيت أمات الدماع[١]

لأن الغدر في الأقوام عار * وان الحر يجزأ بالكراع

فقالت الجدلية ورأت ساقيه حمستين تالله ما رأيت كاليوم ساق واف فقال ابو حنبل : هما ساقا غادر شر ، فذهبت مثلا ،

(الحارث بن عباد)

من حديث وفاء هذا الرجل أيضا انه كان أسر عدى بن ربيعة وهو مهلهل في يوم قضة ولم يعرفه فقال له : دلني على عديّ بن ربيعة ، فقال له : ان أنا دللتك على عدى أتؤمنني قال : نعم ، قال فليضمن ذلك عليك عوف بن محلم . فأمره الحارث بن عباد ، فضمن له عوف بن محلم أن يؤمنه الحارث اذا دله على عدى ، فقال له عدي : أنا عدي ، فخلاه ، وقال الحارث في ذلك

لهف نفسي على عدى وقد أشـ * ـعب للموت واحتوته اليدان

(السموءل بن غريض بن عادياء)

هذا الرجل ممن أسفرت[٢] عنه وجوه الاوراق . ونشرته الثقات[٣] في الآفاق ، وظهرت روايته بالشأم والعراق ، وضربت به الامثال في الوفاء بالاتفاق ، فكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج الى

---

(١) قوله في جداع هي السنة الشديدة التي تجدع بالمال أي تذهب به ومنيت ضعفت . وأم الدماغ الجلدة التي تجمع الدماغ ويقال لها أيضاً أم الرأس .

(٢) أسفرت أضاءت وأشرقت والمراد ظهر في الاوراق

(٣) جمع ثقة وهو الصادق الامين

قيصر ملك الروم استودع السموءل بنته وأدراعه(١) الخمس فلما مات امرؤ القيس بلغ الحارث بن أبي شمر أحد ملوك الغسانيين نبأ موته فقصد تيماء حصن السموءل وبعث اليه أن يعطيه أدراع امريء القيس وما ترك عنده من المال فقال أدفع كل ماله لورثته فحاصره الحارث في الحصن واتفق أن ولدا للسموءل كان بخارج الحصن فظفر به الملك وأخذه أسيراً، ثم طاف به حول الحصن وصاح بالسموءل أن انظر ابنك، فأشرف عليه من أعلى الحصن فقال له اني أسرت ولدك وها هو ذا، فان سلمت لى الدروع التي عندك والا ذبحته، فاختر أيهما شئت. قال: أجلني، فأجله، فجمع اهل بيته ونساءه فشاورهم فكل أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه فلما أصبح أشرف عليه فقال: ما كنت لأخفر ذمامي(٢) وأبطل وفائي. فليس الى دفع الدروع سبيل فاصنع ماأنت صانع، فذبح الولد وأبوه مشرف ينظر اليه فلما عجز الملك عن الحصن ويئس من أخذ الدروع انصرف خائبا، وأبقاها السموءل عنده الي أن حضر ورثة امرئ القيس فسلمها اليهم وفى ذلك يقول:

وفيت بأدرع الكندي إني * اذا ماخان أقوام وفيت
وقالوا انه كنز رغيب * ولا والله أغدر مامشيت
بنى لى عاديا حصنا حصينا * وبئرا كلما شئت استقيت
وأوصي عاديا يوما بأن لا * تهدّم ياسموءل مابنيت

(١) الادراع جمع درع وهو ثوب ينسج من زرد الحديد ونحوه يلبس في الحرب وقاية من تأثير السلاح

(٢) أخفر أنقض وأغدر والذمام الحرمة والحق أي ما كنت لاضيع الحق الذي عليّ

﴿وقال الاعشى﴾ يمدح السموءل ويستجير بشريح بن السموءل من رجل كلبي كان الاعشي هجاه ثم ظفر به فأسره وهو لا يعرفه فنزل بشريح ابن السموءل فأحسن ضيافته ومر بالاسري فناداه الاعشي

شريح لا تتركني بعد ما علقت * حبالك اليوم بعد القدّ أظفاري (١)
كن كالسموءل اذ طاف الهمام به * في جحفل كسواد الليل جرّار (٢)
بالأبلق الفرد من تيماء منزله * حصن حصين وجار غير غدار
اذ سامه خطتي خسف فقال له * قل ما تشاء فاني سامع حار (٣)
فقال غدر وثكل أنت بينهما * فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له * أقتل أسيرك اني مانع جاري
عندي له خلف ان كنت قاتله * وان قتلت كريما غير خوار (٤)
مال كثير وعرض غير ذي دنس * واخوة مثله ليسوا بأشرار (٥)
شبوا على أدب مني بلا نزق * ولا اذا شمرت حرب بأغمار (٦)
فسوف يخلفه ان كنت قاتله * رب كريم وقوم ذات أطهار (٧)
فقال يقدمه اذ قام يقتله * أشرف سموءل فانظر للدم الجاري

(١) القد السير من الجلد . (٢) الجحفل الجيش شبهه بسواد الليل لستره الارض عن العيون (٣) سامه كلفه والخطة الخصلة والخسف النقيصة أي كلفه خصلتي نقص وهما المذكورتان في البيت الآتي الغدر بالوديعة وثكل ولده أي فقده (٤) الخوار الضعيف الرخو . (٥) الدنس الوساخة والمراد به هنا النقص والعيب (٦) شبوا كبروا . والنزق الخفة والعجلة في جهل وحمق . والاغمار جمع غمر بتثليث الغين وهو الجاهل الابله (٧) جمع طاهر أي أبرياء من النقائص

أأقتل ابنك صبراً أو تجيء بها * طوعا فأنكر هذا أيّ انكار (١)
فشك أوداجه والصدر في مضض * عليه منطويا كالدرع بالنار (٢)
فاختار أدراعه كي لا يسب بها * ولم يكن وعده فيها بختار (٣)
وقال لا أشتري عاراً بمكرمة * واختار مكرمة الدنيا على العار
فالصبر منه قديما شيمة خلق * وزنده في الوفاء الثاقب الواري (٤)

﴿ فكيهة بنت قتادة بن مشنوء ﴾

كانت هذه المرأة مشهورة بالوفاء وضرب بها المثل في ذلك . وهي خالة طرفة بن العبد الشاعر المشهور لأن أم طرفة وردة بنت قتادة . وكان من وفائها أن السليك بن السلكة غزا بكر بن وائل فأبطأ ولم يجد غفلة يلتمسها فرأي القوم أثر قدم على شاطئ الماء لم يعرفوها فكمنوا له وأمهلوه حتى ورد الماء وشرب ثم بادروه وهاجوا به فلما علم أنه مأخوذ جاملهم وقصد لادنى بيوتهم فولج قبة فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف وقامت دونه فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت باخوتها وولدها فجاؤها ودفعوا عنه حتي نجا من القتل فقال السليك في ذلك :

لعمر أبيك والانباء تنمى * لنعم الجار أخت بني عوارا

(١) القتل صبرا هو أن يربط حيا ويرمى بشيء حتى يموت
(٢) شك وخز . والاوداج جمع ودج وهو عرق ينتفخ عند الغضب واذا قطع مات صاحبه . وليس للانسان وغيره من الحيوان إلا ودجان وانما جمعها للضرورة أو أراد بالجمع مافوق الواحد والمضض ألم المصيبة
(٣) الختر هو أسوأ الغدر وأقبحه وفي التنزيل العزيز « كل ختار كفور »
(٤) خلق أي قديم . والزند مايقدح به لايجاد النار . والثاقب المضي والواري الموقد

من الخفرات لم تفضح أباها * ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الارداف منها * نقى درجت عليه الريح هارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي * ويتبع الممنعة النوارا
وماعجزت فكيهة يوم قامت * بنصل السيف واستلبوا الخمارا

غيرتهم

(ومما) كان عندهم من الصفات الزاهرة الزاهية . والمحاسن الباهرة الراقية «الغيرة» ولقد اتصفوا بها لأنهم كانوا أشد الناس حاجة الى حفظ الانساب لما امتنعوا عن سلطان يقهرهم ويكف الاذى عنهم ليكونوا به متظافرين على من ناواهم . متناصرين على من شاقاهم وعاداهم . حتى بلغوا بألفة الانساب تناصرهم على القوى وتحكموا به تحكم المتسلط المتشطط فان الرحم اذا تماست تعاطفت والغيرة أساس ذلك ومنها نشأ ضبط الانساب وحفظها كما لا يخفى فانها ثوران الغضب حماية على اكرام الحرم وجعل الله سبحانه وتعالى هذه القوة في الانسان سببا لصيانة الماء وحفظا للانساب ولذلك قيل «كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها» ولقد وصل العرب فى الغيرة الى أن جاوزوا الحد حتى أنهم كانوا يئدون البنات مخافة لحوق العار بهم من أجلهن «أي يدفنونهن وهن أحياء وسيأتى تفصيل ذلك فى محله ان شاء الله تعالى» «وأول قبيلة» وأدت من العرب ربيعة وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت لامير لهم فاستردها بعد الصلح فخيرت رضى منه بين أبيها ومن هي عنده فاختارت من هي عنده وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد ذلك مثل ماوقع له وشاع فى العرب غيرهم

ولقدكان من نخوة العرب وغيرتهم أنهم يكنون عن حرائر النساء بالبيض وقد جاء القرآن الكريم بذلك فقال جل شأنه « كأنهن بيض مكنون »

﴿ وقال امرؤ القيس ﴾

وبيضة خدر لا يرام خباؤها * تمتعت عن لهو بها غير معجل

ويكنون عنهن بالنخلة . وعلى ذلك قول بعض العرب

ألا يانخلة من ذات عرق * عليك ورحمة الله السلام

سألت الناس عنك نخبرونى * هنا من ذاك تكرهه الكرام

وليس بما أحل الله بأس * اذا هو لم يخالطه الحرام

فان هذا الشاعر كنى عن المرأة بالنخلة . والكناية بالنخلة عن المرأة من أظرف الكناية وغريبها . وأنشد ابن الاعرابى لرجل من بني مرة بن عوف يكني عن امرأتين .

أيانخلتي أوْل اذا كان فيكما * جني فانظرا من تطعمان جناكما

ويانخلتي أوْل اذا هبت الصبا * وأمسيت مقروراً ذكرت ذراكما

﴿ وقال وضاح اليمنى ﴾

أيانخلتي وادى بُوانَةَ حبذا * اذا نام حراس النخيل جناكما

ويكنون عنهن بشجرة أو شاة ونعجة وجؤذر « وهو ولد البقرة الوحشية » وريم وما شاكل ذلك ﴿ قال المسيب بن علس ﴾

دعا شجر الارض داعيهم * لينصره السدر والأثأب

فكنى بالشجرة عن النساء . وهم يقولون : « جاء فلان بالشوك والشجر » اذا جاء بجيش عظيم ﴿ وقال عنترة ﴾

ياشاة ماقنص لمن حلت له * حرمت عليّ وليتها لم تحرم

وانما ذكر عبلة جارية أبيه فلذلك حرمها على نفسه . وكذلك قوله « والشاة ممكنة لمن هو مرتم » والعرب تجعل المهاة الشاة لانها عندهم صائنة الظباء ولذلك يسمونها نعجة (١)

(ومن) نخوة العرب وغيرتهم أنه كان من عادتهم اذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال ثم العضاريط والرعاء ثم النساء اذا صدرت كل فرقة عنه فكن يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر عن الماء حتي تصدر النساء فهو الغاية فى الذل . والى ذلك أشارت ﴿ كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ﴾ بقولها من أبيات :

ولا تردوا الا فضول نسائكم ٭ اذا ارتملت أعقابهن من الدم

وقد تستعمل الغيرة فى صيانة كل مايلزم الانسان صيانته فى السياسات الثلاث التي هى سياسة الرجل نفسه . وسياسة أهله ومنزله ، وسياسة مدينته وضيعته ولذلك قيل ليست الغيرة ذبه عن كل ضعيف وتسمي كراهة النعمة عند من لايستحقها غيرة

(١) ولذلك يسمونها نعجة وعلى هذا المتعارف فى الكناية جاء قول الله تعالى في اخباره عن خصم داود عليه الصلاة والسلام « ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة » كني بالنعجة عن المرأة .

(وروي) ابن قتيبة ان رجلا كتب الى عمر رضى الله تعالى عنه .

قلائصنا هداك الله انا ٭ شغلنا عنكمو زمن الحصار
فما قلص وجدن معقلات ٭ قفا سلع بمختلف التجار
يعقلهن جعد شيظمى ٭ وبئس معقل الذود الظؤار

قال فانما كني بالقلص وهى النوق الشواب عن النساء ففهم عمر ما أراده وجلد جعدة ونفاه .

اشهر مشاهير

﴿ من ضرب بهم المثل في الغيرة من الامة العربية فى أطوار الجاهلية ﴾

الغيرة وان كانت قوة انسانية يجب وجودها فى كل جيل فقد كثرت فى العرب حتى أن من دخل دار أحدهم والتجأ الى فنائه عدّوا فعله حرمة وجوارا وذمارا حتى ان تعلق ذلك بالوحشيات والهوام وقد كانوا يسمون بذلك مجير الغزال ومجير الذئب ونحو ذلك وفى الامثال أحمى من مجير الجراد وأحمى من مجير الظعن .

﴿ مجير الجراد ﴾

هو حارثة بن مر أبو حنبل ﴿ من حديثه ﴾ أنه خلا ذات يوم فى خيمته فاذا هو بقوم من طيءٍ ومعهم أوعيتهم فقال ماخطبكم قالوا جراد وقع بفنائك جئنا لنأخذه فركب فرسه وأخذ رمحه وقال والله لايعرضن له أحد منكم الا قتلته انكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار فقال شأنكم به الآن وقد تحول عن جوارى وفيه يقول شاعر طيءٍ

ومنا ابن مُرّ ابو حنبل * أجار من الناس رجل الجراد
وزيدٌ لنا ولنا حاتم * غياث الورى فى السنين الشداد

﴿ مجير الظعن ﴾

هو ربيعة بن مكدّم الكنانى ﴿ ومن حديثه ﴾ فيما ذكره أبو عبيدة أن نبيشة بن حبيب السلمى خرج غازيا فلقى ظعنا من بني كنانة بالكديد فأراد

أن يحتويها فمانعه ربيعة بن مكدم فى فوارس وكان غلاما له ذؤابة [١] فشد عليه نبيشة فطعنه فى عضده فأتي ربيعة أمه فقال : اجعلى على يدي عصابة ، وهو يرتجز ويقول

شدّى علىّ العصب أم سيار * فقد رزيت فارسا كالدينار

* يطعن بالرمح امام الادبار *

﴿ فقالت له أمه ﴾

انا بنى ثعلبة بن مالك * مرزؤ أخيارنا كذلك

من بين مقتول وبين هالك * ولا يكون الرزء الا ذلك

ثم عصبته فاستسقاها ماء ، فقالت . ان شربت الماء مت فكرّ على القوم . فكر راجعا يشتد على القوم وينزفه الدم حتى أثخن . فقال للظعن أوضعن ركابكن حتى ينتهين الى أدنى البيوت من الحي فانى هالك لما بى وسأحميكن ميتا كما حميتكن حيا بأن أقف بفرسي على العقبة وأتكيء على رمحى فان فاضت نفسى كان الرمح عمادى فالنجاء النجاء فانى أردّ بذلك وجوه القوم ساعة من النهار . فقطن العقبة ووقف هو بازاء القوم على فرسه متكئا على رمحه ونزفه الدم ففاض والقوم بازائه يحجمون عن الاقدام عليه . فلما طال وقوفه فى مكانه ورأوه لا يزول عنه . قال نبيشة بن حبيب انه لمائل العنق وما أظنه الا قد مات فأمر رجلا من خزاعة كان معه أن يرمي فرسه فرماها فنفرت وزالت فمال عنها ميتا (قال) ويقال الذى رمي فرسه نبيشة ، فألقوا على ربيعة أحجارا وطلبوا الظعن فلم يلحقوهن ، ومر بربيعة رجل من بني

(١) الذؤابة الضفيرة من الشعر اذا كانت مرسلة

الحارث بن فهر فنفرت ناقته من تلك الاحجار التي أهيلت عليه فقال يرثيه ويعتذر أن لا يكون عقر ناقته على قبره وحض على قتلة ربيعة وعير من فر وأسلمه من قومه .

نفرت قلوصي من حجارة حرة * بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري ياناق منه فانه * سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه * لتركتها تحبو على العرقوب
فر الفوارس عن ربيعة بعدما * نجاهمو من غمرة المكروب
يدعو عليا حين أسلم ظهره * فلقد دعوت هناك غير مجيب
لا يبعدن ربيعة بن مكدم * وسقى الغوادي قبره بذنوب

قال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء ما نعلم قتيلا حمى الاظعان حيا وميتا غيره . وبلغ شعر هذا الشاعر المجيد بني كنانة فقالوا . والله لو عقرها لسقنا اليه ألف ناقة سود الحدق * وللعرب فى رثاء ربيعة بن مكدم شعر كثير [1]

(١) وللعرب فى رثاء ربيعة بن مكدم شعر كثير منه قول (ابن جذل بن الطعان)

ألا لله در بني فراس * لقد أورثتمو حربا وجيعا
فلن أنسى ربيعة اذ تعالى * بكاء الظعن تدعو ياربيعا

(وقال رجل من بني الحارث بن الخزرج)

ولاصدقن الى حذيفة مدحتي * لفتى اليسار وفارس الارجاف
مأوي الضريك اذا الرياح تناوحت * ضخم الدسيعة مخلف متلاف
من لا يزال يكب كل ثقيلة * كوماء غير مسائل متراف
رحب المباءة والجناب موطأ * مأوي لكل معتق بسواف
فسقى الفوادى رمسك (ابن مكدم) * من صوب كل مجلجل وكاف
أبلغ بني بكر وخص فوارسا * لحقوا الملامة دون كل لحاف

عفوهم عند المقدرة

ومما كان عندهم من الخصال الجليلة والمحاسن الجميلة ﴿العفو عند المقدرة﴾ ولهم في ذلك ما ليس لغيرهم

أسلمتمو جذل الطعان أخاكمو * بين الكديد وقلة الأعراف
حتى هوى متمايلا أوصاله * للحد بين جنادل وقفاف
لله در بني علي انهم * لم يثأروا عوفا وحي حقاف

(قال الاثرم) الأعراف كل ما ارتفع ومنه قوله تعالى «ونادى أصحاب الاعراف

(وقال كعب بن زهير يرثيه أيضاً)

بان الشباب وكل الف بائن * ظعن الشباب مع الخليط الظاعن
قالت أميمة ما لجسمك شاحبا * وأراك ذا بث ولست بدائن
غضي ملامك ان بي من لومكم * داء أظن مماطلي أو قاتني
ابلغ كنانة غثها وسمينها * الباذلين رباعها بالقاطن
ان المذلة أن تطل دماؤكم * ودماء عوف ظاعن في الظاعن
أموالكم غرض لهم بدمائهم * ودماؤكم كلف لهم بطعائن
طلبوا فأدرك وترهم مولاهم * وأبت محاملكم إباء الحازن
شدوا المآزر واثأروا بأخيكم * ان الحفائظ نعم رمح الثامن
كيف الحياة (ربيعة بن مكدم) * يعدى عليك بزهر أو كائن
ومن العريكة بالعراق وحارب * نقع القراقر بالمكان الواثن
كم غادروا لك من أرامل عيل * جزر الضباع ومن ضريك واكن

(وقالت أم عمرو ترثي أخاها ربيعة)

ما بال عينك منها الدمع مهراق * سحا ولا غارب لالا ولا راقي
أبكي على هالك أودي فأورثني * بعد التفرق حزنا بعده باقي

(فمن ذلك) قصة دريد بن الصمة مع ربيعة بن مكدم فان الاول خرج في كتيبة فرأى الثاني يقود ظعينة فبعث اليه أحد أصحابه وقال له اقتله وائتني بالظعينة فقتله ربيعة فبعث اليه آخر فقتله حتى قتل الثالث فخرج اليه بنفسه فوجده قد انكسر رمحه وبقي أعزل فقال له أيها الفارس ان مثلك لا يقتل واني لا أرى معك رمحاً فخذ رمحي واني مثبط عنك القوم ثم رجع الى القوم

لو كان يرجع ميتاً وجد ذي رحم * أديم لي سالماً وجدي واشفاقي
لو كان يفدى لكان الاهل كلهم * فدي وما أثمر من ماله واقي
لكن سهام المنايا من تصير له * لم يغنه طب ذي طب ولا راقي
فاذهب فلا يبعدنك الله من رجل * لاقي الذي كل حي مثله لاقي
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة * وما سريت مع الساري على ساق
أبكي لذكره عبري مفجعة * ما ان يجف لها من ذكره ماقي

(وقال آخر يرثيه)

خلى علىّ (ربيعة بن مكدم) * حزناً يكاد له الفؤاد يزول
فاذا ذكرت (ربيعة بن مكدم) * ظلت لذكراه الدموع تسيل
نعم الفتى حياً وفارس بهمة * يردى بشكته أقب ذؤول
سبقت به أم الكديد رمية * والناس اما هالك وقتيل
فاذا لقيت (ربيعة بن مكدم) * فعلى (ربيعة) من نداه قبول
كيف العزاء ولا تزال خريدة * تبكي ربيعة غادة عطبول
يأبي لك الله المذلة انما * يعطي المذلة عاجز تنبيل

(وقال أيضاً)

دعت الظعينة ياربيعة بعدما * لم يبق غير حشاشة وفواق
فاجابها والرمح في حيزومه * أنفا بطعن كالعشيب دفاق
يا ربط أين (ربيعة بن مكدم) * وربيع يومك اذ دنا بفراق
ولئن هلكت لرب فارس بهمة * فرجت كربته وضيق خناق

وقال لهم قتل أصحابكم وانتزع رمحي فلا مطمع لكم فيه وقال

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * حامي الظعينة فارساً لم يقتل
ياليت شعري من أبوه وأمه * يا صاح من يك مثله لا يجهل

ثم لم تلبث بنو كنانة رهط ربيعة بن مكدم أن أغاروا على بني جشم رهط دريد فقتلوا منهم وغنموا وأسروا دريد بن الصمة فأخفى نفسه فبينا هو عندهم محبوس اذ جاءه نسوة يتهادين اليه فصرخت احداهن فقالت هلكتم وأهلكتم ماذا جر علينا قومنا !؟ هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة ثم ألقت عليه ثوبها وقالت يا آل فراس أنا جارة له منكم هذا صاحبنا يوم الوادي فسألوه من هو قال : أنا دريد بن الصمة فمن صاحبي ؟ قالوا : ربيعة بن مكدم . قال فما فعل ؟ قالوا : قتلته بنو سليم . قال فما فعلت الظعينة ، قالت المرأة ، أنا هيه وأنا امرأته فحبسه القوم وآمروا انفسهم . فقال بعضهم ، لا ينبغي لدريد أن نكفر نعمته على صاحبنا . وقال آخرون والله لا يخرج من أيدينا الا برضا المخارق الذي أسره . فانبعثت المرأة في الليل وهي ريطة بنت جذل الطعان تقول :

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمة * وكل امرئ يجزي بما كان قدما
فان كان خيراً كان خيرا جزاؤه * وان كان شراً كان شراً مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة * باعطائه الرمح الطويل المقوما
فقد أدركت كفاه فينا جزاءه * وأهل بأن يجزى الذي كان أنعما
فلا تكفروه حق نعماه فيكمو * ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما
فلو كان حياً لم يضق بثوابه * ذراعا غنيا كان أو كان معدما
ففكوا «دريداً» من اسار مخارق * ولا تجعلوا البؤسى الى الشر سلما

فلما أصبحوا أطلقوه فكسته وجهزته ولحق بقومه ولم يزل كافا عن غزو بني فراس حتى هلك * فلينظر الأديب الى مقابلة العرب الجميل بالجميل فهكذا هكذا المآثر الجليلة والسجايا الجميلة .

فعوّد نفسك أيها الأديب الصفح عن كل مذنب مهما كثرت معايبه ونقائصه وان استطعت الغلبة والانتصار . وأحسن الى من أساء اليك فان هذا ماتصل اليه حميد أخلاقك . لأن احسانك الى من أحسن اليك هو من الواجبات قال جل شأنه : « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » ومما يتبع « العفو عند المقدرة » من كريم أخلاق العرب العالية ومحمود سجاياهم الفاضلة ﴿ مودتهم ﴾

مودتهم

ومما كان عندهم من المحاسن الجلية . والافعال المرضية ﴿مودة ذوي القربى﴾ وهي من آكد ما حثتنا عليه شريعتنا السمحاء باتباع تلك العادة الحسناء لما اشتملت عليه من الفوائد النافعة والمزايا الساطعة والآداب السامية والكمالات الراقية:

ولعمري انها لمن أفضل الخصال وأجمل الخلال فبها يكثر التواصل والتوادد وتؤمن الغوائل ويزول التباغض والتحاسد وتستحال القلوب وتلتئم الشعوب وتصفو الضمائر وتحسن السرائر ولذا حث الشارع عليها وبالغ في التمسك بها حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سببا فى ادرار الرزق وسعته وفاتحة الخير وزيادته فقال عليه الصلاة والسلام (ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم حتى ان اهل البيت ليكونون فجاراً فتنمو أموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا أرحامهم) وقال تعالى فى الحث على صلة الرحم وبيان ان ذوى القرابات فى

ايصال الخيرات بعضهم أولى ببعض (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شئ عليم):

وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرهم وقد اكثر شعراؤهم فى مدح صلة الرحم والافتخار بها ﴿فمن ذلك﴾ قول شاعرهم حاتم الطائى الجواد الشهير.

وما من شيمتي شتم ابن عمى * وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم * سمعت فقلت مري فانفذيني
فعابوها علىّ ولم تسؤنى * ولم يعرق لها يوماً جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقا * وليس اذا تغلب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنه * محافظة على حسبي وديني

﴿وقال آخر﴾

لأدفع ابن العم يمشى على شفاً * وان بلغتني من أذاه الجنادع[1]
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه * لترجعه يوما الىّ الرواجع
وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذي القربى وان قيل قاطع

﴿وقال الهذيل بن مشجعة البولاني﴾

انى وان كان ابن عمىّ غائبا * لمقاذف من خلفه وورائه[2]
ومفيده نصرى وان كان امرأ * متزحزحا فى أرضه وسمائه[3]

(١) جنادع الشر أوائله واحدها جندعة وأصل الجنادع دواب تكون في جحرة الضباب فاذا جاء المضب فرآها قال هذه جنادعة

(٢) المقاذف المرامي ووراء هنا بمعنى قدام لانه قد ذكر معه خلف معناه أنه يدافع عن ابن عمه من قدامه ومن خلفه وان كان غائبا

(٣) المتزحزح المتباعد والمعنى أنه قائم بشأن ابن عمه وان تباعد عنه في أي موضع كان

ومتى أجئه في الشدائد مرملا * ألق الذي في مزودي لوعائه (١)
واذا تتبعت الجلائف مالنا * خلطت صحيحتنا الى جربائه (٢)
واذا أتى من وجهة بطريفة * لم أطلع مما وراء خبائه (٣)
واذا اكتسى ثوبا جميلا لم أقل * ياليت أن عليّ حسن ردائه (٤)

وقال آخر من قصيدة (٥)

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه * بحلمي عنه وهو ليس له حلم

(١) المرمل الذي نفد زاده والمزود وعاء معناه أني أنفعه في كل شدة يقع فيها

(٢) الجلائف جمع جليفة وهي السنة الشديدة التي تذهب بالاموال ٠ وقوله خلطت صحيحتنا الي جربائه من الامثال يعني نخلط فقره بغنانا وغثه بسميننا والمعنى اذا افتقر ابن عمنا ساعدناه باموالنا ٠

(٣) من وجهة أي من سفر والطريف مايستطرفه الانسان من المال ويستحدثه والخباء من الابنية يكون من صوف أوشعر منصوبا على عمودين أو ثلاثة وما فوق ذلك فهو بيت يشير بهذا البيت الى تنزيه نفسه عن الطمع فيما ليس له

(٤) هذا البيت يدل على عدم منافسة العرب وترك الحسد

(٥) هذه القصيدة من أحسن ماقيل في الحلم والمودة وهي

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه * بحلمي عنه وهو ليس له حلم
يحاول رغمي لايحاول غيره * وكالموت عندي أن يحل به الرغم
فان أعف عنه أغض عينا على قذي * وليس له بالصفح عن ذنبه علم
وان أنتصر منه أكن مثل رائش * سهام عدو يستهاض بها العظم
صبرت على ما كان بيني وبينه * وماتستوي حرب الاقارب والسلم
وبادرت منه النأي والمرء قادر * على سهمه مادام في كفه السهم
ويشتم عرضي في المغيب جاهدا * وليس له عندي هوان ولا شتم
اذا سمته وصل القرابة سامني * قطيعتها تلك السفاهة والاثم

اذا سمته وصل القرابة سامني * قطيعتها تلك السفاهة والاثم
يحاول رغمي لا يحاول غيره * وكالموت عندي لا يقال له رغم
فما زلت في لين له وتعطف * عليه كما تحنو على الولد الام
لأستل منه الضغن حتى سللته * وان كان ذا ضغن يضيق به الجرم

ناهيك أيها الاديب اللبيب بما قد جاء في هذه القصيدة من الحكمة الرائعة . والفلسفة الساطعة مما لم يقل عن الفلاسفة الكبار فى أرقى الامم

وأنى لا يكون ذلك كذلك وقد كان عبد الملك بن مروان ذات ليلة فى سمره مع ولده وأهل بيته وخاصته فقال لهم ليقل كل واحد منكم أحسن

وان أدعه للنصف يأب ويعصني * ويدعو لحكم جائر غيره الحكم
فلولا اتقاء الله والرحم التي * رعايتها حق وتعطيلها ظلم
اذاً لعلاه بارقي وخطمته * بوسم شنار لا يشاكه وسم
وبسعي اذا أبني ليهدم صالحي * وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يود لواني معدم ذو خصاصة * وأكره جهدي أن يخالطه العدم
ويعتد غنما فى الحوادث نكبتي * وما ان له فيها سناه ولا غنم
فما زلت في لين له وتعطفي * عليه كما تحنو على الولد الام
وخفض له مني الجناح تألفاً * لتدنيه مني القرابة والرحم
وقولي اذا أخشى عليه مصيبة * ألا اسلم فداك الخال ذو العقد والعم
وصبري على أشياء منه تريبني * وكظمي على غيظي وقد ينفع الكظم
لاستل منه الضغن حتى استللته * وقد كان ذا ضغن يضيق به الجرم
رأيت انثلاما بيننا فرقعته * برفقي وأحيائي وقد يرقع الثلم
وأبرأت غل الصدر منه توسعا * بحلمي كما يشفي بالادوية الكلم
فداويته حتي ارفأن نفاره * فعدنا كأنا لم يكن بيننا صرم
وأطفئ نار الحرب بيني وبينه * فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم

ما قيل في الشعر وليفضل من رأى تفضيله فأنشدوا وفضلوا فقال بعضهم امرؤ القيس وقال بعضهم النابغة وقال بعضهم الاعشى فلما فرغوا قال أشعرهم والله الذي يقول (وذى رحم الخ) وهي لمعن بن أوس المزنى : فلله درّه ، فما أعذب قوله ، وما أجمل فعله ، وما أبلغ حكمته ، وما أحسن موعظته ، وما أجل سياسته ، وما أعظم شجاعته ، وما أكمل حلمه ، وما ألين عريكته لذى قرابته ، وصلة رحمه : ! ولا غرو فان المطلع على شعر هذا الحكيم الحليم لا يكاد يقرأ بيتا من أبياته دون أن يقع على حكمة بالغة أو موعظة حسنة أو نبذة شريفة في تهذيب الأخلاق مبثوثة فى خلال أقواله بثا

وكثيراً ما يجد الانسان أمثال هذه الفلسفة فى شعرهم وكلها على هذا النسق الجميل درر غالية وحكم عالية وهذا مما يدل على سلامة أذواقهم وحسن أفكارهم

ولو تفكرت مليا أيها الاديب فى قوله «فما زلت فى لين له الخ» حتى سلّ منه عداوته ظهر لك جليا أنها حكمة بالغة عملا بقوله تعالى (ادفع بالتى هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم) أجل هذه هى أجل وسيلة فى جلب الحوادث مع ذوي القرابة وغيرهم ولقد صدق من قال

انى بلوت الناس فى حالاتهم * وخبرت من وصلوا الى الاسباب

فاذا القرابة لا تقرب قاطعا * واذا المودة أقرب الانساب

فحبذا لو سمعت أيها الاديب الكريم، قول هذا الشاعر الحكيم، وودت الاهل والاقارب ووصلت رحمك ، وتقربت منهم لفزت برضاهم ورضا الله تعالى نعم يجب عليك أن تداوم زيارتهم، وتعمل لاستمالتهم ومواساة ضعيفهم، ومساعدة فقيرهم والمحافظة على كرامتهم، والعناية في تفقد أحوالهم، وتصل حبال البعيد منهم

ولا تنقطع عنهم . ولله در الشاعر الجاهلى القديم حيث يقول

فصل حبال البعيد ان وصل الحبـ * ـل وأقص القريب ان قطعه (١)

واياك أن تقطع صلة الارحام ومودتهم لانها كبيرة قال الله تعالى «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل (٢) ويفسدون فى الارض أولئك هم الخاسرون» ومن حميد صفاتهم العالية وجميل محاسنهم الفاضلة ﴿اجتناب النميمة﴾

اجتنابهم النميمة

ومما كان عندهم من محمود الشيم العالية وكريم السجايا السامية ﴿اجتناب النميمة﴾ وحسبك أيها الاديب أن النميمة من أسوا الخصال الذميمة ، وأقبح الخلال الرديئة ، قال تعالى «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء

(١) هذا البيت الزاهر من قصيدة للاضبط بن قريع السعدي كلها حكم رائعة ومواعظ ساطعة ودرر غالية وأمثال عالية وهى

لكل ضيق من الامور سعه * والمسى والصبح لافلاح معه
مابال من سره مصابك لا * يملك شيئا من أمره وزعه
أذود عن حوضه ويدفعنى * ياقوم من عاذري من الخدعه
حتى اذا ما انجلت عمايته * أقبل يلحي وغيه نجعه
قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه
فاقبل من الدهر ما أتاك به * من قر عينا بعيشه نفعه
فصل حبال البعيد ان وصل الحبـ * ـل وأقص القريب ان قطعه
ولا تهين الفقير علك ان * تركع يوما والدهر قد رفعه

(٢) أن يوصل أي من الرحم والاهل والاقرباء

بنميم » وقال عليه الصلاة والسلام « شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ﴿وقال الشاعر﴾

تنح عن النميمة واجتنبها * فان النم يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر * ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلما * وليس النم من أفعال حر

ولا ريب أن النميمة ديدن كثير من أهل هذا العصر فحبذا لو اجتنبوها كما اجتنبها أولئك الذين عاشوا في الفيافي والقفار (ومما يؤيد) اجتنابهم لها قول شاعرهم ﴿عدي بن خزاعي﴾

ولست « بذي نيرب » في الكلام * ومناعَ قومي وسبابها
ولا من اذا كان في معشر * أضاع العشيرة واغتابها
ولكن أطاوع ساداتها * ولا أعلم الناس ألقابها

والنيرب الشر والنميمة (ومما يتبع) اجتناب النميمة من كرم السجايا، وشرف المزايا ﴿الحرية﴾

حريتهم

ومما كان عندهم من محمود الشيم الغريزية، وجليل الاخلاق المرضية، وشريف الصفات الطبيعية، التي أيدتها الديانة الاسلامية، لما ينجم عنها من أسمى الفوائد الكاملة، وأرقى المزايا الفاضلة ﴿الحرية﴾ وحسبك أيها الاديب أنها منبع الرقيّ، ومعدن العمران وأصل الحضارة، وروح التقدم، وسر التمدين، وداعي الاتحاد، وسبب الائتلاف، وباعث التضامن بين الامم المهضومة حقوقها، والشعوب المغلوبة على أمرها، وايم الحق انها لزينة الحياة،

وعزاء الاسيف ، وجزاء المجاهد ، وبهجة العالم ، وأمنية البائسين ، ومطمح نظر المظلومين ، ومحط آمال المستعبدين ،

(ومما) يناسب أن نذكره في هذا المقام ماجاء في بعض دروس طلبة مدرسة « المعلمين الناصرية » التى أمليت عليهم فى الاخلاق عن الحرية . وهاك نصه :

« الحرية لها معنيان . الاول الحرية المتداولة بين الجمهور . والثانى لها عند الباحثين فى النفس . فالحرية بالمعنى الأول كون الشخص مطلق التصرف فيما ينبغي أو كون الأمة تحت سلطة القانون لا تحت شخص . ومن الخطل أن يظن أنها اطلاق ارادة الشخص فى كل شئ . فالحرية بهذا المعنى الأول سبب فى حراسة دماء الأمة وأموالها وكفيل لها بعدم وقوعها تحت تسلط السعاية والطمع والغاية السافلة والاعراض الشخصية وأساس تقدمها فى كل شئ . أسائلك فقل لي بربك اذا كان الحاكم شحيحاً حريصاً على جمع المال لا يرقب فى اقتنائه إلاً ولا ذمة فالى أي حال يكون مصير الأمة ؟؟

انه لم يبق على وجه الأرض من يرضى بالحكومات الشخصية الا الأذلاء الذين قتلت فيهم الحمية والاباء فصاروا الى الاستسلام فى كل شئ :

ألا ترى الانسان فى جميع بقاع الأرض مغرى بطلبها لأنها شئ ثمين لديه تبعا لما له فى ذاته ومن ألقى عن كاهله نير الاستعباد والقهر فقد حط عن نفسه حملا ثقيلا على الحر . انك تجد الطوائف كلها تسعى فى طلب الحرية سواء كانوا فى مراتب عالية أو مهن حقيرة . الخادم مثلا يحاول أن يخرج من القيود التي جعله فيها كونه خادما . لاحظت فى القري ان نهاية اكثر الخدمة أن يذروا الخدمة مع ما يكتنفها من خفض العيش ويصيروا الى غيرها من الاعمال التي تحفها المتاعب وخشونة العيش . ذلك لأن الحرية شئ نفيس

يضحى فى طريقه كل شيء ويحتمل معه كل شيء .

الجواد النشيط متى توالى عليه سوطك اشتد فى السير ونفر كأنه يحاول أن يلقيك من فوق ظهره ويلجأ الى ساحة الحرية الفسيحة وقد تكون الحرية فى الفكر والقول والعمل فلك أن تقول وتفعل كل شيء مع مراعاة الشرع والأدب ومع المشورة والا فقد طلبت الحرية ووقعت فى الاستبداد .

ومما هو جدير بالتبصر أن يأخذ الناس بالحزم فى أعمالهم التي يرونها لهم بمقتضى حريتهم والا اختلطوا وعاد عليهم عدم التبصر بالضرر . فالمدره (المحامي) الذي له حق الدفاع بحرية تامة اذا هذى فى كلامه وصار الى البذاءة والسفاهة لا يلبث حتى يسلب حق القول ويمنع من الدفاع العادل بل ويطرد من امام القاضي . والطالب الذي له حق الخروج من فناء المدرسة فى أوقات الرياضة والفراغ من الدرس اذا ساقه هذا الى صرف شيء من زمن الدرس خارج المدرسة لا يلبث حتى يحظر عليه الخروج من فنائها الا باذن وربما جر هذا الى حظر الخروج على الطلبة كلهم فمجاوزة الحدود وفض القيود سعي فى التضييق ومخالفة الآداب ليست من الحرية فى شيء . ومخالفة الشرائع ليست من الحرية فى شيء . وعدم توقير الكبار ليس من الحرية فى شيء فكل هذا مما لا ينبغي . لك أن تحافظ على حقك فى كل شيء ولكن مع احترام سنة الأدب . ويظهر أنه لا ينبغي رفع القيود مرة واحدة عن الأمم التي طال عليها أمد الاستبداد ولم يكن لها حظ من التربية لأنه ليس لها وازع من أخلاقها وآدابها وتربيتها بل من صالحها أن يفك عنها الحجر وتوضع لها القوانين بمقدار تدرجها فى التربية حتى تصير فى حرية كاملة واذا رفعت عنها القيود مرة واحدة غشيت كما يغشى الذى طال مكثه فى الظلمة ثم دفع فجأة فى ضوء شديد ولا تلبث حتى

يلحقها منها ضرر كطفل تعطيه سكينا يلهو به فانك لا تلبث حتى تسمع عويله لأن السكين أصاب عضواً من أعضائه. فلنجتهد في اقناع أنفسنا هذه التي كاد الظلم يقضي عليها في أن نكون أحراراً في أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ولكن مع الادب. ولنجتهد أن لا تكون نفوسنا التي بين جنوبنا قد أملتها الظلم الذي هو أكبر عائق لنا عن الحرية ما دمنا محافظين على الشرع والأدب فلا سلطان علينا لأحد وان كان له التاج والا فنحن عبيد لكل أحد. لا ينبغي لنا أن نقف بين يدي أحد موقف الخشوع والرهبة الا بين يدي الله تعالى

والحرية بالمعنى الثاني خلوص النفس في تصرفاتها من هواها والانفعالات الوقتية وخضوعها في أفعالها للعقل والغاية الصحيحة. وقد كتب بولزن الالماني عن هذه الحرية قولا نافعا في كتابه (نظام الاخلاق) رأيت أن أعرب منه ما يأتي

قال «من هنا يتضح أن الحرية ليست أمراً غريزيا بل هي شيء كسبي وصلت اليه الأجيال المتعاقبة تدريجا وكذلك يصل اليه الأشخاص. لا يولد الطفل بحرية تامة بل يولد كالحيوان خاضعا للبواعث الحيوانية والاميال الوقتية ثم يرتقي بالتدريج معتمدا في ارتقائه على التربية الى الحرية الكاملة. والناس مختلفون في الارادة التي يصلون اليها. فمنهم من يبقى في رتبة منحطة قريبا من الحيوان بحيث يقضي حياته تحت سلطان الشهوة والميل. ومنهم من يصل الى درجة تشرئب اليها الاعناق بحيث لا يعمل شيئا صغيراً كان أو كبيراً ولا يتركه الا عن تروٍّ وارادة حقة كما أن خضوع الشخص لشهواته وأمياله أمر معيب شائن فتذليله للطبيعة وتسلطه عليها فيه من المشاق ما فيه «ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها» اذ من البين أن الانسان بين الحيوان والعقل الصرف وهل

يمكن الانسان أن يصوغ أخلاقه كما يشاء ويصور نفسه كما يهوى؟

نم لأنه بلا شك مستعد لأن يربيها. يمكن الانسان أن يصوغها ظاهراً وباطنا كما يشاء حتى يؤهلها لادراك الكمال الذي ينظر اليه. يمكنه أن ينظم أميالها الطبيعية ويمكنه أن يقهرها ويغلب عليها حتى يدعها بلا حركة غير أن هذا مما لا يدرك بالتمني بل بالجد المتواصل والوسائل النافعة كالوسائل التي تتخذ عند تدريب الجسم على قبول العادة فاذا اضطجع الانسان وطال عليه الوقت وارق لا يستطيع أن يجلب النوم بمجرد ارادته بل انما يستطيع جلبه فى أوقاته بواسطة تعديل مأكله ومشربه وعمله . يروون ان دمستين كانت موهبته من النطق ناقصة لقصور فيه وخفاء وقد أراد مع هذا أن يكون خطيبا ماهراً فلم يستطع بمجرد هذه الارادة تقويم مخارج الحروف بالغلبة بل عمد الى التمرين من طرق شتى حتى استخدم الطبيعة فى مطلبه . بمثل هذا يمكنك تذليل الطبيعة فاذا آنس امرؤ من نفسه حدة شديدة وقصد علاجها منها لا يستطيع بمجرد المعرفة والقصد أن يدفع الغضب عند عروضه عليه بل انما يكون ذلك سببا فى حصوله على الوسائل الموافقة التي تزيل تلك الحدة تدريجا فيبتعد الانسان عن الاسباب التي تهيج غضبه فانه اذا سكت عنه الغضب زمنا واضمحل تهيؤه له يملأ خاطره أمثلة لما ينشأ عن الغضب من الآثار السيئة ويديم النظر فى غاية قهر الشخص لنفسه وغلبته عليها بحسبه وقد اعتاد الناس تلاوة حكمة أو شيء من الدين متى ثار غضبهم. واذن فلا نشك أن الشخص يستطيع أن يحدث فى نفسه تغييراً بواسطة ارادته ليستطيع أن يقتل فيها الدواعى القوية بالاباء عن عمل ما يقتضيه كما يستطيع أن يحيي الدواعى الميتة بروح من العمل فان العادة كما قيل طبيعة ثانية هذا من جهة

ومن جهة ثانية يقال من الواجب أولا أن يكون فى الشخص هذا الأساس الذي يبني عليه تغيير أخلاقه وليس من الممكن أن يحصله لنفسه بارادته فانه نفس ارادته . فقط يتأتى له بما عنده من الارادة تحصيل الاخلاق الكسبية مع توالى الأيام . وبهذا الاعتبار يكون ماذهب اليه «شوبنهور» من ان الاخلاق لاتتغير صحيحا . فالذي لا يشعر بضرر الغضب ولا بعار الجبن والكذب وليس لديه الارادة التي تدفعه الى عكس ذلك لا يستطيع بحكم الضرورة أن يعود نفسه الحلم والشجاعة والصدق أما اذا أراد أن تغيير طبيعة الانسان وخطته فهو مخطئ وليس مذهبه خطأ فقط بل خطر أيضا لأنه يوقعه فى اليأس . وبالجملة ينبغي أن يقال ـ من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك وما عليه الا أن يعتصم بالأسباب القوية والوسائل النافعة لا بالآمال الكاذبة والأمانيّ » اه

ولقد كان العرب يحبون الاستقلال ويعشقون الحرية ويبذلون في سبيلهما النفوس والأموال وقد كانوا متفيئين بظلها ، مهتدين بساطع ضيائها ، مجاهدين فى سبيلها ؛ ذائدين عن حوضها ، حاملين للوائها ، رافعين لمنار علمها لأنهم علموا أن الحياة بدونها بلا قيمة ، بل الوجود كالعدم والبقاء كالفناء : فما كان العربى ليدين بالخضوع لملك اذلا مأوى له مخصوصا يستقر فيه حتى تسرى عليه الاحكام ، ويدخل فيه تحت قيود النظام ، ولم يكن عند العرب وازع أكبر من ضمائرهم ، ولا رادع الا سيوف مقاومهم ، وان وجد عندهم قيل أو أمير فما هو الا فرد رآه قومه امتاز بشجاعة . أو قديم حسب أو كبير خبرة وذكاء ، أو قوة نصير من عشيرته وأهله الأدنين ، فتلقى لمثل هذا مقاليد قبيلته على أنه فرد منهم سوّدوه بينهم فشرف بهم ، وخضوعهم له خضوع عصبية وائتلاف ، لا خضوع تملك وسلطان ، وقد كانوا ينظمون له خرزات تشبه

التيجان علامة على شرفه وليس له حق جباية مال الا اذا ساعدوه فى حمالة قام بها أو تضامنوا معه فى دية وجبت على عاقلتهم وقد يميز «بالمرباع» وهو ربع ما يغنمه قومه فى غاراتهم ازاء نار يوقدها وضيفان يكرمهم فكأنهم يعتبرون بيته بيت القبيلة كلها وهو لا يمتاز فيه عن فرد منهم الا باجتماع كلمتهم عنده .

ولم يتوج فى وسط الجزيرة أحد ولكن تأسست فى أطرافها الممالك وتوجت الملوك بما أثر فيهم من الامم المجاورة التى كانت تهتم بذلك لان العرب آذتهم بالاغارة على أطرافهم فأحبوا أن يتقوا العرب بالعرب فسعوا فى تقوية أمر انقاد لها من العرب من يليها . فخضع سكان الشرق للمناذرة ملوك الحيرة بتعضيد الأكاسرة ملوك الفرس كما خضع سكان الشمال من نحو مشارف الشام للغسانيين بمساعدة القياصرة ملوك الروم .

ولم تقم دولة من العرب « الصرحاء » الا التى أسسها قحطان فتلك مملكة عريقة فى قدم العهد ومع هذا فقد كانت تتأثر طوراً بالأكاسرة وآونة بالقياصرة بوساطة ملوك الحبشة - وأما بقية سكان الجزيرة فوقتهم حصونهم الطبيعية ذلة الخضوع للملوك الا ما كان يحصل فلتة من الخلاف بين الاقارب المتناظرين فيلجئون الى من يميلون اليه من الملوك فيولى عليهم من يسوسهم وقتا ما ثم لا يلبثون ان يتألبوا عليه كما حصل فى تولى ملوك كندة آباء امرئ القيس على نجد وهم فى الأصل حضرميون . ثم قتلت بنو أسد « حجراً » وعادوا لما كانوا عليه كما ذكرنا لك ذلك فيما تقدم

فالخلاصة أن سكان أواسط الجزيرة استعاضوا المدن والقصور بظهور الابل والخيل واستبدلوا بالقوانين والنظامات قوة التناصر الاهلى والعصبية القومية واستتبعت الحرية فيهم أخلاقاً نجمت عنها - منها - الأنفة والحمية القومية

(حمية الجاهلية) وسرعة الغضب والتهيج لاحقر شيء خصوصا مايمس كرامة أحدهم أو يؤثر فى سمعة القبيلة فيكفي لاستفزاز القوم أن ينادي مستغيث (يالفلان) أو (واذلاه) فما هو الأن يطيروا اليه زرافات ووحدانا حتى كاد يصل بهم ذلك الى رعونة لاتمهل صاحبها ريثما يفكر فى العواقب. يقول ﴿سعد ابن ناشب المازني﴾ مفتخرا بنفسه من قصيدة (١)

اذا همّ ألقى بين عينيه عزمه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى أمره غير نفسه * ولم يرض الاقائم السيف صاحبا

كما استتبع عدم الخضوع لوازع عادة همجية (وهى اغارة قبيلة على أخرى) يستاقون نعمها ويقتلون من حال بينهم وبين مايشتهون فتأتى تلك لتسترد شرفها وما لها فتسيل الدماء بينهم فهم على الدوام في حروب تستعر نارها. واجتمع فيهم بذلك الضدان التفرق والائتلاف. فالتفرق واقع لامحالة بين القبائل المتناظرة المتزاحمة على مطلوب واحد من كلأ أوماء أومال أوشرف. والائتلاف

---

(١) من قصيدة وهاك نصها لما حوته من شهامة العرب وحريتهم وشجاعتهم

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا * عليّ قضاء الله ماكان جالبا
وأذهل عن داري وأجعل هدمها * لعرضي من باقي المذمة حاجبا
ويصغر في عيني تلادي اذا انثنت * يميني بادراك الذي كنت طالبا
فان تهدموا بالغدر داري فانها * تراث كريم لايبالي العواقبا
أخي غمرات لايريد على الذي * يهمّ به من مقطع الامر صاحبا
اذا همّ لم تردع عزيمة همه * ولم يأت مايأتي من الامر هائبا
فيالرزام رشحوا بي مقدما * الى الموت خوّاضا اليه الكتائبا
اذا همّ ألقى بين عينيه عزمه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير نفسه * ولم يرض الاقائم السيف صاحبا

حاصل البتة بين العشيرة الواحدة وبينها وبين أحلافها لاضطرارها الى التناصر هجوما ودفاعا.

تلك هى الاخلاق الكريمة ، والمكارم العظيمة ، والمحاسن الكاملة ، والصفات الفاضلة ، والسجايا العالية ، والمزايا السامية . المستفيضة فى الامة العربية فى أطوار الجاهلية ، فقد جرت فى العرب مجري الروح من الجسم واسترسلوا فيها بطباعهم وغرائزهم ينكرون على من يخالفها كل الانكار حتى يكادوا ينكرون عربيته * ومن ثمَّ يعلم أن العرب لما كانوا أتم الناس أحلاما ، وأوفرهم أفهاما ، وأطلقهم ألسنة ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة ، فان العقل المشرق فى الانسان يحصل عنه العلم . والمعرفة . والدراية . والحكمة . والذكاء . والذهن . والفطنة . وجودة الخاطر والفهم والتخيل . والكيس . والخبير . واصابة الظن . والفراسة . والزكانة . والكهانة . والعرافة . والالهام . ودقة النظر . والتدبير . وصحة الفكر . وجودة الذاكرة . واجادة الحفظ . والبلاغة . والفصاحة . وسائر الاخلاق الفاضلة . والأعمال الممدوحة . وكريم الخصال العالية . وشريف الخلال السامية * فحبذا لو تحلينا بها ، واتخذناها نبراسا لنا ، لان الاخلاق الحميدة كما لا يخفى ينبوع السعادة ، ومصدر السؤدد والسيادة ، ولله در القائل الجليل

لو أننى خيرت كل فضيلة * ما اخترت غير مكارم الاخلاق

﴿ وقال آخر ﴾

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد

وقد كان لهم بعد هذه ﴿ عادات ﴾ بعضها عام شامل لجميعهم فى كل البقاع وبعضها خاص بأفراد أو أمكنة مخصوصة وهاك شيئا منها ،

عادات الامة العربية في اطوار الجاهلية

وأما ما كان عندهم من العادات فكثيرة مفصلة مبينة فى أشعارهم وأخبارهم * فمنها ﴿ شرب الخمر ﴾ وكانوا يرون شربها من أسباب الفتوة والكرم وكثيرا ما ترنموا بها فى أشعارهم ﴿ فقال قائلهم ﴾

والله ما أدرى لاية علة * يدعونها فى الراح باسم الراح
ألريحها أم روحها تحت الحشا * أم لارتياح نديمها المرتاح

وهذا ﴿ عمرو بن كلثوم ﴾ في معلقته التى خامرت عقول قومه استهلها بقوله

ألا هبى بصحنك فاصبحينا * ولا تبقى خمور الاندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها * اذا ما الماء خالطها سخينا
تجور بذي اللبانة عن هواه * اذا ماذاقها حينا يلينا
ترى اللحز الشحيح اذا أمرت * عليه لماله فيها مهينا
كأن الشهب في الاذان منهم * اذا قرعوا بحافتها الجبينا

وهذا البيت يبين سعة الكأس التى كانوا يكرعون بها . ومن العرب من كان يحرم الخمر على نفسه تكرمة وصيانة لانفسهم وهم أناس كثيرون. منهم ﴿ عامر بن الظرب ﴾ وقد قال فى ذلك

ان أشرب الخمر أشربها للذتها * وان أدعها فانى ماقت قالى
لولا اللذاذة والقينات لم أرها * ولا ترانى الا من مدّى عالى
سآلة للفتي ماليس في يده * ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها * حتى يفرق ترب القبر أوصالى
فتورث القوم أضغانا بلا إحن * مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

﴿ وحرم قيس بن عاصم ﴾ (١) الخمر فى الجاهلية وقال فى ذلك

لعمرك ان الخمر مادمت شاربا * لسالبة مالى ومذهبة عقلى
وتاركتي ضمن الضعاف قواهمو * ومورثتى حرب الصديق بلا نبل

وممن كانوا قد حرموا الخمر فى الجاهلية ﴿ صفوان بن أمية بن محرّث

(١) كان قيس بن عاصم يأتيه فى الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ماعنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحا فرأى القمر فتكلم بشئ وجعل يضرب الخمار فكلمته أخته في شأنه فلطمها وخمش وجهها وجعل يقول وهو يضرب الخمار

عن تاجر فاجر جاء الاله به * كان لحيته أذناب أجمال
جاء الخبيث بتيسانية تركت * صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

فلما صحا أخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى أن لايذوق الخمر وقال

رأيت الخمر صالحة وفيها * خصال تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها صحيحاً * ولا أشفى بها أبدا سقيما
ولا أعطي بها ثمناً حياتي * ولا أدعو لها أبداً نديما
فان الخمر تفضح شاربيها * وتجشمهم بها أمراً عظيما
اذا دارت حمياها تعلت * طوالع تسفه الرجل الحليما

(وقال أيضاً)

فو الله لاأحسو بذا الدهر خمرة * ولاشربة تزري بذى اللب والفخر
فكيف أذوق الخمر والخمر لم تزل * بصاحبها حتى تكسع في الغدر
وصارت به الامثال تضرب بعدما * يكون عميد القوم في السر والجهر
ويبدرهم في كل أمر ينوبهم * ويعصمهم ماينابهم حادث الدهر
فياشارب الصهباء دعها لاهلها الـ * ـغواة وسلم للجسيم من الامر
فانك لا تدرى اذا ماشربتها * وأكثرت منها ماتريش وماتبري

الكناني﴾ وقد قال فى ذلك

رأيت الخمر صالحة وفيها * مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي * ولا أشفي بها أبدا سقيما

وابن قتيبة يروي هذين البيتين لقيس. وما ذكرناه رواية ابن دريد. وقد حرم الخمر والقمار والزنا على نفسه فى الجاهلية ﴿عفيف بن معديكرب﴾ عم الاشعث بن قيس وقد قال فى ذلك

وقائلة هلمّ الى التصابى * فقلت عففت عما تعلمينا
وودعت القداح وقد أرانى * بها فى الدهر مشعوفا رهينا
وحرمت الخمور علىّ حتى * أكون بقعر ملحود دفينا[1]

(١) الشعف حرقة يجدها الرجل مع لذة في قلبه وأنت ترى أيها الاديب الورع أني تفهم مافي القمار من المشاركة للزنا والخمر في سوء الذكر ولا تنس قوله وحرمت الخمور فأتي بها بلفظ الجمع اشارة الى اختلاف أجناسها كالخمر المتخذة من ماء العنب ونبيذ الزبيب والتمر والذرة والشعير والحنطة والعسل وأمثال هذه اذا الكل خمور مختلفة الالوان والطعوم والامزجة . وقد قال ابن شبرمة منبها على اشتراك هذه كلها في المعنى .

يا أخلاء انما الخمر ذيب * وأبو جعدة الطلاء المريب
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه * فهو للخمر والطلاء نسيب

(وقال عبيد بن الابرص)

هى الخمر تكنى الطلاء * كما الذئب يكني أبا جعدة

(وقال أبو الاسود الدؤلى)

دع الخمر تشربها الغواة فانني * رأيت أخاها مجزئا لمكانها

فقيل له فنبيذ الزبيب فقال .

فان لا يكنها أو تكنه فانه * أخوها غذته أمه بلبانها

﴿ وقال أيضا ﴾

فلا والله لا ألفى وشربا * أنازعهم شرابا ما حييت
أبى لى ذاك آباء كرام * وأخوال بعزهمو ربيت

وممن قد حرم الخمر والزنا على نفسه أيضا في الجاهلية ﴿أسلوم اليالى﴾ وقد قال في ذلك .

سالمت قومى بعد طول مضاضة * والسلم أبقى فى الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهى أميرة * والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرّما * وكذاك يفعل ذو الحجى المتعفف

وحرمها أيضا ﴿ سويد بن عدى بن عمرو الطائى ﴾ وقد أدرك الاسلام وقال فى ذلك .

تركت الشعر واستبدلت منه * اذا داعى منادى الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك * وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أرانى * بها سدِكا وان كانت حراما

(قال ابن قتيبة) فى كتاب الأشربة وقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم فى الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما شرب أبو بكر خمراً فى جاهلية ولا اسلام . وقال عثمان رضى الله تعالى عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجى بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (وقيل) للعباس بن مرداس فى الجاهلية لم لا تشرب الخمر فانها تزيد فى جراءتك فقال . ما أنا بآخذ جهدى بيدى فأدخله فى جوفى وأصبح سيد قومي وأمسى سفيههم (وقيل) له بعد ما أسن

وأسلم قد كبرت سنك ودق عظمك فلو أخذت من هذا النبيذ شيئا يقويك فقال . أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم آليت أن لا يدخل رأسي ما يحول بيني وبين قومي . (وكان) عثمان بن مظعون حرم الخمر في الجاهلية وقال لا أشرب شرابا يذهب بعقلي ويضحك بي من هو أدنى مني وأزوج كريمتي من لا أريد فبيناهو بالعوالي اذ أتاه آت فقال : أشعرت أن الخمر حرمت وتلا عليه الآية في المائدة . فقال : تبا لها لقد كان بصري بها نافذا . وكان العرب في الجاهلية يشتدون على النساء في شرب الخمر [1] حتى لم يحفظ ان امرأة سكرت . (وذكر ابن قتيبة) للخمرة من المفاسد والمساوي [2] نبذة مما كان أهل

(١) يشتدون على النساء في شرب الخمر ويؤيد ذلك ماروي عن الاصمعي قال : كان عقيل بن علقمة المري غيورا فكان يسافر بنت له يقال لها (الجرباء) فسافر بها مرة فقال :

قضت وطراً من دير سعد وربما * على عرض ناطحنه بالجماجم

ثم قال لابن له يقال له (عملس) أجز فقال :

فأصبحن بالموماة يحملن فتية * نشاوي من الادلاج ميل العمائم

ثم قال لابنته أجيزي يا جرباء فقالت :

كأن الكرى أسقاهم صرخدية * عقاراً تمشت بالمطا والقوائم

فقال لها : ما وصفتها هذه الصفة الا وقد شربتها ثم أحال عليها يضربها فلما رأى ذلك بنوه وثبوا عليه فخلوا فخذه بسهم فقال :

ان بني زملوني بالدم * من يلق أبطال الرجال يكلم

* شنشنة أعرفها من أخزم *

وقد كفانا الله تعالى فيها بقوله جل شأنه (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

(٢) المفاسد والمساوي فمن مفاسدها ماروى أن رجلا من طيء نزل به رجل من

الجاهليـة يعدونه من المنافع وهى كما ورد فى القرآن الكريم (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهـما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) وقد اتفق أهل الملل والنحل على قبحها بالمرة لمضارها القاتلة . ويؤيد ذلك ماذكره الاستاذ الآلوسي فى بلوغ الارب ونصه « وقد رأيت فى بعض الصحف العربية المطبوعة فى دار السلطنة العثمانية ما نصه — قد رأينا فى البشير تحت عنوان (نتائج المشروبات المسكرة) مانصه — كتب فى التقاويم الأخيرة ان المشروبات المسكرة تقتل فى المانيا فى السنة أربعين الفا . وفى الروسية عشرة آلاف . وفى بلجيكا أربعـة آلاف . وفى فرنسا الفا وخمسمائة . وأما فى أمريكا فقـد مات ثلاثمائة الف نفس فى الولايات المتحدة في مدة ثمان سنوات فيكون عدد الذين تقتلهم الخمور فى أمريكا سنويا تسعة وثلاثين الفا وخمسمائة نسمة . وقتلى الخمر فى الممالك المذكورة فى كل سنة ثلاث وتسعون الف نفس » اه

شيبان يقال له (المكاء) فـذبح له الطائي شاة وسـقاه من الخمر فلما سكر الطائي قال للشيباني ، هلم أفاخرك أطيء أكرم أم شيبان فقال له الشيباني حديث حسـن ومنادمة كريمة أحب الينا من المفاخرة . فقال الطائي : والله مامد رجـل قط يداً أطول من يدي ومد يده : فقال له الشيباني أما والله لئن أعدتها لاخضنها من كوعها فأعاد فضربه الشيباني فقتله فقال أبو زيد في ذلك لبنى شيبان .

خبرتنا الركبان أن قد فخرتم * وفـرحتم بضربة المكاء
ولعـمري لعارها كان أدني * لكم من تقي وحـق وفاء
ظـل ضيفا أخـوكم لاخينا * في صـبوح ونعمة وشـواء
ثم لما رآه رانت به الخمـر وأن لا ترببـه باتقاء
لم تهب حرمة النديم وحقت * يالقومي للسوآة السـواء

تلك أيها الاديب نسبة قتلى الخمر فى البلاد الاجنبية منذ بضع عشرة سنة ولاريب أنها في هذا العصر قد تضاعفت سيما عندنا في مصر . فترى كثيرا فى هـذه الايام ممن هم متـدينون بدين نهى عن شرب الخمر وأعد لشاربيه شديد العقاب وسوء العذاب يجرعون هذا السم القاتل ويفتخرون بمعاقرته ولا زاجر لهم ولا مهيب . ولا لائم ولا رقيب .

(ومما) زاد الطين بلة والجرح ألما أن من بين هؤلاء الذين نبذوا أوامر الله تعالى وانتهكوا نواهيه وتهافتوا على شرب الخمور وتدافعوا على شهواتهم الوهمية فئة تراهم اذا اهل هلال رمضان أمسكوا عن اجتراع الخمور مدة أيامه كأنهم يراؤن الناس ولا يراقبون الله ولا يذكرونه الا قليلا لانهم اذا ما أتى العيد عادوا الى ملاذهم الباطلة . وشهواتهم الفاسدة

(ومما) يستحسن أن نذكره في هذا الصدد ما نشرناه فى جريدة «العلم» تحت عنوان (الصائمون عن الخمر)[1] بامضاء «الاصمعى» وهاك نصه

«لا أعجب من شئ عجبي من الصائمين عن الخمر الذين يعاقرون الخمور فى غير أيام رمضان ولا يكادون يفيقون من السكر فاذا جاء شهر الصوم أمسكوا عن شرب الخمر واجتنبوا حانات المسكر مدة ثلاثين يوما فاذا ما استقبلوا العيد استقبلوا معه تلك الحانات

انهم فى صومهم هذا يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وسيجزيهم بما يطوون عليهم نفوسهم فهو يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور

(١) نشرت هذه المقالة بعنوان «خطرات صائم» بعدد (٦٤٣) من العلم الصادر في يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٠ هـ

انه لجدير بمن أصيب من المسلمين بهذا الداء أن يتخذ من صيامه في رمضان طبيبا يصلح ماأفسدته المدنية الحديثة ويقمع نفسه عن الشهوات والملاذ فليت شعري أنى يعود العاقل لمنكر حرمه الله وأعد لفاعليه شديد العذاب وأسوأ الجزاء

ألم يكن لهذا الذي سيعود لمعاقرة الخمر وللتردد على حانات السكر من الايام التي قضاها بعيدا عن الخمر أعظم زاجر يردعه عن شرب هذا السم والسقوط تحت سلطانه ؟

ان أجل حكم الصيام وأعظمها أثرا في النفوس أن يكف الصائم سمعه وبصره وباقي أعضائه عن الآثام والمعاصي والمنكرات . ونبذ شهواته وملاذه التي تعرض له في عامة الاوقات . امتثالا لامر ربه وخضوعا لارشاد دينه القيم مدة شهر كامل في السنة ملاحظا عند ماتهم نفسه بشيء من شهواتها ان الله عز وجل مراقب له مطلع عليه فينأى عنه ويصبر عن تناوله وهو في أشد الشوق له وقد تنتج هذه الملاحظة المصاحبة للعمل مراقبة الله تعالى والحياء منه جل شأنه ان يرى الانسان حيث نهاه . وفي تلك المراقبة من كمال الايمان وتكريم أوامر الله وتعظيمها أكبر مرق للنفوس الطاهرة في الدنيا ومؤهل لسعادة الروح في الآخرة

ياعجبا لهؤلاء الصائمين الذين يعدون شهر رمضان يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة حتى ينقضي هذا الشهر ليسلموا من لوم اللائمين اذاهم تدافعوا الى شهواتهم البهيمية وملاذهم الباطلة وأكثروا من ارتكاب الموبقات والمنكرات وانتهاك المحرمات

قل لاولئك الذين لم يهذب الصوم أخلاقهم ولم يطهر نفوسهم ان شهر

رمضان لم يبق منه الا بضعة أيام فتوبوا الى الله جميعا أيها الصائمون عن معاقرة الخمور لعلكم تفلحون

أيها الصائمون عن الخمر قد تعتذرون انكم لا تستطيعون نبذ ما ألفتموه أو الصبر عما تعودتموه ولكن أيام الصوم شاهدة عليكم بكذبكم فيما تدعون وان هذا هو الضعف أمام الشهوات والتجرد من الآداب الدينية

لينزع المسلمون في أعمالهم الدينية الى ماشرعت له فلا يجردوها من أسرارها العالية وحكمها القويمة حتى يكون الدين مصدر السعادة والعز والسؤدد لهم فى الحياة الدنيا والمبلغ الامين فى الآخرة

ليقف المسلمون على أسرار دينهم الحنيف وحكمه السامية وليطلبوا منه الجوهر لا العرض فتغمرهم سعادة يتقلبون فى اعطافها وتفيض بينهم رحمة يرون معها الحياة راضية والعيش رغدا . فانه لا سعادة الا بهذا الدين القيم » انتهى

ألم يجب على المكلف العاقل بعد هذا أن يجتنب حانات السكر وينبذ شرب هذا السم القاتل الذي تكون عاقبته وبالا . ومغبته نكالا . وهل ينبغي له أن يوقع نفسه فى مثل هذه المهالك سيما ان كان ممن يتعبد بالاجتناب عنها . والعرب وان لم يكونوا مكلفين بالنهى عنها فقد سمعت ماذكرناه من كلام عقلائهم فيها . فلعله يصادف آذانا واعية من قوم وقلوبا مقبلة من آخرين

﴿ولنرجع﴾ الآن الى ما كنا فيه من سرد عادات العرب . فقد كان من عاداتهم ﴿لعب الميسر﴾ وليس هو تلك الفوهة الجهنمية التي طار شررها فى هذا العصر وكل من سقط فيها خرج منسلخا من الدين والعرض والمال . بل كان لعباً مقصوداً به المباهاة فى الكرم لان مايذبح فيه كان يوزع على الفقراء .

أما الميسر فهو عادة قديمة لم تنج من ادرانها أمة من أمم الارض قديما

وحديثها كبيرها وصغيرها فقد كان المصريون القدماء يتعاطون كثيرا من ضروب الالعاب التي يحسبها الاكثرون حديثة كالدامة والنرد (الزهر) ولقد عثر الباحثون فى آثار الهياكل المصرية على صور رجال جالسين وبين أيديهم الدامة باحجارها المعروفة ووجدوا مكعبات النرد فى انقاض بعض الخربات فى طيبة (الاقصر) وأيضا الرومان فقد كان الميسر شائعا في عاصمة مملكتهم فى ابان دولتهم كما كان ذلك من قبل عند اليونان .

وقد ذكر تاسينوس ان الجرمان القدماء قد كانوا يتقامرون على كل مايملكون حتى اذا فرغ مابين أيديهم أومافى حوزتهم من المال والعقار تقامروا على أنفسهم فمن غلب رفيقه ملك رقبته فيصير عبداً له ولو كان المغلوب أميرا والغالب صعلوكا :

فاذا نسبنا مقامرة هؤلاء الى ما كان عند العرب من المقامرة فى جاهليتهم وجدنا العرب قد كانوا كثيرا مايستقسمون بالقداح للبر والاحسان لاسيما أهل الثروة منهم:

شكل الميسر عند العرب

كان يتفق عشرة من أهل المروءة والثروة والسخاء منهم على المقامرة فينحرون جزوراً ويجزؤنها ثمانية وعشرين جزءا يسمونها الأسهم ثم يأتون بعشرة قداح يقال لها الاقتراح . والأزلام . والأقلام . لكل قدح منها اسم معين ونصيب معين يربح من الأسهم بمقداره ان ربح ويغرم من ثمن الجزور بمقداره ان خسر . وهذا جدول يتضمن بيان أنصبائها وأسمائها

التى تربح وهي معلمة				التى لاتربح ولا تغرم
النصيب	الاسم	النصيب	الاسم	الاسم
١	الفذّ	٥	النافس	السفيح
٢	التوأم	٦	المسبل	المنيح
٣	الرقيب	٧	المعلى	الوغد
٤	الحلس			

وكانوا يعينون قيمة القداح [1] بحزوز يفرضونها فيجعلون فى القدح الأول حزاً واحدا وفى الثانى حزين وهكذا الى السابع ففيه سبعة حزوز . أما الثلاثة الأخيرة فلاحزوز فيها فمن اتخذ القدح الأول وفاز ربح قطعة من الناقة وان خسر خسر قطعة منها . ومن اتخذ الرابع وفاز ربح أربع قطع وان خسر خسر أربعا وهكذا فى سائر القداح .

ثم يقف أمين المقامرة (وخلفه رجل رقيب هو الحكم) ويضع القداح فى خريطة تسمى « الربابة » أو يدفنها فى الرمل بعد أن يخلطها خلطا يمنع تمييز أحدها من غيره ثم يضرب « أى يسحب سهما » فان خرج معلما ربح صاحبه بمقداره وان خرج واحد من الغفل أهمل . فاذا خرج الرقيب مثلا ضرب ثانيا فلنفرض أن الذى خرج بعده المعلى فقد انتهت أعشار الجزور وتم اللعب — واذا خرج التوأم وضرب فخرج الفذ وضرب ثانيا فخرج النافس

(١) القداح جمع قدح (بكسر القاف وسكن الدال) هى عيدان من نبات ينبت في جبالهم اسمه النبع ويتخذون منه القسى والسهام فينحتون العيدان حتى تصير ملساء في طول واحد .

فقد بقي من الجزور عشران وهما لا يكفيان للضرب لانه ربما خرج الرقيب أو قدح أكبر منه فيخير المقامرون في ذبح جزور آخر واستمرار اللعب أو ابطاله ويكون الباقي حقا صراحا للفقراء — ولا يمكن ان يزيد عدد الجزور التي تذبح عن ثلاثة . ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وهو الخاسر وغرم ثمن الجزور .

وقد كانوا يدفعون الانصباء التي يربحونها الى الفقراء والمساكين وكانوا لا يأكلون منها شيئا ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه « البرَمَ » وهو العديم المروءة . ففي ممادحهم كرام غير أبرام — وفي المثل « أبرما قرونا » أي أهو شحيح ويأكل مع ذلك تمرتين تمرتين . وقد قيل :

وفارق الناس داء البخل وانبعثت * الى المكارم نفس النكس والبرم

﴿ وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا ﴾

ولا برما تهدي النساء لعرسه * اذا القشع من برد الشتاء تقعقعا

(ومن) شدة محبتهم للقمار أنهم قد كانوا يفتخرون به ﴿ قال شاعرهم ﴾

فقد أخرج الكاعب المسترا * ة من خدرها وأشيع القمار

﴿ وقال آخر ﴾

نباهي بها أكفاءنا ونهينها * ونشرب في أثمانها ونقامر

﴿ وقال لبيد بن ربيعة في معلقته ﴾

وجزور أيسار دعوت لحتفها * بمغالق متشابه أجسامها

أدعوا بهن لعاقر أو مطفل * بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما * هبطا تبالة مخصبا أهضامها

﴿ وقال عمرو بن قميئة صاحب امرئ القيس ﴾

يودل ماقومى على أن تركتهم * سليمى اذا هبت شمال وريحها(١)
اذا النجم أمسى مغرب الشمس رائبا * ولم يك برق فى السماء يليحها(٢)
وغاب شعاع الشمس في غير جلبة * ولا هبوة الا وشيكا مصوحها(٣)
وهاج غمام مقشعر كأنه * نقيلة نعل بان منها سريحها(٤)
اذا عدم المحلوب عادت عليهم * قدود كثير فى القدور قديحها(٥)
يثور اليها كل ضيف وجانب * كما ردّ دهداه القلاص نضيحها(٦)
بايديهمو مقرومة ومغالق * يعود بارزاق العباد منيحها(٧)

(١) قوله يودل الخ أي يود ل ياسليمى وما زائدة على انك تركتهم وفارقتهم وسليمى امرأته كانت ارادت منه فراق قومه

(٢) رائبا أى مرتفعا والنجم الثريا وأشد البرد عند طلوع الثريا أول الليل ويليحها يظهرها ويضيئها

(٣) الجلبة السحابة وكذلك الجلب والوشيك السريع والمصوح الذهاب والهبوة الغبرة

(٤) مقشعر لاماء فيه والنقيلة النعل البالية من النعال التى ينعل بها الابل اذا حفيت وجمعها نقال والسريح السيور التى تشد بها النعل الواحد سريحة .

(٥) القديح المعروف

(٦) الجانب الاجنبي الغريب والدهداه صغار الابل سميت بذلك لان الابل اذا وردت الماء دهدهتها ودحرجتها والنضيح الحوض .

(٧) المقرومة يعني القداح بها علامات وليس المنيح ههنا الذي لاسهم له كما ذكرنا لك وانما المنيح ههنا الممنوح منها المعطى وهو القدح الفائز ويجوز أن يعود الهاء في منيحها على العباد ويكون المنيح بمعنى الفاعل أي تمنحهم هذه القداح ما أصابوه من قرها

﴿وقال آخر وهو ابن مقبل﴾

يابيت آل هشام هل علمت اذا * أمشى المراضيع فى أعناقها خضع
انى أتمم أيساري بذي أود * من فرع شيحاط ضاع ليطه قرع (١)
يحدو قتائله بيض غطارفة * شم الانوف مغاليق الضحى خلع (٢)
أولو الوفاء ولو أدّوا قداحهمو * ولا يزال لهم من لحمها قنع (٣)

﴿وقال آخر﴾

أعداء كوم الذرى ترغو أجنتها * عند المجاوز بين الحى والحجر (٤)
لايفرحون اذا مافاز فائزهم * ولا يضيق عليهم ازبة العسر (٥)
هم الخضارم والأيسار ان ندبوا * اذ لا تجيل قداحا راحتا يسر (٦)

(١) قوله بذي أود يعني القدح واذا كان ذا أودكان أسرع لخروجه وشيحاط أرض وضاح ليطه ظاهر جلده وماضحي منه للشمس أى برز

(٢) القتائل الاشباه وهذا قتل هذا أي شبهه والجمع أقتال ويقال أيضا فلان قتل فلان أي عدوه فقول ابن مقبل يحد قتائله أي قتائل قدحى ومغاليق الضحي أى يغلقون الرهن والخطر وخلع معناه يسلبون الرجال با لقمار ويخلعونها

(٣) أولو الوفاء أي يودون مايلزمهم وفاؤه ولولم يبق الاقداحهم لادوها والقنع الزيادة والكثرة ويقال هو ذو قنع أي كثير المال جواد

(٤) الكوم جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام وهم أعداؤها لانهم ينحرونها يعني انها تنحر وهي حوامل فيخرج الجنين حيا يرغو

(٥) قوله لايفرحون الخ يقول اذافازوا لم يفرحوا بذلك ولايبطرهم الفوز ومنه قوله عز وجل « ان الله لايحب الفرحين » والازبة الشدة أى لايبالون بالغرم وان كانوا معسرين .

(٦) الخضارم الاسخياء والواحد خضرم وأصل الخضرم البحر

﴿ وقال الاعشى ﴾

وجزور أيسار جزرت الى الندى * ونياط مقفرة أخاف ضلالها

والشعر فى تمادحهم بالميسر وتفاخرهم به كثير وفى هذا القدر كفاية

(فلما) جاء الاسلام حرم القمار فى موضعين من القرآن الكريم سنتكلم عليهما فيما سيأتى ان شاء الله تعالى .

فأني مقامرة هؤلاء القوم التى هى منبعثة عن غزارة كرمهم والمباهاة فى الجود والسخاء للبر بالمساكين والفقراء مما عليه مقامر وهذا العصر خصوصا من أهل مصر أولئك الذين نبذوا ماجاء في قوله تعالى « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » خلف ظهورهم وأصبح الاغنياء مما حل بهم من كوارث لعب القمار على قارعة الطريق يسألون الناس إلحافا .

(ومما) يستحسن أن نذكره فى هذا الصدد مانشرناه فى جريدة العلم تحت عنوان «المقامرة والمقامرون»[1] بامضاء «الأصمعى» وهاك نصه :

« من أعجب مايعجب له الناقد وجود فئة من المقامرين بين الصائمين يقضون جزأ غير يسير من النهار فى المنتديات والقهوات يلهون بما شاء لهم هواهم من الألعاب المختلفة حتى اذا آذن الغروب قضوا حقوق بطونهم بأطايب الطعام المختلفة الالوان وملاذ الشراب وخرجوا من الصيام الذي ألفوه بمرور الزمن وتعاقب الاعوام وحملتهم عليه العادة فاذا جن عليهم الليل ذهبوا

(١) نشرت هذه المقالة تحت عنوان « خطرات صائم » بعدد (٥٤١) من العلم الصادر في يوم الاحد ٢٦ رمضان سنة ١٣٣٠ هـ

الى بيوت القمار أو ما يماثلها ليحيوا ليلهم هذا بالمقامرة فلا يمسكون عن القمار حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر .!!

يطالب الله جل شأنه المسلمين بقيام ليالى رمضان متخشعين متعبدين معتكفين ذاكرين الله تعالى قياما وقعودا وعلى جنوبهم وأولئك قد أحيوا ٢٥
ليلة عاكفين حول موائد القمار !!

لاريب ان أولئك انما يذرون عبادة الله ويعبدون الدرهم والدينار ولكنهم لايشعرون ويقدسون المال بأفئدة لم تعمر بحب الله عز وجل .

يطالب الله عز وجل الصائمين أن يذكروه فى ليالى رمضان ويحذرهم عقابه ووعيده وأولئك يصومون عن الطعام والشراب ولكنهم لا يصومون عن القمار .

ولا تسل أيها الاديب الورع حين تنقلب حال هؤلاء المقامرين فتسلب ثروتهم وتصاب بيوتهم بالخراب وتخلو جيوبهم حتى من القروش التى يشترون بها خبزا لمن تركوهم . فما الشمس اذا كورت ولا النجوم اذا انكدرت ولا الجبال اذا سيرت ولا البحار اذا سجرت ولا السماء اذا كشطت بأشدّ هولا على المقامرين من يوم يتجردون فيه من ثروتهم ويخرجون فيه من بيوتهم ويصبحون بعد العز أذلاء فيمالك قلبهم اليأس فينتحرون شأن الجبناء مخلفين الفقر والتعاسة والشقاء لأهلهم ، ولله در من قال :

نصيب النازلين بها سهاد * فافلاس فيأس فانتحار

ولا تسل كيف يكون حزن من تركوهم فى البيوت يتضورون جوعا فما الجحافل فى انكسارها ، ولا البراكين فى انفجارها، ولا الأمم فى انشقاقها، ولا العناصر فى انقسامها، ولا الصواعق فى وقوعها بأكثر حزنا من هؤلاء الذين

ألمت بهم الكوارث . وأصبحوا على قارعات الطرق يسألون الناس الحافا!!

ألم يكن لأولئك المقامرين رادع من دين قويم يتدينون به؟ أو زاجر من خُلُق يكفهم عن ذلك الجنون ويمنعهم من مجالس السوء ؟؟

أليس لهم فى المروءة والنخوة مايسمو بالواحد منهم عن تلك الحياة المرذولة التى يستهين الغافلون فى سبيلها بالصفات العالية ويستخفون بأكرم العواطف وأغلى أخلاق الاطهار من الناس والأبرار ؟؟

لست أدرى ولا المنجم يدرى كيف تطاوع نفوس هؤلاء المقامرين على بذل الدينار عقب أخيه على موائد القمار ولا تندي يدهم بدرهم واحد لبائس يشكو ألم الجوع وقد ذاق من كوارث الدهر كثيرا ؟

ألا كفى بهؤلاء المقامرين داء أنهم يرون الموت شافيا كما قال (أبو الطيب)

أيها المقامرون اذكروا كم أخرب الميسر قصوراً شامخة وهدم مجد أسر باذخة وأرتج بيوتا عامرة والتهم أموالا طائلة وهوى بأربابها الى دركات الخزى والمذلة . فأفيقوا من سكرات الطيش التى قد أخذت بلبكم وانبذوا عبادة الدرهم والدينار واطرحوا ذلك الجمود الذى غلب على أبصاركم فلم تبصروا وعلى أسماعكم فلم تسمعوا وعلى قلوبكم فلم تهتدوا واتركوا تلك المدنية الحديثة التى فتنتكم بشوائبها الجذابة وسحرتكم ببرقها الوهاج فأضلتكم عن الصراط المستقيم وأدت بكم الى أسوأ حال !!

وهبوا من سباتكم العميق قبل أن يحل بكم ماحل باخوانكم من الاحن والاوصاب ولا تغرنكم أموالكم فانهم كانوا ذوى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة فضاعت فى الميسر هباء منثورا . واجعلوا نصب أعينكم

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) انتهى

﴿ولنرجع﴾ الآن الى ذكر ما كان عند العرب من العادات ﴿فمنها الوأد﴾ .

الوأد عند العرب

ومما كان عندهم من العادات ﴿الوأد﴾ [1] وكانت مذاهبهم مختلفة فى الوأد وقتل الأولاد ﴿فمنهم﴾ من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون . قال الميدانى وكان السبب فى ذلك ان بنى تميم منعوا الملك من ضريبة الاتاوة التى كانت عليهم فجرد اليهم النعمان أخاه الريان مع دوسر «ودوسر احدى كتائبه» وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نعمهم وسبي ذراريهم . وفى ذلك يقول أبو المشمرج اليشكري :

لما رأوا راية النعمان مقبلة * قالوا ألا ليت ادنى دارنا عدن
ياليت أم تميم لم تكن عرفت * مرّاً وكانت كمن أودى به الزمن
ان تقتلونا فاعيار مجدعة * أو تنعموا فقديما منكم المنن

(١) يقال وأد الموؤدة يئدها دفنها حية والموؤدة اسم كان يقع على من كانت العرب تدفنها حية من بناتهم وهو وائد وهى وئيد ووئيدة وموؤدة (أنشد ابن الاعرابى)

وما لقي الموؤد من ظلم أمه * كما لقيت ذهل جميعا وعامر

وبعضهم يقول الموؤدة من الوأد وهو الثقل كأنها سميت بذلك لانها تثقل بالتراب حتى تموت .

ووفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر وكلموه فى الذراري فحكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك الى النساء فأية امرأة اختارت زوجها ردت اليه فاختلفن فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتا وبصنيع قيس بن عاصم واحيائه هذه السنة نزل القرآن فى ذم وأد البنات ﴿وروى﴾ أن أول قبيلة وأدت ربيعة كما ذكرنا لك ذلك فى (غيرتهم) وغالب قبائل العرب كان غرضهم من الوأد ما ذكر ﴿وكيفية﴾ الوأد كما ذكر غير واحد أن الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى أحمائها وقد حفر بئرا فى الصحراء فيذهب بها حتى اذا بلغ البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض ﴿وري﴾ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه انه قال كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولداً حبسته ﴿ومنهم﴾ من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء «سوداء» أو برشاء «بها برص» أو كسحاء تشاؤماً منهن بهذه الصفات [1]

(١) تشاؤما منهن بهذه الصفات ومن هذا حديث سودة بنت زهرة بن كلاب. وذلك أنها لما ولدت على هذه الصفات ورآها أبوها كذلك أمر بوأدها فأرسلها الي الحجون لتدفن هناك فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفا يقول لاتئد الصبية. وخلها في البرية فالتفت فلم ير شيأ فعاد لدفنها فسمع الهاتف بسجع بسجع آخر في المعني فرجع الي أبيها فأخبره بما سمع فقال ان لها لشأنا وتركها فكانت كاهنة قريش فقالت يوما لبني زهرة

وهذا المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب ولم يأخذ به غيرهم ﴿ومنهم﴾ من كان يقتل أولاده خشية الانفاق وخوف الفقر وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزل قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا » وكان كثير من عقلاء العرب لا يرتضى هذا الفعل ﴿وكان﴾ جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموؤدة من أهلها . وفى صحيح البخارى ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يحيي الموؤدة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها انا أكفيك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لابيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها . والاحياء هنا مجاز والمراد به ابقاؤها ﴿وكان﴾ صعصعة بن ناجية يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الاملاق فاحيا ستا وتسعين موؤدة [1] الى زمن النبى صلى الله عليه

ان فيكم نذيرة أومن تلد نذيرا فاعرضوا علىّ بناتكم فعرضن عليها فقالت في كل واحد منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه النذيرة أوستلد نذيرا فى خبر طويل ذكره أبوبكر النقاش . وفيه ذكر جيهم ولم يكن اسمها مسموعا عندهم يومئذ فقالوا لها وماجيهم فقالت سيخبركم عنها النذير .

(١) فاحيا ستا وتسعين موؤدة (ومن حديث) صعصعة بن ناجية انه قال خرجت مبتغيا ناقتين لى فارقتين (الفارق التى تفرق اذا ضربها المخاض تشد على وجهها حتى تنتج) فرفعت لي نار فسرت نحوها وهممت بالنزول فجعلت النار تضيء مرة وتخبو أخري فلم تزل تفعل ذلك حتى قلت اللهم لك علىّ ان بلغتنى هذه النار أن لا أجد أهلها يوقدون لكربة يقدر أحد من الناس أن يفرجها الا فرجتها عنهم (قال) فلم أسر الا قليلا حتى أتيتها فاذا هي في بنى أنمار بن الهجيم بن عمرو بن تميم واذا بشيخ حادر أشعر يوقدها في مقدم بيته والنساء قد اجتمعن الي امرأة ماخض حبستهن ثلاث ليال فسلمت فقال الشيخ من أنت . فقلت أنا صعصعة بن ناجية . قال مرحبا بسيدنا فقيم أنت يابن أخي فقلت

وسلم ﴿ ومنهم ﴾ من كان ينذر اذا بلغ بنوه عشرة نحر واحدا منهم كما فعله عبد المطلب فى قصته المشهورة (١) واليها أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله

في ابتغاء ناقتين لى فارقتين عمى عليّ أثرهما فقال . قد وجدتهما بعد ان أحيا الله بهما أهل بيت من قومك وقد نلجناهما وعطفت احداهما على الاخري وهما تانك في أدنى الابل (قال) فقلت ففيم توقد نارك منذ الليلة قال أوقدها لامرأة ماخض قد حبستنا منذ ثلاث ليال وتكلمت النساء فقلن قد جاء الولد فقال الشيخ ان كان غلاما فو الله ما أدري ماأصنع به وان كانت جارية فلا اسمعن صوتها اني أقتلها فقلت ياهذا ذرها فانها ابنتك ورزقها على الله فقال ماتعطيني قلت أعطيك احدي ناقتي قال لا . قلت فأزيدك الاخري فنظر الى جملي الذى تحتى فقال لا الا أن تزيدني جملك هذا فاني أراه حسن اللون شاب السن فقلت هو لك والناقتان على أن تبلغني أهلى عليه قال قد فعلت فابتعتها منه بلقوحين وجمل وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ليحسنن برها وصلتها ماعاشت حتى تبين منه أو يدركها الموت فلما برزت من عنده حدثتني نفسي وقلت ان هذه لمكرمة ماسبقني اليها أحد من العرب فآليت أن لا يئد أحد بنتا له الا اشتريتها منه بلقوحين وجمل فبعث الله عز وجل محمدا عليه الصلاة والسلام وقد أحييت مائة موؤدة الا أربعا ولم يشاركني فى ذلك أحد حتى أنزل الله تحريمه في القرآن * وقد فخر بذلك الفرزدق في عدة قصائد من شعره ومنها قصيدته التى أولها

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي * متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر * على الفقر يعلم أنه غير مخفر
على حين لا تحيا البنات واذهمو * عكوفا على الاصنام حول المدوّر
أنا ابن الذى رد المنية فضله * فما حسب دافعت عنه بمعور
وفارق ليل في نساء أتت به * تمارس ريحا ليلها غير مقمر
فقلت أجر لى ماولدت فانني * أتيتك من هزل الحمولة مقتر
رأي الارض منها راحة فرمى بها * الى جدد منها الى شر محفر
فقال لها فيئي فاني بذمتي * لبنتك جار من أبيها القنوّر

(١) كما فعله عبد المطلب في قصته المشهورة وذلك فيما حكي الزهرى ويزيد بن

(أنا ابن الذبيحين) يعني أباه عبد الله وجده اسماعيل عليه الصلاة والسلام

﴿ ومنهم ﴾ من كان يقول الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فألحقوا البنات

رومان وصالح بن كيسان ان عبد المطلب بن هاشم نذر أنه متي رزق عشرة أولاد ذكوراً ورآهم بين يديه رجالا أن ينحر أحدهم للكعبة شكرا لربه حين علم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ولده تصوراً انه أفضل قربة فلما استكمل ولده العدد وصاروا له من أظهر العدد . قال لهم : يابني كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم فما تقولون قالوا الامر لك واليك . ونحن بين يديك . فقال لينطلق كل واحد منكم الى قدحه وليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوا بالقداح فاخذها وجعل يرتجز ويقول :

عاهدته وأنا موفٍّ عهده * والله لايحمد شئٌ حمده

اذ كان مولاي وكنت عبده * نذرت نذرا لا أحب رده

* ولا أحب أن أعيش بعده *

ثم دعا بالامين الذي يضرب بالقداح فدفع اليه قداحهم وقال : حرك ولاتعجل وكان أحب ولد عبد المطلب اليه عبد الله فضرب صاحب القداح السهم فخرج على عبد الله فأخذ عبد المطلب الشفرة وأتي بعبد الله وأضجعه بين اساف ونائلة وأنشأ مرتجزا يقول :

عاهدته وأنا موف نذره * والله لايقدر شئٌ قدره

هذا بنيّ قد أريد نحره * وان يؤخره فيقبل عذره

وهم بذبحه فوثب اليه ابنه أبو طالب وكان أخا عبد الله لابيه وأمه وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وأنشأ مرتجزاً يقول :

كلا ورب البيت ذي الانصاب * ما ذبح عبد الله بالتلعاب

ياشيب ان الريح ذو عقاب * ان بني مرة في الخطاب

* أخوال صدق كأسود الغاب *

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبي طالب وكانوا اخواله قالوا صدق ابن أختنا ووثبوا الى عبد المطلب فقالوا : ياأبا الحارث انا لانسلم ابن أختنا للذبح فاذبح من شئت من ولد غيره فقال اني نذرت نذراً وقد خرج القدح عليه ولابد من ذبحه قالوا كلا لايمكن ذلك أبداً

به سبحانه وتعالى والى هؤلاء القوم يشير قوله تعالى «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى

وفينا ذو روح وانا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد وأنشأ المغيرة بن عبد الله بن مخزوم مرتجزاً يقول :

ياعجباً من فعل (عبد المطلب) * وذبحه إبنا كتمثال الذهب
كلا وبيت الله مستور الحجب * ماذبح عبد الله فينا باللعب
* فدون مايبغي خطوب تضطرب *

ثم وثب السادات من قريش الى عبد المطلب فقالوا ياأبا الحارث ان هذا الذي عزمت عليه لعظيم وانك ان ذبحت ابنك لم تهن بالعيش من بعده ولكن لاعليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك الى كاهنة بني سعد فما أمرتك به من شيء فامتثله . فقال عبد المطلب لكم ذاك وكانوا يرون الكهانة حقا . ثم خرج في جماعة من بني مخزوم نحو الشام الى الكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده وارتجز يقول :

يارب اني فاعل لما ترد * ان شئت ألهمت الصواب والرشد
ياسائق الخير الى كل بلد * قدزدت في المال وأكثرت العدد

فقالت الكاهنة انصرفوا عني اليوم فانصرفوا وعادوا من الغد فقالت كم دية الرجل عندكم قالوا : عشرة من الابل قالت فارجعوا الى بلدكم وقدموا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه وقدموا معه عشرة من الابل ثم اضربوا عليه وعلى الابل القداح فان خرج القداح على الابل فانحروها وان خرج على صاحبكم فزيدوا على الابل عشرة حتى يرضي ربكم فانصرف القوم الى مكة وأقبلوا عليه يقولون : ياأبا الحارث ان لك في ابراهيم أسوة حسنة فقد علمت ما كان من عزمه في ذبح ابنه اسماعيل وأنت سيد ولد اسماعيل فقدم مالك دون ولدك فلما أصبح عبد المطلب غدا بابنه عبد الله الى الذبح وقرب معه عشرة من الابل ثم دعا بأمين القداح وجعل لابنه قدحا وقال اضرب ولاتعجل فخرج القدح على عبد الله فجعل عشرين فضرب فخرج القدح على عبد الله وهكذا الى أن جعل الابل مائة

من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون »(١)

وضرب فخرج القدح على الابل فكبر عبد الله وكبرت قريش . وقالت يا أبا الحارث انه قد أنهى رضاء ربك وقد نجا ابنك من الذبح فقال لا والله حتى أضرب عليه ثلاثاً فضرب الثانية فخرج على الابل فضرب الثالثة فخرج على الابل فعلم عبد المطلب انه قد أنهى رضاء ربه في فداء ابنه فارتجز يقول :

دعوت ربي مخلصاً وجهرا * يارب لا تنحر بني نحرا
وفاد بالمال تجد لى وفرا * أعطيك من كل سوام عشرا
عفواً ولا تشمت عيونا خزرا * بالواضح الوجه المغشي بدرا
فالحمد لله الاجل شكرا * فلست والبيت المغطى سترا
مبدلا نعمة ربي كفراً * مادمت حيا أو أزور القبرا

ثم قربت الابل وهي مائة من جملة ابل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد الله وتركت في مواضعها لا يصد عنها أحد ينتابها من دب ودرج فجرت السنة في الدية بمائة من الابل الى يومنا هذا وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحا فكان عبد الله يعرف بالذبيح ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا ابن الذبيحين يعني اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وأباه عبد الله بن عبد المطلب

(١) قوله تعالى (ويجعلون لله البنات) ففي التفسير هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالى الله عما يقولون وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوتها . وقال الامام أظن أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء ولهذا لما كان قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ، ونوره القاهر ، أطلقوا عليها لفظ التأنيث ولا يرد على ذلك ان الجن كذلك لأنه لا يلزم في مثله الاطراد . وقيل أطلقوا عليها ذلك للاستتار مع كونها في محل لا تصل اليه الاغيار فهي كبنات الرجل اللاتى يغار عليهن فيسكنهن في محل أمين . ومكان مكين . والجن وان كانوا مستترين لكن لا على هذه الصورة وهذا أولى مما ذكره الامام . وأما عدم التوالد فلا يناسب ذلك (سبحانه) تنزيه وتقديس

عاداتهم في المآكل

اتفق جميع سكان الأقاليم الصالحة على مراعاة آدابهم في مطعمهم ومشربهم

له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة وهو في المعنى الاول حقيقة وفي الثاني مجاز (ولهم مايشتهون) يعني البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) أي أخبر بولادتها (ظل وجهه مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والفكرة والنفرة التي لحقته بولادة الانثى. قيل اذا قوى الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل الى الاطراف لاسيما الى الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فيرى الوجه مشرقا متلألئاً واذا قوي الغم انحصر الروح الى باطن القلب ولم يبق له أثر قوي في ظاهر الوجه فيربد ويتغير ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الارضية . فمن لوازم الفرح استنارة الوجه واشراقه . ومن لوازم الغم والحزن اربداده واسوداده فلذلك كني عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد ولو قيل بالمجاز لم يبعد (وهو كظيم) أي مملوء غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لاخفائه وحبسه عن الوصول الى مخرجه . والظاهر أن ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكراً ويؤيده ماروي الاصمعي أن امرأة ولدت بنتاً سمتها الزلفاء فهجرها زوجها فأنشدت

مالابي الزلفاء لا يأتينا * يظل في البيت الذي يلينا
يحرد ان لانلد البنينا * وانما نأخذ ما يعطينا

(يتوارى من القوم) يستخفى من قومه (من سوء مابشر به) عرفا وهو الانثى والتعبير عنها بما لاسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء ويروي أن بعض الجاهلية كان يتوارى في حال الطلق فان أخبر بذكر ابتهج وان أخبر بأنثى حزن وبقي متوارياً أياما يدبر فيها مايصنع (أيمسكه) أيتركه ويربيه (على هون) أي ذل (أم يدسه) أي يخفيه (في التراب) والمراد يئده ويدفنه حيا حتى يموت والى هذا ذهب السدي وقتادة وابن جريج وغيرهم . وقيل المراد اهلاكه سواء كان بالدفن حيا أم بأمر آخر فقد كان بعضهم يلقي الانثي

وملبسهم وقيامهم وقعودهم وغير ذلك من الهيئات والأحوال وكل ذلك كالامر المفطور عليه الانسان عند سلامة مزاجه وظهور مقتضيات نوعه عند اجتماع أفراد منه وترائي بعضهم لبعض وكانت لهم مذاهب فى كل ذلك (فكان) منهم من يتخذها على قواعد الحكمة الطبيعية فيختار فى ذلك ما يرجى نفعه ولا يخشى ضرره بحكم الطب والتجربة (ومنهم) من يأخذها على قوانين الاحسان حسبما

من شاهق (روي) أن رجلا قال يارسول الله والذي بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت وقد كانت لى في الجاهلية بنت فأمرت امرأتي أن تزينها وأخرجتها فلما انتهيت الى واد بعيد القعر ألقيتها . فقالت ياأبت قتلتني فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم ما في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما في الاسلام فقد هدمه الاستغفار (وكان) بعضهم يغرقها وبعضهم يذبحها ولما كان الكل اماتة تفضي الى الدفن في التراب قيل أم يدسه في التراب . وقيل المراد اخفاؤه عن الناس حتى لا يعرف كالمدسوس في التراب (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون لمن تنزه عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله تعالى شأنه مع ابائهم اياه لا جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه وتعالى وجوز أن يكون مداره التعكيس كقوله تعالى (تلك اذاً قسمة ضيزى) وقال ابن عطية هذا استقباح منه تعالى شأنه لسوء فعلهم وحكمهم في بناتهم بالامساك على هون أو الوأد مع ان رزق الجميع على الله تعالى فكانه قيل ألا ساء ما يحكمون في بناتهم وهو خلاف الظاهر جدا وروي الاول عن السدي وعليه الجمهور والآية ظاهرة في ذم من يحزن اذا بشر أحدهم بالانثى حيث أخبرت ان ذلك فعل الكفرة وقد أخرج ابن جرير الطبري وغيره عن قتادة انه قال في قوله تعالى « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . هذا صنيع مشركي العرب أخبركم الله تعالى بخبثه فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه . ولعمري ما ندرى أي خير لرب جارية خير لاهلها من غلام وانما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه .

تعطيه ملته (ومنهم) من يريد محاكاة ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم . ومنهم من يتخذها على غير ذلك «وكانت عادات العرب في ذلك أوسط العادات ولم يكونوا يتكلفون في المطاعم والمشارب تكلف العجم . وكانت لهم في هذا الباب عادات مستحسنة ومألوفات يتلقاها ذوو العقول بالقبول (من ذلك) أنهم كانوا يبكرون في الغداء ويرون أن ذلك أقرب الى راحة البدن وصحته . وسئل ابن هبيرة عن ذلك فقال ان فيه ثلاث خصال «الاولى» أنه ينشف المرة «الثانية» أنه يطيب النكهة «الثالثة» أنه يعين على المروءة . قيل وكيف يعين على المروءة قال اذا خرجت من بيتي وقد تغديت لم أتطلع الى طعام أحد من الناس (وكانوا) يؤخرون العشاء رغبة في ورود الأضياف واجتماع الأكلة ولأن بلادهم حارة الهواء فكلما ذهبت منه شدة ببرد الليل كان الطعام أحرى والشهية في الأكل أدعى والاصل الأصيل في ذلك مراعاة الضيوف فقد كان لهم مزيد اعتناء بأمرهم كما تنطق بذلك أشعارهم وأخبارهم «قال قائلهم»

أني اذا خفيت نار لمرملة * ألقى بأرفع تلّ رافعا ناري (١)
وذاك أني على جاري لذو حدب * أحنو عليه بما يحنى على الجار

---

(١) المرملة الجماعة التي قد زادها . ورجل مرمل لا شيء له مشتق من الرمل كأنه لا يملك غيره كما يقال ترب الرجل اذا افتقر يقال أرمل الرجل اذا نفد زاده وافتقر فهو مرمل وجاء أرمل على غير قياس والجمع أرامل وأرملت المرأة فهي أرملة للتي لا زوج لها لافتقارها الى من ينفق عليها . وقال الازهري لا يقال أرملة الا اذا كانت فقيرة فان كانت موسرة فليست بأرملة والجمع أرامل . والتل ما ارتفع من الارض وايقاد النار في الاماكن العالية من أخلاق الكرام حتى يهتدي الضيف اليه في الليل المظلم ويأتي معناه يقول اذا خفيت نار غيري بأن لا توقد في أيام الجدب والقحط فأنا أوقدها في تلك الايام لتهتدي اليّ الضيوف يصف نفسه بشدة الكرم وبسط الكف للمسترفدين .

﴿ وقال الأحوص ﴾

عودت قومي اذا ما الضيف نبهني * عقر العشار على عسري وايساري [1]

﴿ وقال حريث بن عنان الطائي ﴾

عوى ثم نادى هل أحسنتم قلائصا * وُسمن على الانفاذ بالامس أربعا
غلام قليمى يحف سباله * ولحيته طارت شعاعا مقزعا
غلام أضلته النبوح فلم يجد * بما بين خبت فالهباءة أجمعا
أناسا سوانا فاستمانا فلم يرَ * أخا دلج أهدى بليل وأسمعا
فقلت أجرّا ناقة الضيف انني * جدير بأن تلقى اناثى مترعا
فما برحت سجواء حتى كأنما * تغادر بالزيزاء برسا مقطعا
كلا قادميها يفضل الكف نصفه * كجلد الحبارى ريشه قد تزلعا
دفعت اليه رسل كوماء جلدة * وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا
اذا قال قطني قلت آليت حلفة * لتغنى عني ذا انائك أجمعا
يدافع حيزوميه سخن صريحها * وحلقا تراه للثمالة مقنعا
اذا عم خرشاء الثمالة أنفه * تقاصر منها للصريح وأقنعا

(١) أراد بقوله نبهني طرقني ليلا فنبهني · والعقر ضرب قوائم البعير بالسيف ولا يكون العقر في غير القوائم · وربما قيل عقره اذا نحره · والعشار جمع عشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر وهي عند العرب أعز الابل فذبحها للضيف يكون غاية في الجود والاكرام · وقوله على عسري وايساري أي أعقرها له على كل حالة سواء كنت معسراً أو موسرا · وعقر العشار مشتمل على ايقاد النار ودال عليه فكأنه قال عودت قومي أني أوقد النار للطارق ·

﴿ وقال آخر ﴾

ومستنبح بات الصدى يستتيهه * فتاه وجوز الليل مضطرب الكسر (١)
رفعت له ناراً ثقوبا زنادها * تليح الى السارى هلم الى قدرى
فلما أتى والبؤس رادف رحله * تلقيته منى بوجه امرئ بشر (٢)
فقلت له أهلا كأهل فلم يجر * بك الليل الا للجميل من الامر
وكادت تطير الشول عرفان صوته * ولم تمس الا وهى خائفة العقر

﴿ وقال عتيبة بن بجير المازنى من بنى الحارث بن كعب ﴾

ومستنبح بات الصدى يستتيهه * الى كل صوت فهو فى الرحل جانح (٣)
فقلت لأهلى مابغام مطية * وسار أضافته الكلاب النوابح (٤)
فقالوا غريب طارق طوحت به * متون الفيافى والخطوب الطوارح (٥)
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم * مع النفس علات البخيل الفواضح (٦)
وناديت شبلا فاستجاب وربما * ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح (٧)

(١) المستنبح من يطلب نباح الكلب ليهتدي بذلك في طريقه والصدى طائر يصيح بالليل ويستتيهه أى يضله (٢) بشر مصدر بشرته أبشره بشرا والبشر الاسم أراد بوجه امرئ ذى بشر (٣) الرحل مركب للبعير ويطلق على مسكن الرجل ومن معه من الاثاث والجانح المائل والمعنى ورب ضال تائه في طريقه يقصدني بتوجهه (٤) البغام قلة مد الصوت بالحنين وأضافته أى جاوبته معناه أني استقصيت في السؤال عن حقيقة هذا الرجل لاقف عليها (٥) المتون جمع متن وهو الصلب من الارض والفيافي المفاوز والمعنى لما سألت أهلى عن هذا الرجل السارى بالليل أخبرنى أهلي بأنه رجل مسافر ضال عن الطريق قذفته وطرحته المفاوز وكروب الزمان الى ساحتنا فأراد ان ينزل عندنا ضيفا (٦) ولم أجثم أي لم ألزم مكاني والمعنى أني تهيأت للضيافة ولم تمنعني عنها موانع البخل التي تفضح الكريم اذا قصر في الاكرام (٧) الشبل ولد الاسد والمراد به هنا ابن

فقام أبو ضيف كريم كأنه * وقد جدّ من فرط الفكاهة مازح (١)
الى جذم مال قد نهكنا سوامه * وأعراضنا فيه بواق صحائح (٢)
جعلناه دون الذم حتى كأنه * اذا عد مال المكثرين المنائح (٣)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى * الى بيتنا مال مع الليل رائح (٤)

﴿وقال آخر﴾

ومستنبح تهوى مساقط رأسه * الى كل شخص فهو للسمع أصور (٥)
يصفقه أنف من الريح بارد * ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٦)
حبيب الى كلب الكريم مناخه * بغيض الى الكوماء والكلب أبصر (٧)

الشاعر وقرى عشر أي ضيافة عشر ليال لمن لا نصافح أي لمن لا نعرفه فنصافحه والمعنى اني استنهضت ولدى شبلا لامر الضيف فنهض ولم يتكاسل وعندنا من الضيافة ما يقوم بالاضياف الاجانب عشر ليال (١) أبو ضيف يريد به نفسه والفكاهة حسن المحادثة فقمت كأني مازح لكثرة ما أبديته من المؤانسة والابتهاج بالضيف (٢) جذم مرتبط بقوله قام في البيت قبله والجذم الاصل وليس القيام هنا ضد القعود وانما هو الاشتغال بما يؤنسه ويطيب قلبه ونهكنا من نهكه المرض اذا أضرّ به والسوام الابل الراعية والمعنى قمت الى الابل التي أنفدنا السوام منها في الضيافة وحمل الديات مع نقاء عرضنا (٣) المنائح جمع منيحة وهي الناقة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها ما دام بها لبن فاذا انقطع لبنها ردها والمعنى نحن صيرنا هذا الاصل من المال وقاية بيننا وبين الذم كأنه المنائح اذا عدت أموال المكثرين (٤) الرائح المال الراجع آخر النهار ضد السارح والمعنى ان أبلنا على قلتها باركة بجانب بيوتنا للحقوق لا تبلغ أن تكون سارحة ورائحة وان لنا حمد أرباب الابل الكثيرة لجودنا وكرمنا (٥) المساقط جمع مسقط والاصور المائل (٦) يصفقه أي يضربه والانف من الريح أولها والنكباء كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الاربع والمراد بجمادى شهر من شهور الشتاء والصرصر الريح الباردة (٧) الكوماء الناقة العظيمة السنام وأبصر أي أعلم

حضأت له ناري فأبصر ضوءها ✽ وما كاد لولا حضأة النار يبصر (١)
دعته بغير اسم هلم الى القرى ✽ فأسرى يبوع الارض والنار تزهر (٢)
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا ✽ هلم وللصالين بالنار أبشروا (٣)
فجاء ومحمود القرى يستفزه ✽ اليها وداعى الليل بالصبح يصفر (٤)
تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى ✽ على أهله والحق لا يتأخر (٥)
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد ✽ بهازره والموت فى السيف ينظر (٦)
فأعضضته الطولى سناما وخيرها ✽ بلاء وخير الخير ما يتخير (٧)
فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة ✽ بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٨)
فباتت رحاب جونة من لحامها ✽ وفوها بما فى جوفها يتغرغر (٩)

من البصر بالقلب لا من البصر بالعين (١) حضأت له ناري أي رفعتها له (٢) هلم أي تعال ويبوع الارض أى يقطعها بالخطوات الواسعة والحركات السريعة وتزهر أي تضيء في ارتفاع (٣) أبشروا أى استبشروا والمعنى ان الضيف لما قرب مني وتراءى لى شخصه بضوء النار تلقيته بالترحيب وقلت لمن حول النار من المصطلين ومن الاهل والحاشية استبشروا بالضيف (٤) يستفزه أى يستحثه وداعي الليل مايصوت بالسحر مثل الديك وغيره والصفير كل صوت يمتد مع رقة (٥) والحق لايتأخر أى حق الضيف لا يؤخر عنه وان تأخر حضوره (٦) البرك الابل الهاجد النائم والبهازر جمع بهزرة وهي الناقة العظيمة (٧) فأعضضته الطولى أي جعلت السيف يعضها والطولى مؤنثة الاطول وخيرها بلاء أى وأحسنها نعمة ومن نعمة الناقة ان تكون كريمة الاولاد غزيرة اللبن سريعة السير وغير ذلك من الصفات المحمودة معناه انه نحر من الابل أطولها سناما وأطيبها لحما (٨) فأوفضني عنها أي تفرقت الابل عنها بسرعة وترغو أى تصوت والحشاشة بقية الروح وبذي نفسها أي بخالصة نفسها وعريان أحمر أي مجرد من غمده متلطخ بدم الناقة (٩) الرحاب الواسعة أراد بها القدر والجونة السوداء

والمقصود من ذكر هذه الأبيات بيان ما كان للعرب من مزيد الاعتناء بالضيف حتى أنهم أوقدوا النيران فى الليل واتخذوا الكلاب ليهتدى اليهم من لا يعرف المنازل كما ذكرنا لك ذلك فيما تقدم «ومن شيمهم» المحمودة وأفعالهم الجميلة أنهم كانوا اذا ألمّ بأحدهم ضيف ظهرت البشاشة على وجهه وتلقاه بالترحيب والتكريم . وأدى له آداب الضيافة كلها وحين يستقر بالضيف المقام يسرع الى أهله ليجيئهم بنزلهم بحيث لا يكاد يشعر به أحد . وهذا من كرم رب المنزل أنه يذهب باختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه فيستحى فلا يشعر الا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه (وقد) تلقوا هذه السنن من أبيهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام فهو أول من قرى الضيف . وتأمل فى ثناء الله سبحانه وتعالى على ابراهيم فى اكرام ضيفه حيث يقول جل شأنه «هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون »[1]

(1) فى هذه الآية الكريمة من الثناء على ابراهيم عليه الصلاة والسلام عدة وجوه . منها انه وصف اكرام ضيفه بأنهم مكرمون أى ان ابراهيم أكرمهم (ومنها) قوله تعالى اذ دخلوا عليه فلم يذكر استئذانهم . فى هذا دليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف باكرام الضيفان واعتياد قراهم فبقى منزل مضيفه مطروقا لمن ورده لا يحتاج الى استئذان . بل استئذان الداخل دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم (ومنها) قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فانه يدل على الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد فابراهيم عليه الصلاة والسلام

﴿ومن عاداتهم﴾ في الاكل انهم كانوا يقلون منه . ويقولون : البطنة تذهب الفطنة . « أي الذي يملأ بطنه من الطعام تذهب منه فطنته » وكانوا يعيبون

حياهم بتحية أحسن من تحيتهم فان قولهم سلاما يدل على سلمنا سلاما وقوله سلام أي سلام عليكم . (ومنها) انه حذف المبتدأ من قوله قوم منكرون فانه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال : أنتم قوم منكرون فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام (ومنها) انه راغ الى أهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به وهذا من كرم المضيف على ماسبق (ومنها) انه ذهب الي أهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيأ للضيفان ولم يحتج ان يذهب الى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه (ومنها) قوله فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذى ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في اكرام الضيف (ومنها) انه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه (ومنها) انه سمين لاهزيل ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه (ومنها) انه قربه اليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك (ومنها) انه قربه اليهم ولم يقربهم اليه وهذا أبلغ في الكرامة ان تجلس الضيف ثم تقرب الطعام اليه وتحمله الى حضرته ولا تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب اليه (ومنها) أنه قال لهم ألا تأكلون . وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق ألا تجبر ونحو ذلك (ومنها) أنه انما عرض عليهم الاكل لانه رآهم لايأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه الى الاذن في الاكل بل كان اذا قدم اليهم الطعام أكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الاكل قال لهم : ألا تأكلون ولهذا أوجس منهم خيفة أي أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم . فقد جمعت هذه الآية الشريفة آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف انما هي من أوضاع الناس وعاداتهم وكفى بهذه الآداب شرفا وفخراً ومن تصفح أخبار العرب وأشعارهم وجدهم في الضيافة على تلك الآداب وأنهم لم يغيروا شيئاً منها بعد مرور الازمان والاحقاب

الرجل الأكول الجشع ﴿ قال شاعرهم ﴾

اذا مدّت الايدى الى الزاد لم أكن * بأعجلهم اذ أجشع القوم أعجل

﴿ وقيل ﴾ للحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية ما أفضل الدواء قال الأزم « يريد قلة الاكل » وقد أصاب فى ذلك فلله دره لأن الداء كله من فضول الطعام فكيف لا يرغب الانسان فى أن يجمع له صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة ﴿ وقال بعض حكمائهم ﴾ أى بني لأمر ما طالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب . أى بني لم صار الضب أطول عمرا الا انه يبتلع النسيم . أى بني قد بلغت تسعين عاما ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ولا عرفت دنين أنف ولا سيلان عين ولا سلس بول ما لذلك علة الا التخفيف من الزاد فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة وان كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك اهـ ﴿ وقال الأصمعى ﴾ تقول العرب فى الرجل الأكول « انه برم قرون[1] »

ولا ريب فى أن الشبع مذموم بالعقل والنقل ومضاره كثيرة فانه يقسي القلب بخلاف الجوع فانه يرققه ويصفيه فيتهيأ به لادراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يتأثر به حتى كأن بينه وبينه حجابا وذلك من قساوة القلب الحاصلة من الشبع ولذلك قال بعض العارفين القلب اذا جاع أو عطش صفا ورق واذا شبع عمى ﴿ ومن مضاره ﴾ أنه يفسد الذهن لانه يكثر البخار فيورث البلادة حتى أن الصبى اذا أكثر الاكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والادراك ﴿ ومنها ﴾ أنه يعطل

(١) البرم الذي يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيأ والقرون الذي يأكل تمرتين تمرتين

القوى الباطنة عن ادراك المعانى الكاملة والعلوم الفاضلة واستجلاء المعارف واستحلاء العوارف (قال لقمان) لابنه يابنى اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة . وقعدت الاعضاء عن العبادة ﴿ ومنها ﴾ أنه ينشط الاعضاء على المعصية لان منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوي ومادتهما لامحالة الاطعمة فبتقليلها يضعفان وبتكثيرها يقويان . واذا قويتا تحصل المعاصى * وقد وردت عدة أحاديث فى ذم الشبع (منها) قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » أي يأكل سبعة أضعاف المؤمن أوان شهوته سبعة أمثال شهوة المؤمن وتكون الامعاء كناية عن الشهوة لان الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما تأخذ الامعاء وليس المعنى زيادة أمعاء الكافر على أمعاء المؤمن . وقوله صلى الله عليه وسلم « حسب ابن آدم من الطعام لقيمات يقمن صلبه ان كان ولا بد من التجاوز عما ذكر فلتكن أثلاثا فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس » ولله در العرب حيث راعوا فى مأكلهم هذه الدقائق والاسرار وهم فى أطوار الجاهلية

(تفصيل الوصف بكثرة الاكل وترتيبه عندهم)

لما كان كثرة الاكل عندهم معيبا وليس ذلك بمنزلة واحدة بل هو درجات متفاوتة كما تدل عليه لغتهم فقد قالوا : اذا كان الرجل حريصا على الاكل فهو « نهم وشره » فاذا زاد حرصه وجودة أكله فهو « جشع » فاذا كان لايزال قرما الى اللحم وهو مع ذلك أكول فهو « جم » فاذا كان يتتبع الاطعمة بحرص ونهم فهو « لعوس ولحوس » فاذا كان رغيب البطن كثير الاكل فهو « عيصوم » فاذا كان أكولا عظيم اللقم واسع الحنجور فهو « هبلع »

فاذا كان من شدة أكله غليظ الجسم فهو « جعظرىّ » فاذا كان يأكل أكل الحوت الملتقم فهو « هلقام . وتلقامة . وجراضم » فاذا كان كثير الأكل من طعام غيره فهو « مجلح » فاذا كان لا يبقى ولا يذر من الطعام فهو « قحطى » وهو من كلام الحاضرة دون البادية (قال الازهرى) أظنه نسب الى التقحط لكثرة أكله كأنه نجا من القحط فاذا كان يعظم اللقم ليسابق فى الأكل فهو « مدهبل » فاذا كان لا يزال جائعا أو يرى أنه جائع فهو « مستجيع وشحذان ولهسم » فاذا كان يتشمم الطعام حرصا عليه فهو « ارشم » فاذا كان شهوانا شرها حريصاً فهو « لعميظ . ولعموظ » فاذا دخل على القوم وهم يطعمون ولم يدع فهو « وارش » فاذا دخل عليهم وهم يشربون ولم يدع فهو « واغل » فاذا جاء مع الضيف فهو « ضيفن » . وقال الجاحظ فى عيوب الاكل « الزقاق » الذى فى فيه لقمة لم يسغها فيشرب الماء ويسمى زاقّ الفرخ أيضا « والمبلع » الذي فى فيه لقمة لم يسغها ويبادر خلفها بأخرى « والمحلحل » الذى يأخذ سكرجة فيحركها ليجتمع الابراز فيأكله ويترك ملحاً ساذجا « والمغربل » الذي يحرك طبق الرطب والباقلاء وماأشبهه ثم يأكل نقاوته « والمقبب » الذى يجمع اللحم بين يديه على رغيف كأنه قبة ويدع رفقاءه بغير لحم « والمنعل » الذي يأخذ لقمة أكبر مما يسع فوه فيضع يده أو كسرة تحتها . « والمعلق » الذى يأخذ فى فيه لقمة وفى يده أخرى .

مطاعمهم الشهيرة

كان مأكول العرب فى غالب الازمان لحوم الصيد والسويق والالبان وربما ابتلع أحدهم الريح أومضغ القيصوم والشيح أو حرش اليربوع أوالضب

أو صاد الظبي والارنب . وكان الغالب من أهل باديتهم ان لايعاف شيئا من المأكل لقلتها عندهم ﴿ومنهم﴾ من كان يعاف القذر ويتجنب عن أكل كل مادب ودرج . وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الابل ولا يفضلون عليها شيأ ﴿ومنهم﴾ من كان يستطيب أكل الضب ﴿قال قائلهم﴾

أكلت الضباب فما عفتها * وانى اشتهيت قديد الغنم (١)
ولحم الخروف حنيذا وقد * أتيت به فاترا في الشبم (٢)
وأما البهضُ وحيتانكم * فاصبحت منها كثير السقم (٣)
وركبت زبدا على تمرة * فنعم الطعام ونعم الأدم
وقد نلت منها كما نلتمو * فلم أر فيها كضب هرم
ومافى التيوس كبيض الدجاج * وبيض الدجاج شفاء القرم (٤)
ومكن الضباب طعام العرب * وكاشيه منها رؤس العجم (٥)

ولقد كان الاصطياد ديدنا لهم وسيرة فاشية فيهم حتى كان ذلك أحد المكاسب التى عليها معاشهم . وكان لهم شغل شاغل عن الاعتناء بأمر المأكل لاضطرارهم الى النقلة فى الغالب لرعي مواشيهم وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضا . وأماما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق في الاطعمة المتنوعة والالوان

(١) القديد اللحم المملوح المجفف في الشمس فعيل بمعنى مفعول اه لسان العرب
(٢) حنيذا مشوياً ومنه قوله تعالى (فجاء بعجل حنيذ) وماء الشبم ماء الاسنان
(٣) البهض بكسر الباء الموحدة وفتح الهاء وبالضاد المعجمة الارز باللبن
(٤) القرم بفتح القاف وكسر الراء الرجل يشتهى اللحم
(٥) المكن بفتح الميم وسكون الكاف بيض الضب والكش جمع كشية بضم الكاف وسكون الشين المعجمة وهي شحمة بطن الضب أوأصل ذنبه

الشهية فلم تكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم

وكان للعرب اطعمة شهيرة يتخذونها من لحوم وحبوب وألبان وغير ذلك فمنها «السخينة» (١) ومنها «الحريقة» (٢) و «الصحيرة» (٣) و «العذيرة» (٤) و «المكيسة» (٥) و «الغريقة» (٦) و «الرغيدة» (٧)

(١) السخينة تتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء وانما يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال وهي التي كانت تعير بها قريش (وحكى) ان معاوية مازح الاحنف بن قيس فقال له ماالشيء الملفف في البجاد فقال السخينة وانما أراد معاوية قول القائل:

اذا مامات ميت من تميم * فسرك أن يعيش فجيء بزاد

بخبز أو بتمر أو بسمن * أوالشيء الملفف في البجاد

تراه يطوف في الآفاق حرصاً * ليأكل رأس لقمان بن عاد

وكان الاحنف من تميم وانما أراد الاحنف بالسخينة رمى قوم معاوية بالبخل لانهم كانوا يقتصرون عليها عند غلاء السعر حتى صار هذا اللفظ لقباً لقريش واسماً لهم (قال حسان):

زعمت سخينة أن ستغلب ربها * وليغلبن مغالب الغلاب

ويروى ان كعباً لبس يوم أحد لامة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت صفراء ولبس النبي صلى الله عليه وسلم لامته فجرح كعب أحد عشر جرحا ولما قال كعب:

جاءت سخينة كي تغالب ربها * فليغلبن مغالب الغلاب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا)

(٢) الحريقة هي أن يذر الدقيق على ماء أولبن حليب فيحسى وهى أغلظ من السخينة يبقي بها صاحب العيال على عياله اذا عضه الدهر (٣) الصحيرة هي اللبن يغلي ثم يذرّ عليه الدقيق (٤) العذيرة هى دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف (٥) المكيسة هي لبن يصب عليه الاهالة وهي الشحم المذاب (٦) الغريقة هي حلبة تضم الى اللبن والتمر وتقدم الي المريض والنفساء (٧) الرغيدة هي اللبن الحليب يغلى ثم يذر

و ﴿ الأصية ﴾ (١) و ﴿ الرهيـة ﴾ (٢) و ﴿ الوليقـة ﴾ (٣)
و ﴿ اللوبقة ﴾ (٤) و ﴿ الالوقة ﴾ (٥) و ﴿ الخزيفـة ﴾ (٦) و ﴿ الرغيغة ﴾ (٧)
و ﴿ الربيكة ﴾ (٨) و ﴿ التلبينـة ﴾ (٩) و ﴿ الوشـيقة ﴾ (١٠)

عليه الدقيق حتى يختلط ويساط فيلعق لعقاً (١) الاصية هي دقيق يعجن بلبن وتمر (٢) الرهية هي بر يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن يقال اورَّهن الرجل اذا اتخذ ذلك (٣) الوليقة هي طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن (٤) اللوبقة هى مالين من الطعام وفي حـديث عبادة (ولا آكل الا مالوّق لى) (٥) الالوقة هي أيضاً مالين من الطعام الا ان اللوقة ألين قال الشاعر :

حديثك أشهى عندنا من ألوقة * تعجلها ظمآن شهوان للطعم

(٦) الخزيفة هى شحمة تذاب ويصب عليها ماء ثم يطرح عليه دقيق فيلبك به وهى عند الاطباء ثلاثة الخبز والسكر والسمن وشتان ما بينهما

(٧) الرغيغة هي حسو من دقيق وماء وليست في رقة السخينة وقيل هى طعام مثل الحسا يصنع بالتمر قال أوس بن حجر

لقد علمت أسد أننا * لهم نصر ولنعم النصر
فكيف وجدتم وقد ذقتمو * رغيغتكم بين حلو ومر

(٨) الربيكة هي طعام يتخذ من بر وتمر وسمن ومنها المثل (غرثان فاربكوا له) وأصل هذا المثل أن رجلا قدم من سفر وهو جائع وقد ولدت امرأته غلاما فبشر به فقال : ماأصنع به آكله أم أشربه ففطنت امرأته فقالت : غرثان فاربكوا له فلما شبع قال : كيف الطلا وأمه ومعنى المثل انه غرثان جائع فسووا له طعاما يهجئ غرثه ثم بشروه بالمولود

(٩) التلبينة هى حثالة تتخذ من دقيق ويجعل فيه عسل وانما سميت تلبينة تشبيهاً باللبن لبياضها ورقتها . وفي الحديث (عليكم بالتلبينة) وكان العرب اذا اشتكى أحدهم في منزله لاتنزل البرمة حتى يأتي على أحد طرفيه ومعناه حتى يبرأ من علته أو يموت . وانما جعل هذان طرفيه لانهما منتهى العليل (١٠) الوشيقة والوشيق لحم يغلى في ماء ملح ثم يرفع .

و﴿الغثيمة﴾ [١] و﴿البغيث والغليث﴾ [٢] و﴿العريقة﴾ [٣] و﴿البكيلة﴾ [٤]
و﴿العيثة﴾ [٥] و﴿الحيس﴾ [٦] و﴿المجيع﴾ [٧] و﴿البسيسة﴾ [٨]
و﴿الصناب﴾ [٩] و﴿البريك﴾ [١٠] و﴿الخبيط﴾ [١١] و﴿الخليط﴾ [١٢]

وقيل يقدد ويحمل في الاسفاروهي أبقى قديد يكون . قال جزء بن رباح الباهلي :

ترد العين لا تندى عذاراً * ويكثر عندسائسها الوشيق

(١) الغثيمة بالغين المعجمة هي طعام يطبخ ويجعل فيه جراد (٢) البغيث والغليث الطعام المخلوط بالشعير فاذا كان فيه الزوان فهو المغلوث (٣) العريقة هي طعام يعمل من اللبن (٤) البكيلة هي السمن يخلط بالاقط وهي التي عناها الراجز بقوله :

لأكلة من أقط وسمن * ألين مما في حشايا البطن

* من يثربيات قذاذ خشن *

(وقال آخر)

هذا غلام شرث التقيله * غضبان لم تؤدم له البكيله

وقال أبو زيد هي الدقيق يخلط بالسويق « مايتخذ من الحنطة والشعير » ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت . وقال الكلابي هو الاقط المصحون تبله بالماء كانك تريد أن تعجنه . وقال ابن السكيت هي السويق والتمر يبلان باللبن ويؤكلان في اناء واحد

(٥) العيثة هي الاقط بالسمن والتمر والاقط شئ يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل « يعصر » والقطعة منه أقطة قال ابن الاعرابي هو من ألبان الابل خاصة . (٦) الحيس هو الاقط مع السمن والتمر (٧) المجيع هو التمر مع اللبن وهوحلواء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) البسيسة هو كل شئ خلطته بغيره مثل السويق بالاقط ثم تلته بالسمن أوبالزيت ومثل الشعير بالنوى للابل يقال بسته أبسه بسا (٩) الصناب هو الخردل مع الزبيب (١٠) البريك هو الزبد مع الرطب (١١) الخبيط هو اللبن الرائب باللبن الحليب (١٢) الخليط هو السمن بالشحم

و ﴿النخيسة﴾ [١] و ﴿المرضة﴾ [٢] و ﴿الوطيئة﴾ [٣] و ﴿النفيتة﴾ [٤] و ﴿اللفيتة﴾ [٥] و ﴿الخزيرة﴾ [٦] وغير ذلك من ضروب الاطعمة التى لا تكاد تحصى ومن تتبع كتب اللغة ونحوها وجد غير ماذكرناه مما هو من هذا القبيل ولا يسعنا استيعابه .

ولائم العرب الشهيرة

ولائم العرب ست عشرة وليمة ﴿الاولى﴾ الخرس وهى الطعام الذى يصنع للنفساء لسلامة المرأة من الطلق . وقيل هو طعام الوالدة ﴿الثانية﴾ العقيقة . وهى مايصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع ﴿الثالثة﴾ الاعذار . وهى مايصنع للختان ﴿الرابعة﴾ ذو الحذاق . وهى مايصنع لحافظ القرآن فهى مما حدث بعد الاسلام . وقيل انه الطعام الذى يتخذ عند حذق الصبي ذكره ابن الصباغ فى الشامل ﴿الخامسة﴾ الملاك وهى مايصنع للخطبة . ويقال الاملاك وطعامه يسمى الشندخ [٧] ﴿السادسة﴾ وليمة العرس

(١) النخيسة هو لبن الضأن يخلط بلبن المعز (٢) المرضة هي اللبن الحلو اذا اختلط مع اللبن الحامض (٣) الوطيئة هى العصيدة الناعمة (٤) النفيتة هى العصيدة أن تخثن (٥) اللفيتة هي النفيتة اذا زادت قليلا فاذا انعقدت وتعلكت فهى العصيدة

(٦) الخزيرة أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذرّ عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهى عصيدة . وأول من عمل الخزيرة « سويد بن هرمي » ولذلك قال شاعرهم لبني مخزوم

وعلمتمو أكل الخزير وأنتمو ◦ على عدوىّ الدهدهوب صلاب

(٧) الشندخ مأخوذ من قولهم فرس شندخ أي يتقدم غيره وسمي طعام الاملاك بذلك لانه يتقدم الدخول

وهى مايصنع للدخول بالزوجة ﴿السابعة﴾ الوضيمة وهى مايصنع للميت أى لأهل المصيبة ﴿الثامنة﴾ الوكيرة وهى مايصنع للبناء يعني للسكن المتجدد مأخوذ من الوكر وهو المأوى والمستقر . ﴿التاسعة﴾ العقيرة وهى مايصنع لهلال رجب ﴿العاشرة﴾ التحفة وهى مايصنع للزائر ﴿الحادية عشرة﴾ الشندخ وهي ما يصنع عند الضالة وقد سبق أنه يطلق أيضا على طعام الاملاك ﴿الثانية عشرة﴾ النقيعة وهى ما يصنع للقدوم من السفر وقيل النقيعة التى يصنعها القادم والتى تصنع له تسمى التحفة ﴿الثالثة عشرة﴾ القرى وهى مايصنع للضيف ﴿الرابعة عشرة﴾ المأدبة وهى ماليس له سبب من ذلك ﴿الخامسة عشرة﴾ النَّقَرَى وهى التى تخص دعوتها ﴿السادسة عشرة﴾ الجَفَلى وهى التي تعم دعوتها ﴿قال طرفة﴾

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلى * لاترى الآدب فينا ينتقر (١)

اوانيهم المميزة باسماء مخصوصة

حيث أنا قد فرغنا من الاشارة الى ماكانوا عليه من أمر المطعم ناسب أن نذكر آنيتهم وهى الفيخة وتسمى بالسكرجة أيضا وهى اناء صغير لا يشبع الرجل . والصحفة تشبع الرجل . والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة . والقصعة تشبع الاربعة والخمسة . والجفنة تشبع السبعة الى العشرة . والدسيعة اكبرها وقيل أكبرها الجفنة وهى التى يذكرها الشعراء فى شعرهم فى الغالب

(١) وصف هذا الشاعر قومه بالجود وانهم اذا صنعوا مأدبة دعوا اليها عموما لا خصوصاً وخص أيام الشتاء لانها مظنة قلة الشئ وكثرة احتياج من يدعى • والآدب بوزن اسم الفاعل من المأدبة وينتقر مشتق من النقرى

كقول بعضهم :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الضحى * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما (١)

عاداتهم فى المشرب

قد جاءت الشريعة بكثير من عادات العرب فى المشرب وآدابهم فيه وهى مفصلة فى كتبها «منها» الشرب قاعدا قالوا فان للشرب قائما آفات عديدة «منها» انه لا يحصل له الرّى التام ولا يستقر الماء فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الاعضاء وينزل بسرعة واحدة الى المعدة فيخشى منه ان يبرد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ الى أسفل البدن بغير تدريج وكل هذا يضر بالشارب واما اذا فعله نادراً أو لحاجة فانه لا يضره. ولا يعترض بالعادات على هذا فان العادات طبائع ثوان ولها أحكام أخرى وهى بمنزلة الخارج عن القياس. «ومن آدابه» أن يتناول الشرب على ثلاث مرات فانه أروى وأبرأ وأمرأ (٢)

(١) قد نقدت الخنساء على هذا البيت كما في المفتاح فقالت أي فخر يكون في ان له ولعشيرته ولمن ينضوي اليهم من الجفان ما نهايتها في العدد عشرة وكذا من السيوف الا اذا استعمل استعمال جمع الكثرة الجفان والسيوف وأى فخر في ان تكون جفنته وقت الضحوة وهو وقت تناول الطعام غراء جامعة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ثم أي يصلح للمبالغة في التمدح بالشجاعة وقد قال وأسيافنا يقطرن أما كان يجب ان يتركها الى ان يسلن أو يفضن أو ما شا كل ذلك . اه

(٢) أروى أشدّ رياً وأبلغه وأنفعه (وابرأ) من البرء وهو الشفاء أى يبرأ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الاولى عن تسكينه والدفعة الثالثة ما عجزت الثانية عنه وأيضاً فانه أسلم لحرارة المعدة وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ونهلة واحدة وايضا فانه لا يروي لمصادفته لحرارة العطش

﴿ومن آدابه﴾ عدم التنفس عند الشرب فان الشارب اذا تنفس في القدح خالط نفسه الماء استقذر وربما سقط من أنفه في الماء مايستكره فلا يستطيبه من يشرب بعد وربما كان في فم النافخ رائحة كريهة يتغير منها الماء فيعاف لاجلها الى غير ذلك من المضار وكانوا يكرهون الشرب من ثلمة الاناء[1] وهذا من الآداب التي

لحظة ثم يقلع عنها ولم يكسر سورتها وحدتها فان انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التدريج وأيضاً فانه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع مايروى دفعة واحدة فانه يخاف منه أن يطفيء الحرارة الغريزية بشدة برده وكثرة كميته أو يضعفها فيؤدي ذلك الى فساد مزاج المعدة والكبد والى أمراض رديئة خصوصاً في سكان البلاد الحارة كالعراق والحجاز واليمن ونحوها وفي الازمنة الحارة (وأمرأ) من مريء الطعام والشراب في بدنه اذا دخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع ومنه قوله تعالى (فكلوه هنيئاً مريئاً) هنيئاً في عاقبته مريئاً في مذاقه (وقيل) معناه انه أسرع انحداراً عن المريء لسهولته وخفته عليه بخلاف الكثير فانه لايسهل على المريء انحداره . ومن آفات الشرب نهلة واحدة انه يخاف منه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه فيغص فاذا تنفس رويدا ثم يشرب أمن من ذلك . ومن فوائد القطع في الشرب ثلاثا ان الشارب اذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخاني الحار الذي كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه فأخرجته الطبيعة عنها فاذا شرب مرة واحدة اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار فيتدافعان ويتعالجان ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يهنأ الشارب بالماء ولا يمريه ولا يتم ريه وقد ورد في الحديث (اذا شرب احدكم فليمص الماء مصاً ولا يعب عبا فانه من الكباد) والكباد بضم الكاف وتخفيف الباء هو وجع الكبد . وقد علم بالتجربة ان ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها ويضعف حرارتها . وسبب ذلك المضادة التي بين حرارتها وبين ماورد عليها من كيفية المبرود وكميته ولوورد بالتدريج شيئاً فشيئاً لم يضادد حرارتها ولم يضعفها وفي الحديث أيضا (لاتشربوا نفسا واحداً كشرب البعير لكن اشربوا مثنى وثلاث وسموا اذا أنتم شربتم واحمدوا اذا أنتم فرغتم) (١) الثلمة موضع الكسر وفي الحديث انه نهي عن الشرب من ثلمة القدح وانما نهي عنه لانه لايتماسك عليها فم

يتم بهامصلحة الشارب فان الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد (احداها) ان مايكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع الى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح (الثانى) انه ربما يشوش على الشارب ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة . (الثالث) ان الوسخ والزهومة يجتمعان فى الثلمة ولا يصل اليها الغسل كما يصل الى الجانب الصحيح (الرابع) ان الثلمة محل العيب فى القدح وهى أردأ مكان فيه فينبغي تجنبه وقصد الجانب الصحيح فان الردىء من كل شئ لاخير فيه * ورأى بعض السلف رجلا يشترى حاجة رديئة فقال لا تفعل ان الله تعالى نزع البركة من كل ردىء (الخامس) انه ربما كان في الثلمة شق وتحديد يجرح شفة الشارب *وكانوا يكرهون أيضا الشرب من فم السقاء لان تردد انفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يعاف لأجلها الماء وربما غلب الداخل الى جوفه من الماء فتضر به وربما كان فيه حيوان لا يشعر به فيؤذيه . وربما كان في الماء قذارة أو غيرها لا يراها عند الشرب فتلج جوفه . وكانوا يحثون على تغطية الاناء لما فى انكشافه من المحاذير التى لاتخفى . وفى الحديث الشريف (غطوا الاناء وأوكوا السقاء)

مايعتبر به جودة الماء عندهم

يعتبر جودة الماء من عشرة طرق (احدها) من لونه بأن يكون صافيا (الثانى) من رائحته بأن لايكون له رائحة البتة (الثالث) من طعمه بأن يكون عذب الطعم حلوه كالنيل والفرات ونحوهما (الرابع) من وزنه بأن يكون

الشارب وربما انصب الماء على ثوبه وبدنه وقيل موضعها لاينالة التنظيف التام اذا غسل

خفيفا رقيق القوام (الخامس) من مجراه بأن يكون طيب المجرى والمسلك (السادس) من منبعه بأن يكون بعيد المنبع (السابع) من بروزه للشمس والريح بأن لا يكون مختفيا تحت الارض فلا تتمكن الشمس والريح من قصاراته (الثامن) من حركته بأن يكون سريع الجرى والحركة (التاسع) من كثرته بأن يكون له كثرة تدفع المخالط له (العاشر) من مصبه بأن يكون اخذا من الشمال الى الجنوب أو من المغرب الى المشرق . واذا اعتبرت هذه الاوصاف لاتجدها بكمالها الا فى النيل والفرات وسيحون وجيحون ونحوها وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه (أحدها) سرعة قبوله للحر والبرد (الثانى) بالميزان (الثالث) أن تبل قطنتان متساويتان فى الوزن بماءين مختلفين ثم يجففا بالغاثم توزنا فايتهما كانت أخف فماؤها كذلك . والماء وان كان فى الاصل باردا رطبا فان قوته تنتقل وتتغير لاسباب عارضة توجب انتقالها فان الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الاخري يكون باردا وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال . وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخرى . والماء الذى ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدن ويؤثر فى البدن تأثيره . والماء العذب نافع للمرضى والاصحاء والبارد منه أنفع وألذ . قالوا ولا ينبغي شربه على الريق ولا عقب الجماع ولا عند الانتباه من النوم ولا عقب أكل الفاكهة وأما على الطعام فلا بأس به اذا اضطر اليه بل يتعين ولا يكثر منه بل يتمصه مصا فانه لا يضره البتة بل يقوّى المعدة وينهض الشهوة ويزيل العطش . والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه وبائته أجود مما يؤتى به وقت استقائه . قالوا والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه فى الخارج والحار بالعكس . وينفع البارد من عفونة الدم وصعود الأبخرة من الرأس ويدفع العفونات ويوافق الازمنة

والاسنان والاماكن الحارة ويضر كل حالة تحتاج الى نضج وتحليل كالزكام والاورام . والشديد البرودة منه يؤذى الاسنان . والادمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر . والبارد والحار بافراط ضاران للعصب ولأكثر الاعضاء لأن أحدهما محلل والآخر مكثف . والماء الحار يسكن لذع الاخلاط الحارة . ويحلل وينضج ويخرج الفضول ويرطب ويسخن ويفسد الهضم شربه ويطفو بالطعام الى أعالى المعدة ويرخيها ولا يسرع فى تسكين العطش ويذبل البدن ويؤدى الى أمراض رديئة ويضرّ فى أكثر الامراض على أنه صالح للشيوخ وأصحاب الصرع والصداع البارد والرمد وأنفع مااستعمل من خارج والشديد السخونة يذيب شحم الكلى . وعلى كل حال فان الماء البارد أحلى ولاسيما اذا خالطه مايحليه كالعسل والسكر والزبيب ونحو ذلك فانه من أنفع مايدخل البدن ويحفظ عليه صحته ولهذا كان أحب الشراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم البارد الحلو . ولما كان الماء البائت أنفع من الذى يشرب وقت استقائه قال النبى عليه الصلاة والسلام وقد دخل الى حائط أبى الهيثم بن التيهان هل من ماء فى شنّة فأتاه به فشرب منه . فان الماء البائت بمنزلة العجين الخمير والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير . وأيضا فان الاجزاء الترابية والارضية تفارقه اذا بات . والماء الذي فى القرب والشنان «أوان تصنع من جلد» ألذّ من الذى يكون فى آنية الفخار والاحجار وغيرهما عندهم ولاسيما أسقية الأُدم . ولهذا التمس النبى صلى الله عليه وسلم ماء بات فى شنة دون غيرها من الاواني «وفى الماء اذا وضع فى الشنان خاصية لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التى يرشح منها الماء ولهذا كان الماء فى الفخار الذى يرشح ألذ منه وأبرد من الذى لا يرشح

المياه المشهورة عندهم

منها ماء (الغيث) وهو لديهم لذيذ الاسم على السمع والمسمى على الروح والبدن تبتهج أسماعهم بذكره . وقلوبهم بوروده وماؤه من ألطف المياه وأفضلها وأنفعها وأعظمها بركة ولا سيما اذا كان من سحاب راعد واجتمع في مستنقعات الجبال وهو أرطب من سائر المياه لانه لم تطل مدته على الارض فيكتسب من يبوستها ولم يخالطه جوهر يابس ولذلك يتغير ويتعفن سريعاً للطافته وسرعة انفعاله. وهل الغيث الربيعي ألطف من الشتوي أو بالعكس ؟؟ فيه قولان. فمن رجح الغيث الشتوي قال : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل فلا تجتذب من ماء البحر الا ألطفه والجو صاف وهو خال من الابخرة الدخانية والغبار المخالط للماء . وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه وخلوه من مخالط . ومن رجح الربيعي قال : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة وتوجب رقة الهوى ولطافته فيخف بذلك الماء، وتقل أجزاؤه الارضية وتصادف وتصاف وقت حياة النبات والاشجار وطيب الهواء . ومنها ماء (الثلج) و(البرد)و(الجمد)وهذا الماء قليل عندهم لغلبة الحرارة على قطرهم ولكونه لديهم من أنفع المياه وأنقاها وورد في الحديث « اللهم اغسلني من خطاياى بماء الثلج والبرد » والثلج له في نفسه كيفية حادة دخانية فماؤه كذلك . والحكمة في طلب الغسل من الخطايا بمائه مايحتاج اليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية . ويستفاد من هذا الاصل طب الابدان والقلوب ومعالجة أدوائها بضدها . وماء البرد ألطف وألذ من ماء الثلج . وأما ماء (الجمد) وهو الجليد فبحسب أصله . والثلج يكتسب كيفية الجبال والارض التي يسقط عليها في الجودة والرداءة وينبغي تجنب

شرب الماء المثلوج عقب الاستحمام والجماع والرياضة والطعام الحار ولاصحاب السعال ووجع الصدر وضعف الكبد وأصحاب الامزجة الباردة. ومنها ماء (الآبار) و(القناء) و(العيون) وهذه المياه غالب مياه العرب وقد جمع بعض الادباء المتقدمين أسماء مياههم في رسالة لطيفة وذكر أصحابها جاهلية واسلاما وقد ورد فيها من الشعر ما يطول ذكره. ومياه الآبار قليلة اللطافة وماء القناء المدفونة تحت الارض ثقيل لان أحدهما محتقن ولا يخلو عن تعفن والآخر محجوب عن الهواء. وينبغي أن لا يشرب على الفور حتى يصدر للهواء وتأتى عليه ليلة. وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص أو كانت بئره معطلة ولاسيما اذا كانت تربتها رديئة فهذا الماء دفيء وخيم (وأما ماء زمزم) فهو عند العرب جاهلية واسلاما سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرا وأحبها الى النفوس وأغلاها ثمنا وأنفسها وهو هزمة جبريل وسقيا اسماعيل عليهما الصلاة والسلام. وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابي ذرّ وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة وليس له طعام غيره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم انها طعام طعم وشفاء سقم. وفي الحديث (ماء زمزم لما شرب له) وقد جرب كثير من الناس من الاستشفاء بماء زمزم أمورا عجيبة. وقد شوهد من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبا من الشهر ولا يجد جوعا ويطوف مع الناس كأحدهم (وأما مياه العيون) فالغالب عليها الثقل كأكثر مياه الآبار وللأصمعي رسالة ذكر فيها ما اعتبرته العرب من الاسماء في البئر وأنواعها وآلاتها وهي فريدة في بابها. وسنذكر ان شاء الله تعالي عند الكلام على علومهم مالهم من اليد الطولى في معرفة استنباط المياه واجرائها وان قسما منهم يقال لهم النصاتون يضع أحدهم أذنه على الارض فيعلم مسافة بعد الماء في تلك الارض

اسماء اوانى المياه عندهم

كما أن لأوانى الاطعمة أسماء مخصوصة قد ذكرناها لك كذلك لاوانى الشرب أسماء تخص كلامنها عن الأخرى . وقد استوعبها ابن فارس والثعالبي وغيرهما فى كتب فقه اللغة منها (التِّبْن) جاء فى لسان العرب انه أعظم الاقداح «الأواني» يكاد يروي العشرين وقيل هو الغليظ الذي لم يتنوق فى صنعته (قال) ابن برى وغيره ترتيب الاقداح (الغمر) أصغر الاقداح ويقال غمر الرجل اذا شرب به ثم (القعب) يروى الرجل ثم (القدح) يروى الرجلين ثم (العس) يروى الثلاثة والأربعة ثم (الرفد) ثم (الصحن) مقارب التبن

تقديم العرب الايمن في الشرب

ان العادة كانت جارية بين ملوك الأمة العربية فى أطوار الجاهلية ورؤسائهم بتقديم الأيمن فى الشرب وكانت عادة العرب مجاراة ملوكهم بتقديم الايمن فالايمن فى أي شرب كان وعلى ذلك قول شاعرهم المفلق ﴿عمرو بن كلثوم﴾ فى معلقته وهو .

صددتِ الكأس عنا أم عمرو ٭ وكان الكأس مجراها اليمينا

وقد أقر الشارع هذه العادة الجليلة ولم يغيرها لفضل اليمين على اليسار ولهم فى شرب الخمور عادات وآداب مذكورة فى كتاب مساوى الخمرة وكذلك أسماء أوقاته كالصبوح والغبوق ونحو ذلك وهكذا لما يشرب من اللبن وذكره يطول .

عاداتهم في سقي ابلهم واسمائها

كان للعرب في سقي ابلهم عادات مختلفة ولكل منها اسم يخصه فكانوا اذا أوردوها كل يوم يقولون سقيناها رفها. أي في كل يوم واذا أوردوها يوما وتركوها في المرعى يوما قالوا سقيناها غبا. واذا أقاموها في المرعى بعد يوم الشرب يومين ثم أوردوها في اليوم الثالث يقولون سقيناها ربعا ولا يقولون ثلثا أبدا لانهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب فيعدونها أربعة. ويؤيده انه يقال للحمي التي تأتي يوما وتنقلع يومين ثم تأتي في الثالثة حمى الربع وعام ظمأ الابل في الغالب ثمانية أيام فاذا أوردوها في اليوم التاسع منه وهو العاشر من الشرب الاول قالوا سقيناها عشرا بالكسر فالعشر تسعة أيام أبدا لأن يوم الشرب الاول من العشر السابق في الواقع لا من هذا العشر . واذا زادوا على العشرة قالوا أوردناها رفها بعد عشر (١)

اختلافهم في تغذية المياه

اختلف أطباء العرب في الماء هل يغذى البدن أم لا . فاثبتت طائفة

(١) بعد عشر (وحكي) عن الليث انه قال للخليل زعمت ان عشرين جمع عشر والعشر تسعة أيام فكان ينبغي ان يكون العشرون سبعة ويوما لتستكمل ثلاثة اتساع وقال الخليل ثمانية عشر يوما عشران ضممت اليها يومين من العشر الثالث فجمعتها بذلك الاعتبار (قلت) هل يجوز أن تقول للدرهمين مع الدانقين ثلاثة دراهم . قال لا أقيس على هذا وانما أقيس على قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى حيث قال ان من طلق امرأته تطليقتين وعشر تطليقة كان العشر واحدة كاملة جاز لي أن أعتد بيومي عشر وأعدها عشراً كاملا

التغذية بناء على مايشاهده من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ولاسيما عند شدة الحاجة اليه قالوا بين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة (منها) النموّ والاغتذاء والاعتدال . وفى النبات قوة حسّي وحركة تناسبه ولهذا كان غذاء النبات بالماء فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء أو أن يكون جزأ من غذائه التام . قالوا ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام وانما أنكرنا أن لا تكون للماء تغذية البتة . قالوا وأيضا الطعام انما يغذى بما فيه من المائية ولولاها لما حصلت التغذية قالوا ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات . ولاريب أن ما كان أقرب الى مادة الشئ حصلت به التغذية فكيف اذا كانت مادته الاصلية حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الاطلاق . قالوا وقد رأينا العطشان اذا حصل له الرى بالماء البارد تراجعت اليه قواه ونشاطه وحركته وصبر عن الطعام وانتفع بالقدر اليسير منه ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام ولا يجد به القوة والاغتذاء . ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء الى أجزاء البدن والى جميع الاعضاء وانه لا يتم أمر الغذاء الا به . وانما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة . ويكاد قوله عندنا أن يدخل فى انكار الأمور الوجدانية . وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به واحتجت بأمور يرجع حاصلها الى عدم الاكتفاء به وانه لا يقوم مقام الطعام وانه لا يزيد فى نموّ الاعضاء . ولا يخلف عليها بدل ماحللته الحرارة ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية فانهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته وتغذية كل شئ بحسبه . وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه . والرائحة الطيبة تغذي نوعا من الغذاء . فتغذية الماء أظهر وأطهر

(مايعالج به ضرر الماء)

كان لهم سبل من العلاج لدفع مضرة ماء البحر اذا اضطر أحد منهم الى شربه (منها) أن يجعل في قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها الى الصوف فاذا كثر عصره من عمل ذلك ولا يزال على هذا العمل حتى يجتمع له مايريد فيكون في الصوف من البخار ماعذب ويبقى في القدر الزعاق. «ومنها» ان يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه اليها ثم الى جانبها قريبا منها أخرى ترشح هي اليها ثم ثالثة الى أن يعذب الماء. ولهم في تصفية الماء ورفع كدورته حيل وذلك اذا ألجأت أحدهم الضرورة الى شرب الماء الكدر ألقى فيه قطعة من خشب الساج أو جمر املتها يطفأ فيه أو طينا أرمنيا أو سويق حنطة فان كدورته ترسب الى أسفل.

عاداتهم في الازدواج والتناكح

كان النكاح في أطوار الجاهلية على انحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها «أي يعين صداقها» ويسمي مقداره ثم يعقد عليها. وكانوا يخطبون المرأة الى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها. وكان الخاطب يقول اذا أتاهم «انعموا صباحا» ثم يقول نحن أكفاؤكم ونظراؤكم فان زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا وكنا لصهركم حامدين وان رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين. فان كان قريب القرابة من قومه قال لها أبوها أو أخوها اذا حملت اليه أيسرت وأذكرت ولا أنثت جعل الله

منك عددا وعزاً وخلدا . أحسني خلقك . وأكرمي زوجك . وليكن طيبك الماء . واذا زوجت فى غربة قال لها لا أيسرت ولا أذكرت فانك تدنين البعداء . أوتلدين الاعداء . أحسنى خلقك . وتحببى الى أحمائك فان لهم عينا ناظرة اليك . وأذنا سامعة لك . وليكن طيبك الماء . وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب فى النكاح فان الله سبحانه وتعالى اختار رسوله صلى الله عليه وسلم من أطيب المناكح وحماه من دنس الفواحش ونقله من أصلاب نقية . الى أرحام طاهرة . واستخلصه من أكرم العناصر . وأمده بأوكد الأواصر . حفظا لنسبه من قدح . ولمنصبه من جرح . لتكون النفوس له أوطا . والقلوب له أصغى . فيكون الناس الى اجابته أسرع . ولاوامره أطوع . ومنها ﴿ نكاح آخر ﴾ كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها « حيضها » ارسلى الى فلان فاستبضعى منه « أى اطلبى منه الجماع » لتحملى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتي يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب . وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد أى اكتسابا من ماء الفحل لانهم كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم فى الشجاعة والكرم أو غير ذلك وكان السر فى كون ذلك بعد الطهر أن يسرع علوقها منه فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ومنها ﴿ نكاح آخر ﴾ يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها « يطؤها » وذلك انما يكون عن رضا منها وتواطؤ بينهم وبينها . فاذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع

أن يمتنع الرجل من ذلك (قيل) هذا ان كان ذكرا والا فلا تفعل ذلك لما عرف من كراهتهم للبنات وقد كان منهم من يقتل ابنته التى يتحقق انها بنته فضلا عمن تجىء بهذه الصفة. ومنها ﴿نكاح آخر﴾ يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن ليدخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها جُمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطته (ألحقته) به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك. وقد ساق هشام بن الكلبي فى كتاب المثالب أسامى صواحبات الرايات فى الجاهلية فسمى منهن أكثر من عشر نسوة مشهورات (منهن) امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح في الجاهلية فأراد بعض الصحابة أن يتزوجها فنزل النهى عن ذلك بقوله تعالى «والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك» ومنها ﴿نكاح الخدن﴾ وهو المشار اليه بقوله تعالى «محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان» كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم. ومنها ﴿نكاح المتعة﴾ وهو تزوج المرأة الى أجل فاذا انقضي وقعت الفرقة ومنها ﴿نكاح البدل﴾ وهو أن يقول الرجل للرجل انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي. ومنها ﴿نكاح الشغار﴾ وهو ان يزوج الرجل ابنته لرجل آخر على ان يزوجه هذا الرجل ابنته ليس بينهما صداق. وغير البنات من الاخوات وبنات الاخ وغيرهن كالبنات فى ذلك فذكر البنت فى تفسير الشغار مثال.

مقاصد العرب من الزواج

لم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا. ويصير العدوّ مواليا. وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين

وموالاة بين العشيرتين وانما كانت المصاهرة سببا من أسباب الالفة لانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار . انعقدا على خير وايثار فاجتمع فيها أسباب الالفة ومواد المصاهرة (١) ولما في النكاح من حصول الالفة أكثرت العرب من النساء حتى كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع نسوة (٢)

(١) فاجتمع فيها أسباب الالفة ومواد المصاهرة ويؤيد ذلك ماحكي عن خالد بن زيد أنه قال كان أبغض خلق الله عز وجل الي آل الزبير حتى تزوجت منهم أرملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الي وفيها يقول :

أحب بني العوام طراً لاجلها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلباً

فان تسلمي نسلم وان تتنصري * يخط رجال بين أعينهم صلباً

ولذا قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذب به الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا . ولا الى المباينة والمشاقة طريقاً

(٢) حتى كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع نسوة والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في سبب استكثاره صلى الله عليه وسلم من النساء عشرة أوجه (أحدها) ان يكثر ممن يشاهد أحواله الباطنة فينتفي عنه مايظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك (ثانيها) لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم (ثالثها) للزيادة في تألفهم لذلك (رابعها) في التكليف حيث كلف من لايشغله ماحبب اليه منهن عن المبالغة في التبليغ (خامسها) لتكثر عشيرته من جهة فتزاد أعوانه على من يحاربه (سادسها) نقل الاحكام الشرعية التي لايطلع عليها لان أكثر مايقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله (سابعها) الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة فقد تزوج أم حبيبة وأبوها اذ ذاك يعاديه . وصفية بعد قتل أبيها وعمها وزوجها فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه بل الذي وقع انه كان أحب اليهن من جميع أهلهن (ثامنها) لاظهار المعجزة البالغة في خرق العادة في كثرة الجماع مع التقليل من المأكول والمشروب وكثرة الصيام والوصال . وقد أمر من لم يقدر على مؤن النكاح بالصوم وأشار الى أن كثرته تكسر شهوته فانخرقت هذه العادة في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم (تاسعها) للدلالة على كمال بشريته . والعرب كانت تمدح بكثرة

﴿ومن مقاصدهم﴾ فى الزواج القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بألزم لحالة الزوجات لانه قد يجوز أن يعانيه غيرهن من النساء . ولذلك قيل المرأة ريحانة . وليست بقهرمانة . وليس في هذا القصد تأثير في دين ولا قدح في مروءة . والأحمد فى مثل هذا التماس ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنزل وعرفن عادات الرجال فانهن أقوم بهذه الحال . وقد يكون المقصود به الاستمتاع وهذه الحال مذمومة لان الرجل ينقاد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحارث بن النضر الازدى : شر النكاح نكاح الغُلمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور . ولا يلحقه فى ذلك ذم . ولا يناله وصم . وهو بالحمد أجدر . وبالثناء عليه أحق . ولو تنزه فى هذه الحال عن استبدال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته . وأبلغ فى صيانته . وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الامور . وهى أخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتداء كراهية في الانتهاء . ولذلك كرهت العرب فى الجاهلية البنات ووأدتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال . وكان من

النكاح لدلالته على الرجولية (عاشرها) ان ذلك زاده عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه لهن وهدايته لهن ولم ينصف من نقد في هذا الامر فانه لم يكن بدعا من الرسل في ذلك فان التزوج لا ينافي النبوة وان الجمع بينهما قد وقع في رسل كثيرة قبله فذكر انه كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة مهرية وسبعمائة سرية . وانه كان لداؤد عليه الصلاة والسلام مائة امرأة . انتهي بلوغ الارب في أحوال العرب

يحوب (تأثم) من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده .
ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال

انى وان سيق الىّ المهر * ألف وعبدان وذود عشر
* أحب أصهاري الىّ القبر *

﴿ وقال عبد الله بن طاهر ﴾

لكل أبي بنت يراعي شؤونها * ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وأفضلها القبر

﴿ ومن مقاصدهم ﴾ التناسل والتوالد فقد كانت العرب ترغب فى النكاح لطلب الولد وتقول : « من لا يلد لا وُلِد » ولذلك كانوا يلتمسون الحداثة والبكارة لأنها أخص بالولادة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما « أكثر أولادا» وأرضي باليسير) وقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه « عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا وأقل ضنا » وهذه الحال هي أولى الاحوال لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (سوداء ولود خير من حسناء عاقر) . وقد كان العرب يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعداء والاجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرون أنه مضر بخلق الولد بعيد من نجابته . ويقولون ان ولد القريب لا ينجب وان أنجب النساء لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال (ويزعمون) أن تقارب الانساب مدح فى الابل لانه انما يكون فى الكرائم يحمل بعضها على بعض حفظا لنوعها وهو ذم فى الناس لانه فيهم سبب للضعف . وفى الحديث (اغتربوا لا تضووا) أى ان تزوج القرائب يوقع

الضوى في الولد. والضوى بالضاد المعجمة بوزن الهوى مصدر ضوي بالكسر يضوى بالفتح بمعنى الضعف والهزال ولذلك يمدحون بضد ذلك (كقول الراجز)

ان بلالا لم تشنه أمه * لم يتناسب خاله وعمه

﴿ وقول الشاعر ﴾

فتى لم تلده بنت عم قريبة * فيضوى وقد يضوى رَدِيل الاقارب

﴿ وقال آخر ﴾

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة * مخافة أن يضوى عليّ سليلي

﴿ ومن هذا القبيل ﴾ ما يحكي عن العرب أيضاً ان الهجين مدح في الابل وذم في الآدميين لان معناه في الابل كرم الابوين. وفي الآدميين أن يكون الأب عربيا والأم أمة يقال منه رجل هجين وان كان الامر بالعكس قيل رجل مقرف وفلنقس «بوزن سفرجل. أوله فاء ورابعه قاف» ﴿ قال الراجز ﴾

العبد والهجين والفلنقس * ثلاثة فايهم تلتمس

﴿ وقال الشاعر ﴾

كم بجود مقرف نال الغني * وكريم بخله قد وضعه

وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهي مذعورة ثم أذكرت أنجبت

﴿ قال أبو كبير الهذلي ﴾

ولقد سريت على الظلام بمغشم * جلد من الفتيان غير مثقل[1]

(١) كان سبب قول أبي كبير هذه الابيات أنه تزوج أم تأبط شرا وكان غلاما صغيراً فلما كان يكثر الدخول على أمه تنكر له وعرف ذلك أبو كبير في وجهه الى أن ترعرع الغلام فقال أبو كبير لأم تأبط شراً ويحك قد والله رابني أمر هذا الغلام ولا آمنه فلا قربك قالت فاحتل عليه حتى تقتله فقال له ذات يوم هل لك ان تغزو فقال ذاك من

ممن حملن به وهنّ عواقد ٭ حبك النطاق فشب غير مهبل [١]

أمري قال فامض بنا فخرجا غازيين ولا زاد معهما فسارا ليلتهما ويومهما من الغد حتى ظن أبو كبير أن الغلام قد جاع فلما أمسى قصد به أبو كبير قوما كانوا أعداء له فلما رأى نارهم من بعد قال له أبو كبير ويحك قد جعنا فلو ذهبت الى تلك النار فالتمست لنا منها شيئاً قال ويحك وأي وقت جوع هذا قال انا قد جعت فاطلب لي فمضى تأبط شراً فوجد على النار رجلين من ألص من يكون من العرب وانما أرسله اليهما أبو كبير على معرفة فلما رآياه قد غشي نارهما وثبا عليه فكرّ ساعياً فاتبعاه فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر عطف عليه فرماه فقتله ورجع الى الآخر فرماه فقتله ثم جاء الى نارهما فأخذ الخبز منها فجاء به الى أبي كبير فقال كل لا أشبع الله بطنك ولم يأكل هو فقال ويحك أخبرني كيف كانت قصتك قال وما سؤالك عن هذا كل ودع المسئلة فدخلت أبا كبير منه خيفة وأهمته نفسه ثم سأله بالصحبة الا حدثه كيف عمل فأخبره فازداد منه خوفا ثم مضيا في غزاتهما فأصابا ابلا ومتن به أبو كبير ثلاث ليال يقول كل ليلة اختر أيّ نصفي الليل شئت تحرس فيه وأنام وننام النصف الآخر وأحرس فقال ذلك اليك اختر أيهما شئت فكان أبو كبير ينام الى نصف الليل ويحرسه تأبط شراً فاذا نام تأبط شراً نام أبو كبير أيضاً لا يحرس شيأ حتى استوفى الثلاث فلما كان في الليلة الرابعة ظن أن النعاس قد غلب الغلام فنام أول الليل الى نصفه وحرسه تأبط شرا فلما نام الغلام قال أبو كبير الآن يستثقل نوما وتمكنني فيه الفرصة فلما ظن انه قد استثقل أخذ حصاة فخذف بها فقام الغلام كأنه كعب فقال ماهذه الوجبة قال لاأدري والله سمعته في عرض الابل فقام وعسّ وطاف فلم ير شيأ فعاد فنام فلما ظن انه قد استثقل أخذ حصية أصغر من تيك فخذف بها فقام كقيامه الاول فقال ماهذا الذي أسمع قال والله ماأدرى قد سمعت كما سمعت وما أدري ماهو ولعل بعض الابل تحرك فقام وطاف وعس فلم ير شيأ فعاد فنام فأخذ حصية أصغر من تلك جداً فرمى بها فوثب كما وثب أولا فطاف وعس فلم ير شيأ فرجع اليه فقال ياهذا انى قد أنكرت أمرك والله لئن عدت أسمع شيأ من هذه لاقتلنك قال فقال أبو كبير فبتّ والله أحرسه خوفا أن يتحرك شئ من الابل فيقتلني قال فلما رجعا الى حيهما قال أبو كبير ان أم هذا لامرأة لا أقربها أبداً وقال هذه الابيات المذكورة

والمقتحم من يرتكب الامور على غير نظر فيها والمثقل الثقيل على النفوس (١) الحبك الطرائق

حملت به فى ليلة مزؤدة * كرها وعقد نطاقها لم يحلل (١)
فأتت به حوش الفؤاد مبطنا * سهدا اذا ما نام ليل الهوجل (٢)

والواحد حبيك والحبكة والحباك الازار أيضاً يقال احتبكت المرأة ومعناه انه من الفتيان الذين حملتهم أمهاتهم وهنّ غير مستعدات للفراش فنشأ محموداً مرضياً لم يدع عليه بالهبل والثكل . (وحكي) عن بعضهم اذا أردت أن تنجب المرأة فأغضبها عند الجماع ولذلك يقال في ولد المذعورة انه لايطاق (قال الشاعر)

تسنمتها غضبى فجاء مسهداً * وأنفع أولاد الرجال المسهد

وقال المبرد في الكامل يقال أنجب الاولاد ولد الفارك وذلك لانها تبغض زوجها فيسبقها بمائه فيخرج الشبه اليه فيخرج الولد ذكراً . وقال بعض الحكماء من العرب اذا أردت ان تنجب المرأة فأغضبها ثم قع عليها فانك تسبقها بالماء وكذلك ولد الفزعة كما قال أبو كبير وأنشد البيتين . والنطاق بكسر النون شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها للعمل ثم ترسل الاعلى على الاسفل الى الركبة والاسفل ينجر الى الارض

(١) حملت به الخ معنى هذا البيت انها حملت به في ليلة ذات ذؤد وهو الفزع المستوجب لعدم ميل النساء للجماع لانكسار سورة شهوتهن اذ ذاك فلا يكون لهن في الولد حظ كامل ويكون كمال الشهوة لأبيه فيكتسب بذلك أتمام خصال الرجولية . وفائدة ذكر الليلة أن تكون بدأت بحمله ليلا وهو أنجب له وصاحبه يوصف بالشجاعة وقد دعاهم ذلك الى أن وصلوا أنسابهم بالليل تحققا به قال :

أنا ابن عم الليل وابن خاله * اذا دجا دخلت في سرباله
* لست كمن يفرق من خياله *

(٢) حوش الفؤاد أي ذكيّ الفؤاد والمبطن الخميص البطن والسهد من السهاد وهو السهر والهوجل الثقيل الكسلان . وقيل الاحمق لامسكة به معناه أن الأم أتت بهذا الولد ذكياً حديد الفؤاد يسهر اذا نام الهوجل أى الجافي الثقيل النوم

ومبرّأ من كل غبّر حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل (١)
فاذا نبذت له الحصاة رأيتـه * ينزو لوقعتها طمور الأخيـل (٢)
واذا يهب من المنام رأيته * كرتوب كعب الساق ليس بزمل (٣)
ماان يمس الارض الا منكب * منه وحرف الساق طي المحمل (٤)
واذا رميت به الفجاج رأيته * يهوي مخارمها هوي الاجدل (٥)
واذا نظرت الى أسرّة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل (٦)
صعب الكريهة لا يرام جنابه * ماضي العزيمة كالحسام المقصل (٧)

(١) غبر حيضة أي بقايا حيضة والمغيل من الغيلة بكسر الغين وهو أن تغشي وهي ترضع معناه أنها حملت به وهي طاهرة ليس بها بقية حيض ووضعته ولا داء به استصحبه من بطنها ولم ترضعه غيلا

(٢) قوله ينزو الخ أى يثب وثوب الاخيل والاخيل طائر قيل هوالشاهين والمعنى انك اذا رميته بحصاة وهو نائم وجدته ينتبه لذلك انتباه من سمع بوقعتها هدة

(٣) رأيته أي رأيت رتوبه فحذف المضاف والرتوب القيام والانتصاب والزمـل الضعيف معناه انه اذا استيقظ من المنام انتصب انتصاب كعب الساق

(٤) المعنى انه اذا نام لاينبسط على الارض ولا يتمكن منها بأعضائه كلها حتى لا يكاد يتشمر عند الانتباه بسرعة والمحمل حمائل السيف .

(٥) المخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل والاجدل الصقر وهـذا الـكلام كناية عن كونه صاحب همم اذا نيطت به الصعاب ذللها

(٦) أسرّة وجهه أي خطوط جبهته والعارض من السحاب مايعرض في جانب السماء والمتهلل المتلألئ بالبرق يقول اذا نظرت في وجهه رأيت أسارير وجهه تشرق اشراق السحاب المتهلل بالبرق .

(٧) الحسام السيف والمقصل القطاع

يحمي الصحاب اذا تكون عظيمة * واذا همو نزلوا فأوي العيل[1]

فتبين مما سردناه أن العرب كانت غاية مقاصدهم ومرمي أنظارهم من الزواج التناسل والاولاد لا قضاء الشهوة الحيوانية ولذلك تتبعوا الاسباب الباعثة على نجابة أولادهم

مايستحسن من المرأة

﴿ خلقا وخُلقا لدى الأمة العربية فى أطوار الجاهلية ﴾

كان العرب يكرهون الجمال البارع . اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قالوا « من بسطه الادلال . قبضه الاذلال » واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة (وقد حكى) أن رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى أنيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الأول :

وان تصادف مرعى ممرعا أبداً * الا وجدت به آثار منتجع

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة ﴿ وسمع ﴾ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه امرأة تقول

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

﴿ فقال رضي الله تعالى عنه ﴾

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك أدوم للألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة . والمال عرضة للزوال . ولذلك قيل حسن الصورة أُولى السعادة . وفى

(١) الصحاب الاصحاب والعيل جمع عائل وهو الفقير ههنا يصفه بأنه شجاع كريم

الحديث (أعظم النساء بركة أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً) فان سلمت الحال من الادلال . المفضى الى الملال . استدامت الألفة واستحكمت الوصلة

﴿ أما محاسن خلقها ﴾ فأن تكون شابة حسنة الخلق جميلة الوجه حسنة المعرى والقدّ . لينة القصب لم يركب بعض لحمها بعضاً . ضامرة البطن لطيفة الكشحين . رقيقة الخصر . مع امتداد القامة . طويلة العنق فى اعتدال وحسن . عظيمة الوركين والعجيزة . ممتلئة الذراعين والساقين . رقيقة الجلد . ناعمة البشرة . كأن الماء يجري فى وجهها . طيبة الريح والفم وريح الانف والخلوة . لعوباً ضحوكا . تامة الشعر لم يكن لمرفقها حجم .

﴿ وأما محاسن أخلاقها ﴾ فأن تكون حيية منخفضة الصوت محبة لزوجها متحببة اليه نفوراً من الريبة تجتنب الاقذار عاملة اليدين خفيفتهما فى العمل ولوداً (وعن أبى بكر بن دريد) بسنده الى أبى عمرو بن العلاء قال كان لرجل من مقاول حمير ابنان يقال لأحدهما عمرو وللآخر ربيعة وكانا قد برعا فى العلم والادب . فلما بلغ الشيخ أقصى عمره وأشفى على الفناء دعاهما ليبلو عقولهما ويعرف مبلغ علمهما فلما أتياه سألهما عن أشياء فأحسنا فى الجواب عنها . وسنورد كل سؤال مع جوابه فيما يناسبه من مباحث الكتاب ومطالبه . ومما سألهما عنه حال النساء فقال أخبرنى يا عمرو أىّ النساء أحب اليك . قال : الهركولة اللفاء (١) ، الممكورة (٢) الجيداء ، التى يشفي السقيم كلامها ، ويبرئ الوصب إلمامها ، التى ان أحسنت اليها شكرت ، وان أسأت اليها صبرت ، وان استعتبتها اعتبت ، الفاترة الطرف ، الطفلة الكف

---

(١) الهركولة الحسنة الجسم . واللفاء الملتفة الجسم (٢) الممكوره المطوية الخلق

العميمة الردف، قال ماتقول ياربيعة قال نعت فأحسن وغيرها أحب الي قال ومن هي؟ قال الفتانة العينين، الأسيلة الخدين، الكاعب الثديين، الرداح [١] الوركين الشاكرة للقليل، المساعدة للحليل، الرخيمة [٢] الكلام، الجماء [٣] العظام، الكريمة الاخوال والاعمام، العذبة اللثام [٤] (وقال رجل) من العرب لآخر وقد أراد أن يتزوج . خذ ملساء القدمين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين، شفياء الثغر، محلوكة الشعر، غيداء العنق مكسرة البطن (وعن أبي بكر بن دريد) رحمه الله تعالى قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه «الاصمعي» قال وصف أعرابي نساء فقال يلتمثن على السبائك [٥] ويتشحن على النيازك [٦]، ويأتزرن على العوانك [٧]، ويرتفقن على الارائك [٨]، ويتهادين على الدرانك، [٩] ابتسامهن وميض [١٠]، عن واسع كالاغريض [١١]، وهن الى الصبا

(١) الرداح الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين (٢) الرخيمة اللينة الكلام قال ذو الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق * رخيم الحواشي لاهراء ولانزر

(٣) الجماء العظام التى لايوجد لها حجم بمنزلة الجماء من البقر (٤) أراد بقوله العذبة اللثام موضع اللثام فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه

(٥) اللثام على الفم واللفام على طرف الانف يقال تلثمت المرأة وتلفمت المرأة والسبائك هنا الاسنان شبهها لبياضها بالسبائك (٦) النيازك واحدها نيزك وهو الرمح القصير (٧) العوانك واحدها عانك وهو رمل منعقد يشق فيه البعير لايقدر على السير فيقال حينئذ قد اعتنك (٨) الارائك السرر واحدها أريكة وقال قوم الفرش (٩) يتهادين يمشين مشياً ضعيفاً قال الاعشى : « تهادي كما قد رأيت البهيرا » والدرانك الطنافس واحدها درنوك (١٠) الوميض اللمعان الخفي (١١) الاغريض والوليع الطلع

صور[1] وعن الخنى نور[2] .

﴿ وأحسن ماقرأت ﴾ من وصف نساء العرب خلقا وخلقا ماذكره كثير من أئمة الأدب ومنهم الميداني في كتابه مجمع الأمثال عند قولهم « ماوراءك ياعصام » قال : قال المفضل أول من قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة . وذلك انه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان وأدب . وقال لها اذهبي حتى تعلمي لي ابنة عوف بن محلم فمضت حتى انتهت الى أمها وهي « امامة بنت الحارث » فأعلمتها ماقدمت له فأرسلت الى ابنتها . وقالت أي بنية هذه خالتك أتتك لتنظر اليك . فلا تستري عنها شيئا ان أرادت النظر من وجه أو خلف . وناطقيها ان استنطقتك فدخلت اليها فنظرت الى مالم تر مثله قط فخرجت من عندها وهي تقول : ترك الخداع . من كشف القناع . فأرسلتها مثلا ثم انطلقت الى الحارث فلما رآها مقبلة قال ماوراءك ياعصام . قالت : صرح المخض عن الزبد رأيت جبهة كالمرآة المصقولة . يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ان أرسلته خلته سلاسل ، وان مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحمم . تقوسا على مثل عين الظبية العبهرة ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع حفت به وجنتان كالأرجوان في بياض كالجمان ، شق فيه كالخاتم . لذيذ المبتسم . فيه ثنايا غر ذات أشر . تقلب فيه لسانا بفصاحة وبيان . بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حمراوان . تحلبان ريقا كالشهد اذا دلك . في رقبة بيضاء كالفضة

(١) صور موائل ومنه قيل للمائل العنق أصور (٢) نور نفر من الريبة واحدها نوار

ركبت في صدر كصدر تمثال دمية . وعضدان مدمجان . يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس . ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان . دقيق قصبهما تعقد ان شئت منهما الانامل تنأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليهما ثيابها، تحت ذلك بطن طوي طي القباطي المدمجة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو . خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهي الى خصر . لولا رحمة الله لانبتر . لها كفل يقعدها اذا نهضت . وينهضها اذا قعدت . كانه دعص رمل . لبده سقوط الطل، يحمله فخذان لفاوان كأنما قلبا على نضد جمان . تحتها ساقان خدلتان كالبردتين وشيتا بشعر أسود كأنه حلوق الزرد . يحمل ذلك قدمان . كحذو اللسان . فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل مافوقهما . فأرسل الملك الى أبيها فخطبها فزوجها اياه وبعث بصداقها فجهزت فلما أرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها أي بنية ان الوصية لو تركت لفضل في أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو ان امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما اليها ، كنت أغنى الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال أي بنية فارقت الجو الذي منه خرجت . وخلفت العش الذي منه درجت . الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، يابنية احملي عني عشر خصال يكن لك ذخرا وذكرا . الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه . والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عيناه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا طيب ريح ، والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود والتعهد لوقت طعامه ، والهدء عنه حين منامه . فان حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص

النوم مبغضة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والارعاء على العيال والحشم حسن التدبير ، ولاتفشي له سرا ، ولا تعصي له أمراً . فانك ان أفشيت سره . لم تأمني غدره ، وان عصيت أمره . أوغرت صدره ، ثم اتقي مع ذلك الفرح ان كان ترحا ، والاكتئاب عنده ان كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير . وكوني أشدما تكونين له اعظاما ، يكن أشدمايكون لك اكراما ، وأشد ماتكونين له موافقة ، أطول ماتكونين له مرافقة واعلمي انك لاتصلين الى ماتحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يخير لك . فحملت اليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن . انتهى

﴿ وقد وصف المنذر الاكبر ﴾ جارية أهداها الى كسرى أنو شروان فقال في كتابه له : اني قد وجهت الى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء وطفاء ، كحلاء عجاء ، حوراء عيناء ، قنواء شماء ، برجاء زجاء ، أسيلة الخد ، شهية المقبل ، جثلة الشعر ، عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القرط ، عيطاء ، عريضة الصدر ، كاعب الثدي ، ضخمة مشاش المنكب والعضد ، حسنة المعصم ، لطيفة الكعب والقدم ، قطوف المشي ، مكسال الضحى بضة المتجرد . سموع للسيد . ليست بخنساء . ولا سعفاء . رقيقة الانف . عزيزة النفس . لم تغذ فى بؤس . جيية رزينة . حليمة ركينة . كريمة الخال . تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها . وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها قدأحكمتها الامور فى الأدب . فرأيها رأى أهل الشرف وعملها عمل أهل الحاجة . صناع الكفين . قطيعة اللسان . زهوت الصوت ساكنة تزين الوليّ . وتشين العدو

ان أردتها اشتهت . وان تركتها انتهت . تحملق عيناها . وتحمر وجنتاها وتذبذب شفتاها . وتبادرك الوثبة اذا قمت ولا تجلس الا بأمرك اذا جلست:

وكثيراً ما لهجت ألسن شعراء الأمة العربية فى أطوار الجاهلية من أوصاف النساء المحمودة ﴿ فمن ذلك ﴾ قول بعضهم من قصيدة طويلة :

بيضاء قد لبس الأديم أديـ * ـم الحسن فهو لجلدها جلد
ويزين فوديها اذا حسرت * ضافى الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيضّ * والفرع مثل الليل مسود
وجبينها صلت وحاجبها * شخت المخط أزجّ ممتدد
وكأنها وسنى اذا نظرت * أو مدنف لما يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد * وبها تداوي الأعين الرمد
وتريك عرنينا به شمم * وتريك خدا لونه الورد
وتجيل مسواك الاراك على * رتل كأن رضابه شهد
والجيد منها جيد رائعة * تعطو الى ما طاله المرد
وامتد في اعضادها قصب * فعم تلته مرافق ورد
والمعصمان فما يرى لهما * من نعمة وغضاضة زند
ولها بنان لو أردت له * عقداً بكفك أمكن العقد
وكأنما سقيت ترائبها * والنحر ماء الدر اذ تبدو
وبصدرها حقان خلتهما * كافورتين علاهما ند
والبطن مطوى كما طويت * بيض الرباط لصونها الملد
وبخصرها هيف يزينه * فاذا تنوء يكاد ينقد
والتف حاذاها وفوقهما * كفلّ كدعص الرمل مشتدّ

وقيامها مشى اذا نهضت * من لينها وقعودها فرد
والكعب ادرم مايبين له * حجم وليس لرأسه حد
ومشت على قدمين خصرتا * والتفتا فتكامل النقد
ماعابها طول ولا قصر * فى خلقها فقوامها قصد

وكان العرب مع اعتبارهم هذه الأوصاف يراعون شرف الفصيلة . وهم الذين ينتفي بهم العار . ويحصل بهم الاستكثار . وفى الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الأكفاء » ﴿وروى﴾ ان صيفيّ بن أكثم قال لبنيه يابنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح اللئيمة مدرجة الشرف ﴿وقال﴾ أبو الأسود الدؤلى لبنيه قد أحسنت اليكم صغاراً وكباراً وقبل ان تولدوا : قالوا وكيف أحسنت الينا قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات من لاتسبون بها ﴿ وأنشد الرياشى ﴾

فأول احسانى اليكم تخيرى * لماجدة الاعراق باد عفافها

النعوت المذمومة في المرأة

﴿ خلقا وخلقا لدي الأمة العربية فى أطوار الجاهلية ﴾

﴿مايلزم التحرز عنه﴾ من صفات الذات وأحوال النفس أمور كثيرة ما لها الى بعد الخير عنها . وقلة الرشد فيها . فان كوامن الاخلاق بادية فى الصور والاشكال كالذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة أتزوجت يازيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك . ولا تتزوج من النساء خمسا : قال وماهن يارسول الله . قال : لاتتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هندرة ولا لفوتا فقال يارسول الله انى لاأعرف مما قلت شيأ قال أما

الشهبرة فالزرقاء البذية . وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة . وأما النهبرة فالعجوز المدبرة . وأما الهندرة فالقصيرة الذميمة . وأما اللفوت فذات الولد من غيرك ﴿وقال شيخ﴾ من بني سليم لابنه يابني اياك والرقوب[١] الغضوب القطوب . (وأوصى) بعض الاعراب ابنه في التزوج فقال . اياك والحنانة[٢] والمنانة[٣] والأنانة[٤] (وقال أوفى بن دلهم) النساء أربع فمنهن مقمع . لهاسنها أجمع . ومنهن ممنع . تضر ولا تنفع . ومنهن مصدع . تفرق ولا تجمع . ومنهن غيث وقع ببلد فأمرع ﴿وقال الشاعر﴾

أرى صاحب النسوان يحسب أنها * سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات يفيء ظلالها * ومنهن نيران لهن وقيد

(ومن) جملة أسئلة القيل الحميري ولديه أنه قال لاحدهما أي النساء اليك أبغض ياعمرو قال القتاتة[٥] الكذوب ، الظاهرة العيوب ، الطوافة الهبوب[٦] العابسة القطوب ، السبابة الوثوب . التي ان ائتمنها زوجها خانته ، وان لان لها أهانته ، وان أرضاها أغضبته ، وان أطاعها عصته «وقال» للثاني ماتقول ياربيعة فقال بئس والله المرأة ذكر وغيرها أبغض الي منها ، قال وأيتهن التي هي أبغض اليك من هذه قال : السليطة اللسان . المؤذية للجيران ، الناطقة بالبهتان . التي وجهها عابس ، وزوجها من خيرها آيس ، التي ان عاتبها زوجها وترته ، وان ناطقها انتهرته قال ربيعة وغيرها أبغض الي منها . قال ومن هي قال التي شقي صاحبها وخزي

---

(١) الرقوب هي التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله (٢) الحنانة أي التي تحن لزوج كان
(٣) المنانة أي التي تمن على زوجها بمالها (٤) الانانة أي التي تئن كسلا وتمارضاً
(٥) القتاتة هي النمامة (٦) الهبوب هي الكثيرة الانتباه . قال الاصمعي يقال هب من نومه يهب هبوبا وأهببته أي أنبهته

خاطبها ، وافتضح أقاربها ، قال ومن صاحبها قال صاحبها مثلها فى خصالها كلها لاتصلح الا له ولا يصلح الا لها، قال فصفه لى ،قال الكفور غير الشكور ، اللئيم الفخور ، العابس الكالح ،الحرون الجامح ، الراضى بالهوان، المختال المنان الضعيف الجبان ،الجعد البنان ، القؤل غير الفعول ، الملول غير الوصول، الذي لا يبرح عن المحارم ،ولا يرتدع عن المظالم .

﴿وعن أبى بكر رحمه الله تعالى﴾ قال أخبرنى عبد الرحمن عن عمه قال سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله ان شربك لاشتفاف ، وان ضجعتك لانجعاف [١] ، وان شملتك لالتفاف ، وانك لتشبع ليلة تضاف وتنام ليلة تخاف ، فقال لها والله انك لكرواء [٢] الساقين ، قعواء [٣] الفخذين ، مقاء [٤] الرفغين ، مفاضة [٥] الكشحين [٦] ، ضيفك جائع ، وشرك شائع ،

ومن نعوتهن المذمومة أن تكون المرأة نهاية فى السمن والعظم ضخمة البطن . مسترخية اللحم . ضخمة الثديين . طويلتهما . مسترخيتهما . أو أن تكون قليلة اللحم قصيرة ذميمة غير طيبة الخلوة . دقيقة الساقين والذراعين منتنة

(١) الانجعاف الانصراع (٢) الكرواء هي الدقيقة الساقين (٣) قال أبو بكر القعواء المتباعدة مابين الفخذين ولم أسمع هذا من غيره والذى ذكره اللغويون فى كتبهم فيما قرأته نجواء المتباعدة مابين الفخذين (٤) قال أبو زيد المقاء الدقيقة الفخذين وكذلك الرفغاء ل الاصمعي المقاء الطويلة والمقق الطول ورجل أمقّ طويل قال رؤبة :

لواحق الاقراب فيها كالمقق * تقليل ماقارعن من سمر الطرق

يصف بذلك أتنا (٥) المفاضة المسترخية (٦) الكشحان الخاصرتان وهما الايطلان والاطلان والقربان والصقلان واحدها قرب وصقل وكشح وأطل وأيطل .

الريح . أو أن تكون حديدة اللسان شديدة الصوت . جريئة قليلة الحياء . بذيئة فاحشة وقحة وتسمى هذه سلفعة * وفى الحديث « شرهن السلفعة » وللعرب كثير من الشعر المشتمل على مايذم من النساء ﴿فمنه قول قائلهم﴾

رقطاء حدباء يبدي الكيد ضحكها * قنواء بالعرض والعينان بالطول
لها فم ملتقى شدقيه نقرتها * كأن مشفرها قد طرّ من فيل
أسنانها أضعفت فى خلقها عددا * مظهّرات جميعا بالرواويل

﴿وقال آخر﴾

لاسماء وجه بدعة من سماجة * يرغبنى فى نيك كل أتان
بدا فبدت لى شقة من جهنم * فقمت ومالى بالجحيم يدان
وغادرت أصحابى الذين تخلفوا * بعاشئة من خزى وطول هوان
وما كنت أدرى قبلها أن فى النسا * جحيما أراها جهرة وترانى

﴿وقال آخر فى القصر﴾

ألا ياشبيه الدب مالك معرضا * وقد جعل الرحمن طولك فى العرض
وأقسم لو خرت من استك بيضة * لما انكسرت من قرب بعضك من بعض

﴿وقال آخر﴾

ألم بجوهر بالقضبان والمدر * وبالعصيّ التى فى رأسها عجر
ألم بها لاالتسليم ولا مقة * الا ليكسر منها أنفها الحجر
ألم بوطباء في أشداقها سعة * فى صورة الكلب الا أنها بشر
حدباء وقصاء صيغت صيغة عجبا * وفى ترائبها عن وصفها حجر

﴿وقال آخر﴾

لاتنكحن الدهر ماعشت أيما * مجرّمة قد ملّ منها وملت

تحك قفاها من وراء خمارها * اذا فقدت شيأ من البيت جنت
تجود برجليها وتمنع درها * وان طلبت منها المودة هرت

﴿ وقال آخر ﴾

لا تنكحن عجوزا ان أتيت بها * واخلع ثيابك منها ممنعا هربا
وان أتوك وقالوا انها نصف * فان أمثل نصفيها الذي ذهبا

والشعر في هذا المعنى كثير وفي هذا القدر كفاية . وربما كان بعض العرب يختار غير المستكملة للأوصاف المحمودة رغبة في حسبها وسؤددها

الصفات المحمودة وغيرها في الزوج

﴿ خلقا وخلقا لدي الأمة العربية في أطوار الجاهلية ﴾

﴿ عن أبي بكر بن دريد ﴾ رحمة الله تعالى عليه قال أخبرني عمي عن أبيه عن ابن الكلبي قال : قالت عجوز من العرب لثلاث بنات لها صفن ماتحبين من الازواج ﴿ فقالت الكبرى ﴾ أريده أروع (١) بساما ، أحذ (٢) مجذاما (٣) سيد ناديه (٤) ، وثمال (٥) عافيه (٦) ومحسب (٧) راجيه ، فناؤه (٨) رحب ، وقياده صعب ﴿ وقالت الوسطى ﴾ أريده عالي السناء (٩) ، مصمم المضاء (١٠) ،

(١) الاروع الكريم وقيل هو الذي يروعك جماله (٢) الاحذ هنا الخفيف السريع (٣) المجذام مفعال من الجذم والجذم القطع تريد أنه قطاع للامور (٤) النادى والندى المجلس (٥) الثمال الغياث وثمال القوم غياثهم ومن يقوم بأمرهم (٦) عافيه الذين يعفونه أي يأتونه (٧) محسب كاف قال امرؤ القيس :

فتملأ بيتنا أقطا وسمنا * وحسبك من غنى شبع وري

أي يكفيك الشبع والري (٨) فناؤه رحب أي واسع (٩) السناء هو بالمد الشرف (١٠) المصمم من الرجال الذي يمضي في الامور لا يرد عزمه شئ

عظيم نار ، متمم أيسار [١] ، يفيد ويبيد ، ويبدئ ويعيد ، هو في الأهل صبيّ ، وفى الجيش كميّ [٢] ، تستعبده الحليلة [٣] ، وتسوّده الفصيلة .

﴿ وقالت الصغرى ﴾ أريده بازل عام [٤] كالمهند الصمصام ، قرانه حبور ، ولقاؤه سرور ، ان ضم قضقض [٥] ، وان دسر [٦] أغمض ، وان أخل أحمض ، قالت أمها فض فوك لقد فررت لى ثمرة الشباب جذعة

﴿ وعن أبي بكر بن دريد ﴾ أيضاً قال أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه قال : كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهراً ثم

---

(١) أيسار جمع يسر وهو الذي يدخل مع القوم في القداح وهو مدح (قال الشاعر)

وراحلة نحرت لشرب صدق ✻ وما ناديت أيسار الجزور

(٢) الكمي قال ابن الاعرابي الشجاع وسمى كميا لانه يتكمى الاقران لا يكع ولا يجبن عن قرنه أى يقصد وكل ما اعتمدته فقد تكميته وأنشد :

بل لو شهدت الناس اذ تكموا ✻ بقدر حمّ لهم وحموا

✻ وغمة لو لم تفرّج غموا ✻

(٣) حليلة الرجل امرأته وحليلته أيضاً جارته التي تحاله وتنزل معه قال الشاعر :

ولست بأطلس الثوبين يصبي ✻ حليلته اذا هجع النيام

(٤) قولها أريده بازل عام أى تام الشباب كامل القوة لان البعير أتم ما يكون شبابا وأكمله قوة اذا كان بازل عام

(٥) قضقض أي حطم كما يقضقض الاسد الفريسة وهو أن يحطمها وينفضها فتسمع لعظامها صوتا والاسد القضقاض الحطام (قال رؤبة)

كم جاوزت من حية نضناض ✻ وأسد في غيله قضقاض

ليث على أقرانه رباض ✻ يلقى ذراعي كلكل عرباض

والعرباض الثقيل العظيم (٦) دسر دفع ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما في العنبر « انما هو شيء دسره البحر » أي لا زكاة فيه .

ولدت له بنت فبنى لها قصرا منيفا بعيدا من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدّبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشإ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها ملكها أهـل مخلافها [١] فاصطنعت النسوة اللواتى ربينها وأحسنت اليهنّ وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرا دونهن . فقلن لها يوما : يابنت الكرام لو تزوجت لتم لك الملك . فقالت : وما الزوج؟؟ «فقالت احداهن» الزوج عزّ فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، ان غضبت عطف ، وان مرضت لطف ، قالت نعم الشئ هذا «فقالت الثانية» الزوج شعارى حين أصرد [٢] ، ومتكئي حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت ان هذا لمن كمال طيب العيش «فقالت الثالثة» الزوج لما عنانى كاف ، ولما شفنى شاف ، يكفينى فقد الالاف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد ، لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه «فقالت» أمهلننى أنظر فيما قلتن فاحتجبت سبعا ثم دعتهن فقالت قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملك رقى ، وأبثه باطلى وحقى ، فان كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغيتى ، وان كان غير ذلك فقد طالت شقوتى ، على أنه لا ينبغي الا أن يكون كفؤا كريما يسود عشيرته ، ويرب [٣] فصيلته ، لا أتقنع به عارا فى حياتى ، ولا أرفع به شنارا لقومي بعد وفاتى ، فليكنه فابغينه ، وتفرقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحباء ، وعلىّ لها الوفاء ، فخرجن فيما وجهتهن له ، وكن بنات مقاول ذوات عقل راجح ، ورأى سديد ، فجاءتها احداهن وهى عمرّطة بنت زرعة بن ذى خنفر فقالت قد أصبت البغية فقالت صفيه ولا تسميه ، فقالت . غيث فى المحل ، ثمال فى الأزل ، مفيد مبيد ، يصلح النائر ، وينعش العاثر ويغمر الندىّ ،

(١) المخلاف الكورة (٢) أصردأي أبرد (٣) يرب أى يجمع ويصلح

ويقتاد الأبيّ ، عرضه وافر ، وحسبه باهر ، غض الشباب ، طاهر الأثواب (قالت) ومن هو ؟ قالت: سبرة بن عوال بن شداد بن الهمال (ثم) خلت بالثانية فقالت أصبت من بغيتك شيئا ؟ قالت نعم . قالت صفيه ولا تسميه . قالت: مصاص النسب ، كريم الحسب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مقتبل الشباب ، خصيب الجناب ، أمره ماض ، وعشيره راض ، (قالت) ومن هو ؟ قالت يعلى بن هزّال بن ذي جدن (ثم) خلت بالثالثة فقالت ما عندك ؟ قالت وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد ، يعطي قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال ، فى العشيرة معظم ، وفى الندى مكرم ، جم الفواضل كثير النوافل ، بذال أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال (قالت) ومن هو ؟ قالت رواحة بن خير بن مضحى بن ذى هلاهلة . فاختارت يعلى ابن هزال فتزوجته فاحتجبت عن نسائها شهرا ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء ، وأعظمت لهن العطاء ﴿ وكان ﴾ ذو الاصبع العدوانى حكيم العرب رجلا غيورا وله بنات أربع وكان لا يزوجهن غيرة ويقال انه عرض عليهن أن يزوجهن فأبين وقلن خدمتك وقربك أحب الينا فاستمع عليهن يوما من حيث لا يرينه وقد خلون يتحدثن فقالت قائلة منهن لتقل كل واحدة منا ما فى نفسها ولنصدق جميعا ﴿ فقالت كبراهن ﴾

ألا هل أراها ليلة وضجيعها * أشم كنصل السيف عين مهند [1]

---

(١) الشمم هو ارتفاع أرنبة الانف وورودها يقال رجل أشم وامرأة شماء وقوم شم (قال حسان بن ثابت)

بيض الوجوه كريمة أحسابهم * شم الانوف من الطراز الاول

والشمم الارتفاع في كل شيء فيحتمل أن يكون أراد حسان بشم الانوف ما ذكرناه

عليم بادواء النساء وأصله * اذاما انتمى من سر أهلي ومحتدي (١)

« ويروى » من أهل سرى ومن أصل سري فقلن لها أنت تريدين ذا قرابة قد عرفته « وفي رواية أنت تريدين ابن عم لك قد عرفته ﴿ ثم قالت الثانية ﴾

ألا ليت زوجي من أناس ذوي عدّى * حديث الشباب طيب النشر والذكر (٢)

لصوق بأكباد النساء كأنه * خليفة جان لا ينام على وتر (٣)

من ورود الارنبة لان ذلك دليل العتق والنجابة عندهم ويجوز أن يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الامور ورذائلها وخص الانوف بذلك لأن الحمية والغضب والانفة يكون فيها ولم يرد طول أنفهم وهذا أشبه أن يكون مراده لانه قال بيض الوجوه ولم يرد بياض اللون في الحقيقة وانما كني بذلك عن نقاء أعراضهم وجميل أخلاقهم وأفعالهم كما يقول القائل جاءني فلان بوجه أبيض وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا وانما يعنى ما ذكرناه وقول المرأة أشم كنصل السيف يحتمل الوجهين أيضاً ومعنى قول حسان من الطراز الاول أي أفعال آبائهم وسلفهم وانهم لم يحدثوا أخلاقا مذمومة لا تشبه نجارهم وأصولهم وقولها عين مهند أي هو المهند بعينه وعين الشيء نفسه وعلى الرواية الاخرى غير مهند أي ليس هو السيف المنسوب الى الهند في الحقيقة وانما هو شبيه به في مضائه اهـ أمالي السيد المرتضي

(١) قولها من سر أهلي أي من أكرامهم وأخلصهم يقال فلان في سر قومه أي في صميمهم وشرفهم وسر الوادي أطيبه ترابا والمحتد الاصل

(٢) قولها ذوي عدى معناه أن يكون له أعداء لان من لا عدو له هو السفل الرذل الذي لا خير عنده والكريم الفاضل من الناس هو المحسد المعادي

(٣) قولها لصوق بأكباد النساء يعني في المضاجعة ويحتمل أن تكون أرادت في المحبة والمودة وكنت بذلك عن شدة محبتهن وميلهن اليه وهو أشبه وقولها كانه خليفة جان أي كانه حية لصوقة والجان جنس من الحيات خففت لضرورة الشعر ٠

« ويروى » لا ينام على هجر ولا يقيم على هجر . فقلن لها أنت تريدين فتى غنيا ليس من أهلك ﴿ ثم قالت الثالثة ﴾

ألا ليته يكسى الجمال نديه * له جفنة تشقي بها المعز والجزر [١]
له حكمات الدهر من غير كربة * تشين ولا الفاني ولا الضرع الغمر [٢]

« وروى » النيب بدل المعز وكبرة بدل كربة (فقلن) لها أنت تريدين سيدا شريفا (وقلن) للرابعة ماتقولين ، قالت لا أقول شيئا فقلن لا ندعك وذاك انك قد اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك فقالت زوج من عود . خير من قعود فمضت مثلا * فخطبن فزوجهن جميعا ثم أمهلهن حولا وتركهن (ثم) أتى الكبرى وزارها فقال لها يابنية كيف ترين زوجك . قالت خير زوج يكرم الحليلة [٣] ويعطي الوسيلة [٤] قال لها فما مالكم . قالت خير مال الابل قال وماهي . قالت نشرب ألبانها جزعا [٥] . ونأكل لحمانها مزعا [٦] وتحملنا وضعيفنا معا فقال يابنية زوج كريم . ومال عميم [٧] ثم أتى الثانية فقال لها وكيف زوجك . قالت خير زوج يكرم أهله وينسى فضله . قال وما مالكم قالت البقر قال وما هي . قالت تألف الفناء وتملأ الاناء . وتودك السقاء [٨] ونساء مع نساء . فقال حظيت ورضيت . « وفي رواية » رضيت فحظيت (ثم) أتى الثالثة فقال يابنية كيف زوجك . فقالت : لاسمح بذر . ولا بخيل حكر .

(١) قولها يكسى الجمال نديه فالندي هو المجلس (٢) قولها له حكمات الدهر تقول قد أحكمته التجارب وجعلته حكيما فاما الضرع فهو الضعيف والغمر الذي لم يجرب الامور . (٣) الحليلة امرأة الرجل (٤) الوسيلة الحاجة (٥) الجزع جمع جزعة وهو الماء القليل يبقى في الاناء (٦) المزعة البقية من دسم (٧) عميم أي كثير (٨) تودك السقاء من الودك الذي هو الدسم

قال فما مالكم قالت المعزى . قال : وماهى . قالت : لو كنا نولدها فطما (١) ونسلخها أدما (٢) لم نبغ بها نعما . فقال لها جذوة (٣) مغنية (ثم) أتى الصغرى فقال لها يابنية كيف زوجك قالت : شر زوج . يكرم نفسه . ويهين عرسه . قال فما مالكم قالت شر مال . قال وما هو قالت الضأن . قال وما هي ، قالت جوف (٤) لايشبعن . وهيم لاينقعن (٥) وصم لايسمعن . وأمر مغويتهن يتبعن (٦) فقال أبوها « أشبه امرأ بعض بزه » فمضت مثلا

« وقال المفضل الضبي » ان « عثمة بنت مطرود » كانت ذات عقل ورأي مستمع فى قومها وكان لها أخت يقال لها « خود » ذات جمال وميسم وعقل . وان سبعة إخوة من غلمة بطن الأزد خطبوا خودا الى أبيها فأتوه وعليهم الحلل اليمانية وتحتهم النجائب الفره فقالوا نحن بنو مالك بن غفيلة ذى النحيين فقال لهم انزلوا على الماء فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة ومعهم ربيبة لهم يقال لها « الشعثاء » كاهنة فمروا بوصيد خود « وهو فناؤها » يتعرضون لها كلهم وسيم جميل وخرج أبوها فجلسوا اليه فرحب بهم . فقالوا بلغنا ان لك بنتا ونحن كما ترى شباب وكلنا يمنع الجانب . ويمنح الراغب . فقال أبوها كلكم خيار فأقيموا نر رأينا . ثم دخل على ابنته فقال ما ترين فقد

(١) الفطم جمع فطيم وهو المقطوع من الرضاع (٢) الادم جمع ادام وهو الذى يؤكل تقول لو انا فطمناها عند الولادة وسلخناها للادام من الحاجة لم نبغ بها نماء وعلى رواية أخرى ادما من الاديم (٣) الجذوة القطعة (٤) الجوف جمع جوفاء وهي العظيمة الجوف (٥) الهيم العطاش ولا ينقعن أى لايروين (٦) معنى قولها وأمر مغويتهن يتبعن أى القطيع من الضأن يمر على قنطرة فتزل واحدة فتقع في الماء فيقعن كلهن اتباعا لها والضأن يوصف بالبلادة

أتاك هؤلاء القوم . قالت أنكحني على قدري . ولا تشطط فى مهري . فان تخطئني أحلامهم لا تخطئني أجسامهم . لعلى أصيب ولداً . وأكثر عددا . فخرج أبوها فقال أخبروني عن أفضلكم . قالت ربيتهم الشعثاء الكاهنة اسمع أخبرك عنهم . هم اخوة . وكلهم أسوة . أما الكبير فمالك . جرئ فاتك . يتعب السنابك . ويستصغر المهالك . وأما الذى يليه فالغمر . بحر غمر يقصر دونه الفخر . نهد صقر . وأما الذى يليه فعلقمة . صليب المعجمة . منيع المشتمة . قليل الجمجمة . وأما الذى يليه فعاصم . سيد ناعم . جلد صارم . أبيّ حازم . جيشه غانم . وجاره سالم . وأما الذى يليه فثواب . سريع الجواب . عتيد الصواب . كريم النصاب . كليث الغاب . وأما الذى يليه فمدرك . بذول لما ملك . عزوب عما ترك . يغني ويهلك . وأما الذى يليه فجندل . لقرنه مجدل . مقل لما يحمل . يعطى ويبذل . وعن عدوه لا ينكل . فأخبرها بذلك أبوها فشاورت أختها « عثمة » فيهم . فقالت أختها « ترى الفتيان كالنخل . وما يدريك ما الدخل » فذهب قولها مثلا يضرب فى ذي المنظر لا خير عنده (والدخل العيب الباطن) ثم قالت اسمعي مني كلمة . ان شر الغريبة يعلن . وخيرها يدفن . انكحى في قومك ولا تغررك الأجسام فلم تقبل منها . وبعثت الى أبيها تقول أنكحني مدركا فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها . وحملها مدرك فلم تلبث عنده الا قليلا حتى صبحتهم فوارس من بني مالك بن كنانة فاقتتلوا ساعة ثم ان زوجها واخوته وبنى عامد انكشفوا فسبوها فيمن سبوا فبيناهى تسير بكت فقالوا ما يبكيك أعلى فراق زوجك ؟ فقالت قبحه الله . قالوا لقد كان جميلا قالت قبح الله جمالا لا نفع معه . انما أبكي على عصيانى أختى وقولها « ترى الفتيان كالنخل الخ » وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا

نواس شاب أسود أفوه مضطرب الخلق أترضين بي على أن أمنعك من ذئاب العرب فقالت لأصحابه أكذلك هو قالوا نعم انه مع ما ترين ليمنع الحليلة . وتتقيه القبيلة . قالت هذا أجمل جمال . وأكمل كمال . قد رضيت به فزوجوها منه ﴿وقد سأل﴾ القيل الحميرى ولديه عن الرجال فى جملة ماسأل . قال للأكبر « وهو عمرو » ما أحب الرجال اليك . فقال عمرو . السيد الجواد . القليل الأنداد . الماجد الأجداد . الراسى الأوتاد . الرفيع العماد . العظيم الرماد . الكثير الحساد . الباسل الذوّاد الصادر الورّاد . « قال » ما تقول يا ربيعة قال ما أحسن ما وصف ! ! وغيره أحب الىّ منه . قال ومن يكون بعد هذا . قال السيد الكريم . المانع للحريم . المفضال الحليم . القمقام الزعيم . الذى ان همّ فعل . وان سئل بذل «قال» أخبرنى ياعمرو ما أبغض الرجال اليك قال البرم اللئيم . المستخزي للخصيم . المبطان الهيم . العيّ البكيم . الذى ان سئل منع . وان هدد خضع . وان طلب جشع . « قال » ماتقول ياربيعة قال غيره أبغض الىّ منه . قال ومن هو قال النموم الكذوب . الفاحش الغضوب . الرغيب عند الطعام . الجبان عند الصدام ﴿ ويروى ﴾ أن المجفاء بنت علقمة السعدى وثلاث نسوة من قومها خرجن فقعدن بروضة يتحدثن فيها وافين بها ليلا فى قمر زاهر وليلة طلقة ساكنة . وروضة معشبة خصبة فلما جلسن قلن ما رأينا كالليلة ليلة ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحا ولا أنضر ﴿ثم﴾ أفضن فى الحديث فقلن أى النساء أفضل ﴿ قالت احداهن ﴾ الخرود الورود الولود ﴿ قالت الثانية ﴾ خيرهن ذات الغناء . وطيب الثناء . وشدة الحياء ﴿قالت الثالثة﴾ خيرهن الشموع الجموع النفوع غير المنوع ﴿قالت الرابعة﴾ خيرهن الجامعة لأهلها الوادعة الرافعة لا الواضعة ﴿قلن﴾ فأى الرجال

أفضل « قالت احداهن » خيرهم الحظيّ . المرضيّ . غير الخطال . ولا التنبال ﴿ قالت الثانية ﴾ خيرهم السيد الكريم . ذو الحسب العميم . والمجد القديم ﴿ قالت الثالثة ﴾ خيرهم السخيّ الوفيّ الرضيّ . الذى لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة ﴿ قالت الرابعة ﴾ وأبيكن ان فى أبى لنعتكن . كرم الأخلاق والصدق عند التلاق . والفلج عند السباق . ويحمده أهل الرفاق ﴿ قالت العجفاء ﴾ عند ذلك « كل فتاة بأبيها معجبة » « وفى رواية أخرى » ان احداهن قالت ان أبى يكرم الجار ويعظم النار . وينحر العشار . بعد الحوار . ويحمل الأمور الكبار ﴿ قالت الثانية ﴾ ان أبى عظيم الخطر . منيع الوزر . عزيز النفر . يحمد منه الورد والصدر ﴿ قالت الثالثة ﴾ ان أبى صدوق اللسان كثير الأعوان . يروى السنان . عند الطعان ﴿ قالت الرابعة ﴾ ان أبى كريم النزال . منيع المقال . كثير النوال . قليل السؤال . كريم الفعال ثم تنافرن الى كاهنة معهن فى الحى فقلن اسمعى ماقلنا واحكمى بيننا واعدلى ثم أعدن عليها قولهن فقالت لهن كل واحدة منكن ماردة . على الاحسان جاهدة . لصواحباتها حاسدة . ولكن اسمعن قولى « خير النساء المبقية على بعلها . الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع مطلقة الى أهلها . فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها فتلك الكريمة الكاملة . وخير الرجال الجواد البطل . القليل الفشل . اذا سأله الرجل . ألفاه قليل العلل . كثير النفل » ثم قالت « كل واحدة منكن بأبيها معجبة » فصارت مثلا يضرب فى اعجاب الرجل برهطه وعشيرته .

حديث النسوة اللاتى أخبرن عن أحوال أزواجهن

﴿ روى ﴾ أهل الكتب الصحيحة فى الحديث وأئمة أهل اللغة والأدب أنه خرج احدى عشرة امرأة من خثعم وهى قبيلة من قبائل عرب اليمن

وكانت فى قرية من قرى اليمن فى الجاهليــة الى مجلس فجلسن وقلن تعالين
فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب فتعاهــدن وتعاقدن أن لا يكتمن من
أخبار أزواجهن شيئاً فتكلمت كل واحـدة منهن فى وصف زوجها بكلام
بلغ من الفصاحة أبلغها ، ومن المعانى أغربها ، ومن الألفاظ أعـذبها ، ومن
العبارة أبدعها ، ولا سيما كلام الأخيرة منهن وهى «أم زرع» فانه مع كثرة
فصوله ، وقلة فضوله ، موجز الكلمات ، واضح السمات ، نير النسمات ، قد
قدّرت ألفاظه قدر معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه، أفرغ فى قالب
حسن الانسجام بديع النظام ، وأتى به الخاطر بغير تكلف وجاء لفظه تابعاً
لمعناه منقاداً له غير مستكره ولا منافر ﴿قالت الأولى﴾ وهى مهدد بنت أبى
هزومة . زوجى لحم جمل غث، على رأس جبل وعث . لا سهل فيرتقى . ولا سمين
فينتقل (١) ﴿وقالت الثانية﴾ زوجى لا أبث خبره . انى أخاف أن لا أذره . ان
أذكره أذكر عُجَرَه وبُجَرَه (٢) ﴿وقالت الثالثة﴾ وهى كبشة بنت الأر

---

(١) وفي رواية فينتقى وصفته بقلة الخير وبعده مع القلة . فشبهته باللحم الذي
صغرت عظامه عن النقي . وهو المخ وخبث طعمه وريحه مع كونه في مرتقى يشق
الوصول اليه فلا يرغب أحد في طلبه لينقله اليه مع توفر دواعي أكثر الناس على تناول
الشيء المبذول فقد أودعت كلامها تشبيه شيئين بشيئين شبهت زوجها باللحم الغث وهو المهزول
الذي يستغث من هزاله أي يسترك ويستكره وشبهت سوء خلقه بالجبل الوعث أي كثير
الضجر شديد الغلظة يصعب الرقي اليه . والوعث بالمثلثة الصعب المرتقي بحيث توحل
الاقدام فلا يتخلص منه ويشق فيه المشي . ومنه وعثاء السفر ثم فسرت ما أجملت فكأنها
قالت لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لاخذ اللحم ولو كان هزيلا لان الشيء المزهود
فيه قد يؤخذ اذا وجد بغير نصب ثم قالت ولا اللحم سمين فتحتمل المشقة في صعود
الجبل لاجل تحصيله . (٢) ان أذكره أذكر عجره وبجره أجملت حال زوجها وا

...جي عشنق ، ان أنطق أطلق ، وان أسكت أعلق ، (١) ﴿ وقالت الرابعة ﴾

...الاشارة الي معائبه خشية أن يطول الخطب بايراد جميعها قال ابن فارس يقال في المثل ...ضيت اليه بعجرى وبجرى أى بأمرى كله ومعني اني أخاف أن لا أذره أي أخاف أن ... أترك من خبره شيئاً . والعجر والبجر جمع عجرة وبجرة بضم فسكون فالعجر تعقد ...صب والعروق فى الجسد حتي تصير ناتئة والبجر منها الا أنها مختصة بالتي تكون في ...طن قاله الاصمعى وغيره وقال ابن الاعرابي العجرة نفخة في الظهر والبجرة نفخة في السرة ... قال ابن أبي اويس العجر العقد التي تكون في البطن واللسان والبجر العيوب . وقيل ...جر في الجنب والبطن والبجر في السرة هذا أصلهما ثم استعملا في الهموم والاحزان ...منه قول على رضى الله تعالى يوم الجمل . « أشكو الى الله عجرى وبجري » وقال ...الاصمعي استعملا في المعائب وبه جزم ابن حبيب وأبو عبيد الهروى وقال أبو عبيد بن ...لام ثم ابن السكيت استعملا فيما يكتمه المرء ويخفيه عن غيره وبه جزم المبرد قال الخطابي ...ادت عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة وقد سبق قول ابن فارس

(١) العشنق الطويل المذموم الطول . قال الاصمعى أرادت أنه ليس عنده أكثر ...ن طوله بغير نفع . وقيل ذمته بالطول لان الطول في الغالب دليل السفه وعلل ببعد ...الدماغ عن القلب وقال أبو سعيد الضرير الصحيح ان العشنق الطويل النجيب الذي ...لك أمر نفسه ولا تحكم النساء فيه بل يحكم فيهن بما شاء فزوجته تهابه أن تنطق بحضرته ... تسكت على المضض قال الزمخشرى وهي من الشكاية البليغة انتهى * ويؤيده ماوقع ... رواية يعقوب بن السكيت من الزيادة في آخره وهو على حد السنان المزلق أي المجرد ...زنه ومعناه تشير الى أنها منه على حذر . ومعني ان انطق أطلق الخ أى ان ذكرت عيوبه ...يبلغه طلقني وان سكت عنها فأنا عنده معلقة لاذات زوج ولا ايم فكأنها قالت أنا عنده ... ذات بعل فأنتفع به ولا مطلقة فاتفرغ لغيره فهي كالمعلقة بين العلو والسفل لا تستقر ...حدهما ولم يرتض هذا بعضهم وقال وفي الشق الثاني عندى نظر لانه لو كان ذلك مرادها ...طلقت لبطلقها فتستريح قال والذى يظهر لى أنها أرادت وصف سوء حالها عنده ...أشارت الى سوء خلقه وعدم احتماله لكلامها ان شكت له حالها وانها تعلم أنها متى ذكرت

زوجي كليل تهامة، لا حرّ ولا قرّ ولا مخافة ولا سآمة، والغيث غيث غمامة، [1] ﴿ وقالت الخامسة ﴾ وهي حبيّ بنت علقمة. زوجي ان دخل فهد، وان خرج أسد، ولا يسأل عما عهد، ولا يرفع اليوم لغد [2] ﴿ وقالت السادسة ﴾

له شيئاً من ذلك بادر الى اطلاقها وهي لا تؤثر تطليقه لمحبتها فيه ثم عبرت بالجملة الثانية اشارة الى انها سكتت صابرة على تلك الحال كانت عنده كالمعلقة التي لا ذات زوج ولا ايم قال عياض أوضحت بقولها على حد السنان المذلق مرادها بقولها قبل ان اسكت أعلق وان انطق أطلق أي أنها ان حادت عن السنان سقطت فهلكت وان استمرت عليه أهلكها

(١) تصف زوجها بأنه لين الجانب خفيف الوطأة على الصاحب ومعنى والغيث غيث غمامة انه لا شر فيه يخاف وقال ابن الانباري أرادت بقولها ولا مخافة أي ان أهل تهامة لا يخافون لتحصنهم بجبالها أو أرادت وصف زوجها بأنه حامي الذمار مانع لداره وجاره ولا مخافة عند من يأوي اليه ثم وصفته بالجود وقال غيره قد ضربوا المثل بليل تهامة في الطيب لانها بلاد حارة في غالب الازمان وليس فيها رياح باردة فاذا كان الليل كان وهج الحر ساكنا فيطيب الليل لاهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى حر النهار فوصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن فكأنها قالت لا أذى عنده ولا مكروه وأنا آمنة منه فلا أخاف من شره ولا ملل عنده فيسأم من عشرتي أو ليس بسيء الخلق فأسأم من عشرته فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل .

(٢) شبهته في لينه وغفلته بالفهد لانه يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم وشبهته بالاسد تصفه بالنشاط في الغزو وقال ابن أبي أويس معناه ان دخل البيت وثب عليّ وثوب الفهد وان خرج كان في الاقدام مثل الاسد. تشير الى كثرة جماعه لها اذا دخل فينطوي تحت ذلك تمدحها بانها محبوبة لديه بحيث لا يصبر عنها اذا رآها واذا خرج على الناس كان أمره أشد في الجرأة والاقدام والمهابة كالاسد. وقولها ولا يسأل عما عهد يعني انه شديد الكرم كثير التغاضي لا يتفقد ما ذهب من ماله واذا جاء بشيء لبيته لا يسأل عنه بعد ذلك أو لا يلتفت الى ما يري في البيت من المعائب بل يسامح ويغضي ومعنى قولها ولا يرفع اليوم لغد يعني لا يدخر ما حصل عنده اليوم من أجل الغد فكنت بذلك عن غاية جوده

وهي بنت أوس بن عبدود. زوجي ان أكل لف ، وان شرب اشتف ، وان اضطجع التف ، ولا يولج الكف . ليعلم البث ، [١] ﴿ وقالت السابعة ﴾ وهي هند. زوجي غياياء طباقاء ، كل داء له داء ، شجك أو فجك ، أو جمع كلا لك ، [٢] ﴿ وقالت الثامنة ﴾ وهي عمرة بنت عمرو. زوجي المس مس أرنب ،

ويحتمل أن يكون المراد انه يأخذ بالحزم في جميع أموره فلا يؤخر ما يجب عمله الى غد فالتمثيل بالفهد من جهة كثرة النكرم أو الوثوب وبالاسد من جهة الشجاعة وبعد السؤال من جهة المسامحة وبعد الرفع الى الغد ما ذكر من عدم الادخار

(١) وفي رواية بزيادة «وان ذبح اغتث» أي تحرى الغث وهو الهزيل وقد جمعت في وصفها له بين اللؤم والبخل والنهمة والمهانة وسوء العشرة مع أهله فان العرب تذم بكثرة الاكل والشرب وتتمدح بقلتهما وبكثرة الجماع لدلالتها على صحة الذكورية والفحولية فان المراد باللف الاكثار من الاكل واستقصاؤه حتى لا يترك شيئاً منه والاشتفاف في الشرب استقصاؤه مأخوذ من الشفافة « بالضم والتخفيف» وهي البقية تبقى في الاناء فاذا شربها الذي شرب الاناء قيل اشتفها وقولها التف أي رقد ناحية وتلفف بكسائه وحده وانقبض عن أهله اعراضا فهي كئيبة حزينة لذلك ولذلك قالت ولايولج الكف ليعلم البث أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله ويحتمل أن تكون أرادت أنه ينام نوم العاجز الفشل الكسل والمراد بالبث الحزن ويطلق على الشكوى وعلى المرض وعلى الامر الذي لايصبر عليه أرادت انه لايسأل عن الامر الذي يقع اهتمامها به فوصفته بقلة الشفقة عليها وانه لو رآها عليلة لم يدخل يده في ثوبها ليتفقد خبرها كعادة الاجانب فضلا عن الازواج وقيل في المراد به غير ذلك

(٢) الغياياء الطباقاء الاحمق الذي ينطبق عليه أمره وعن الجاحظ الطباقاء الثقيل الصدر عند الجماع ينطبق صدره على صدر المرأة فيرتفع سفله عنها وقد ذمت امرأة امرأ القيس فقالت له ثقيل الصدر خفيف العجز سريع الاراقة بطيء الافاقة وقولها كل داء له داء أي كل شيء تفرق في الناس من المعايب موجود فيه . وقولها شجك أو

والريح ريح زرنب ،[١] ﴿ وقالت التاسعة ﴾ وهي كبشة . زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد[٢] ﴿ وقالت العاشرة ﴾

فجك أي جرحك في رأسك وجسدك . قال عياض وصفته بالاحمق والتناهي في سوء العشرة وجمع النقائص بان يعجز عن قضاء وطرها مع الاذى فان حدثته سبها واذا مازحته شجها واذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها أو شق جلدها أو اغار على مالها . أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام وأخذ المال

(١) وصفته بأنه لين الجسد ناعمه فان الارنب دويبة لينة المس ناعمة الوبر جداً والزرنب بوزن الارنب لكن أوله زاي هو نبت طيب الريح ويحتمل أن تكون كنت بذلك عن حسن خلقه ولين عريكته بانه العرق لكثرة نظافته واستعماله الطيب تظرفا ويحتمل أن تكون كنت بذلك عن طيب حديثه أو طيب الثناء عليه لجميل معاشرته وفي (رواية) أخري بزيادة قولها وأنا أغلبه والناس يغلب فوصفته مع جميل عشرته لها وصبره عليها بالشجاعة وهو كما قال معاوية يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام وأما قولها والناس يغلب ففيه نوع من البديع يسمي التتميم لانها لو اقتصرت على قولها وأنا أغلبه لظن انه جبان ضعيف فلما قالت والناس يغلب دلّ على أن غلبها اياه انما هو من كرم سجاياه فتمت بهذه الكلمة المبالغة في حسن أوصافه

(٢) وزاد الزبير بن بكار في روايته « لايشبع ليلة يضاف . ولاينام ليلة يخاف » وصفته بطول البيت وعلوه فان بيوت الاشراف كذلك يعلونها ويضربونها في المواضع المرتفعة ليقصدهم الطارقون والوافدون . فطول بيوتهم إما لزيادة شرفهم أو لطول قاماتهم وبيوت غيرهم قصار . وقد لهج الشعراء بمدح الاول وذم الثاني كقوله

* قصار البيوت لاترى صهواتها *

(وقال آخر)

اذا دخلوا بيوتهمو أكبوا * على الركبات من قصر العماد

ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً فيدل على كثرة الحاشية والغاشية . وقيل كنت بذلك عن شرفه ورفعة قدره والنجاد بكسر النون وجيم خفيفة حمالة السيف تريد أنه طويل

وهي حبيّ بنت كعب . زوجي مالك . وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له ابل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، واذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك (١)

القامة يحتاج الى طول نجاده وفي ضمن كلامها أنه صاحب سيف فاشارت الى شجاعته . وكانت العرب تتمادح بالطول وتذم بالقصر . وقولها عظيم الرماد تعني أن نار قراه للاضياف لا تطفأ لتهتدي الضيفان اليها فيصير رماد النار كثيراً لذلك . وقولها قريب البيت من الناد وقفت عليها بالسكون لمؤاخاة السجع . والنادي والندى مجلس القوم وصفته بالشرف في قومه فهم اذا تفاوضوا واشتوروا في أمر أتوا فجلسوا قريبا من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره أو أنه وضع بيته في وسط الناس ليسهل لقاؤه ويكون أقرب الى الوارد وطالب القرى قال زهير :

بسط البيوت لكي يكون مظنة * من حيث توضع جفنة المسترفد

ويحتمل أن تريد أن أهل النادي اذا أتوه لم يصعب عليهم لقاؤه لكونه لا يحتجب عنهم ولا يتباعد منهم بل يقرب ويتلقاهم ويبادر لاكرامهم وضده من يتواري باطراف الحلل وأغوار المنازل ويبعد عن سمت الضيف لئلا يهتدوا الى مكانه . فاذا استبعدوا موضعه صدوا عنه ومالوا الى غيره . ومحصل كلامها أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة .

(١) ووقع في رواية يعقوب بن السكيت وابن الانباري من الزيادة « وهو امام القوم في المهالك » المبارك بفتحتين جمع مبرك وهو موضع نزول الابل والمسارح جمع مسرح وهو الموضع الذي تطلق لترعى فيه . والمزهر بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الهاء آلة من آلات اللهو فجمعت في وصفها له بين الثروة والكرم وكثرة القرى والاستعداد له والمبالغة في صفاته . ووصفته أيضاً مع ذلك بالشجاعة لأن المراد بالمهالك الحروب وهو لثقته بشجاعته يتقدم رفقته . وقيل أرادت أنه هاد في السبل الخفية عالم بالطرق في البيداء فالمراد على هذا بالمهالك المفاوز والاول أليق والله أعلم . وما في قولها وما مالك استفهامية يقال للتعظيم والتعجب والمعنى وأيّ شيء هو مالك ما أعظمه وأكرمه وتكرير الاسم أدخل في باب التعظيم . وقولها مالك خير من ذلك زيادة في الاعظام وتفسير لبعض الابهام . وأنه خير مما أشير اليه من ثناء وطيب ذكر وفوق ما اعتقد فيه من سؤدد وفخر . وهو أجل ممن

﴿ وقالت الحادية عشرة ﴾ وهي عاتكة كما قال ابن دريد في كتاب الوشاح زوجي أبو زرع ، . فما أبو زرع ، أناس من حلي أذني ،[١] وملأ من شحم

أصفه لشهرة فضله . وهذا بناء على أن الاشارة بقولها ذلك الى ماتعتقده من صفات المدح ويحتمل أن يكون المراد مالك خير ممن في ذهنك من مالك الاموال وهو خير مما سأصفه به . ويحتمل أن تكون الاشارة الى ماتقدم من الثناء على الذين قبله وان مالكا أجمع من الذين قبله لخصال السيادة والفضل . ومعنى قولها قليلات المسارح أنه لاستعداده للضيفان بها لايوجه منهن الى المسارح الاقليلا ويترك سائرهن بفنائه فان فاجأه الضيف وجد عنده مايقريه به من لحومها والبانها . ومنه قول الشاعر :

حبسنا ولم نسرح لكي لايلومنا * على حكمه صبراً معودة الحبس

ويحتمل أن تريد بقولها قليلات المسارح الاشارة الى كثرة طروق الضيفان فاليوم الذي يطرقه الضيف فيه لاتسرح حتى يأخذ منها حاجته للضيفان . واليوم الذي لا يطرقه فيه أحد أو يكون هو فيه غائبا تسرح كلها فأيام الطروق أكثر من أيام عدمه فهي لذلك قليلات المسارح . وبهذا يندفع اعتراض من قال لو كانت قليلات المسارح لكانت في غاية الهزال . وقيل المراد بكثرة المبارك أنها كثيراً ماتثار فتحلب ثم تترك فتكثر مباركها لذلك وقال ابن السكيت أن المراد ان مباركها على العطايا والحمالات وأداء الحقوق وقري الاضياف كثيرة وانما يسرح منها مافضل عن ذلك . فالحاصل أنها في الاصل كثيرة ولذلك كانت مباركها كثيرة . ثم اذا سرحت صارت قليلة لاجل ما ذهب منها . وأما رواية من روي عظيمات المبارك فيحتمل أن يكون المعنى أنها من سمنها وعظم جثثها تعظم مباركها وقيل المراد أنها اذا بركت كانت كثيرة لكثرة من ينضم اليها ممن يلتمس القري واذا سرحت وحدها فكانت قليلة بالنسبة لذلك وأما قولها أيقن أنهن هوالك فالمعنى أنه لما كثرت عادته بنحر الابل لقرى الضيفان ومن عادته أن يسقيهم ويلهيهم أو يتلقاهم بالغناء مبالغة في الفرح بهم صارت الابل اذا سمعت صوت الغناء عرفت أنها تنحر

(١) زاد الطبراني بعد قولها فما أبو زرع «صاحب نعم وزرع» ومعنى أناس من حلي اذني انه ملأ أذنيها بما جرت عادة النساء بالتحلي به من قرط وشنف من ذهب ولؤلؤ ونحو ذلك

عضديّ [١] وبجّحني فبجَحت الىّ نفسي [٢] وجدني فى أهل غنيمة بشق ، [٣] فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق ، [٤] فعنده أقول فلا أقبح ، [٥] وأرقد فأتصبح ، [٦] وأشرب فأتقنّح ، [٧] أم أبي زرع ، فما أم أبي زرع ، عكومها رداح ، [٨] وبيتها فساح ، [٩] ابن أبي زرع . فما ابن

(١) ومعنى وملأ من شحم عضدي قال أبو عبيد لم ترد العضد وحده وانما أرادت الجسد كله لان العضد اذا سمن سمن سائر الجسد وخصت العضد لانه أقرب مايلي بصر الانسان من جسده (٢) ومعنى وبجحني فبجحت الىّ نفسي انه فرحها ففرحت وقال ابن الانباري المعنى عظمني فعظمت الىّ نفسي (٣) ومعنى وجدني في أهل غنيمة بشق انهم كانوا في شق الجبل أى ناحيته ولقلتهم وسعهم (٤) ومعني أهل صهيل وأطيط أى خيل وابل وأصل الاطيط صوت أعواد المحامل والرجال على الجمال فأرادت أنهم أصحاب محامل تشير بذلك الى رفاهتهم . ودائس من الدوس قال ابن السكيت هو الذى يدوس الطعام فكانها أرادت انهم أصحاب زرع وقال أبو سعيد المراد أن عندهم طعاما منتقي وهم في دياس شيء آخر فخيرهم متصل . ومنق بكسر النون وتشديد القاف وقد اختلف أهل اللغة في هذه الكلمات أرادت أنهم أصحاب والحاصل انها ذكرت انه نقلها من شظف عيش أهلها الى الثروة الواسعة من الخيل والابل والزرع وغير ذلك . ومن أمثالهم ان كنت كاذبا فحلبت قاعدا أى صار مالك غنما يحلبها القاعد وبالضد أهل الابل والخيل . (٥) ومعنى فلا أقبح لا يقال لى قبحك الله أو لا يقبح قولي ولا يرد على أي لكثرة اكرامه لها وتدللها عليه لا يرد لها قولا ولا يقبح عليها ما تأتي به (٦) ومعنى وأرقد فأتصبح أي أنام الصبحة وهي نوم أول النهار فلا أوقظ اشارة الى أن لها من يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها (٧) أرادت بقولها وأشرب فأتقنح أنها تشرب حتى لا تجد مساغا . واختلف اللغويون في معنى أتقنح فقال أبو عبيد معناه أروي حتى لا أحب الشرب وقيل غير ذلك والشرب يعم شرب اللبن والخمر والنبيذ والسويق وغير ذلك (٨) العكوم بضم المهملة جمع عكم بكسرها وسكون الكاف هى الاعدال والاحمال التي تجمع فيها الامتعة . ورداح أى عظام كثيرة الحشو قاله أبو عبيد . وقال الهروي ثقيلة يقال للمرأة اذا كانت عظيمة الكفل ثقيلة الورك رداح (٩) فساح

أبي زرع مضجعه كمسلّ شطبة ، ويشبعه ذراع الجفرة ،[١] بنت أبي زرع . فما بنت أبي زرع ، طوع أبيها وطوع أمها ،[٢] وملء

بفتح الفاء المهملة أي واسع . وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والاثاث والقماش واسعة المال كبيرة البيت اما حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة . وإما كناية عن كثرة الخير ورغد العيش والبر بمن ينزل بهم لأنهم يقولون فلان رحب المنزل أي يكرم من ينزل عليه . وأشارت بوصف والدة زوجها الى أن زوجها كثير البر لأمه وأنه لم يطعن في السن لان ذلك هو الغالب ممن يكون له والدة توصف بمثل ذلك (١) قولها ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع مضجعه كمسل شطبة ويشبعه ذراع الجفرة . وفي رواية ابن الانباري زيادة « وترويه فيقة اليعرة ويميس في حلق النترة » قال ابن الاعرابي أرادت بمسل الشطبة سيفا سل من غمده فمضجعه الذي ينام فيه في الصغر كقدر مسل شطبة واحدة والجفرة الانثى من ولد المعز اذا كان ابن أربعة أشهر وفصل عن أمه وأخذ في الرعى قاله أبو عبيد وغيره وقال ابن الانباري وابن دريد ويقال لولد الضأن أيضاً اذا كان ثنيا وقال الخليل الجفر من أولاد الشاء ما استجفر أي صار له بطن «الفيقة » بكسر الفاء وسكون الياء التحتية بعدها قاف مايجتمع في الضرع بين الحلبتين «والفواق» بضم الفاء الزمان الذي بين الحلبتين «واليعرة» بفتح التحتية وسكون العين المهملة بعدها راء العناق . «ويميس» بالسين المهملة أي يتبختر والمراد بحلق النترة وهي بالنون المفتوحة ثم التاء المثناة الفوقية الساكنة الدرع اللطيفة أوالقصيرة وقيل اللينة وقيل الواسعة . والحاصل أنها وصفته بهيف القد وأنه ليس ببطين ولا جاف قليل الاكل والشرب ملازم لآلة الحرب يختال في موضع القتال . وكل ذلك مما تمادح به العرب . ويحتمل أنها وصفته بأنه خفيف الوطأة عليها لان الزوج غالبا يستثقل ولده من غيرها فكان هذا يخفف عنها فاذا دخل بيتها فاتفق أنه قال فيه مثلا لم يضطجع الا قدر ما يسل السيف من غمده ثم يستيقظ مبالغة في التخفيف عنها . وكذا قولها يشبعه ذراع الجفرة أي أنه لا يحتاج الى ما عندها بالاكل فضلا عن الاخذ بل لو طعم عندها لاقتنع باليسير الذي يسد الرمق من المأكول والمشروب (٢) قولها في بنت أبي زرع طوع أبيها وطوع أمها أي أنها بارة بهما وفي رواية الزبير بزيادة « وزين أهلها ونسائها » أى يتجملون بها

كسائها.[١] وغيظ جارتها.[٢] جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؛ لا تبث حديثنا تبثيثا،[٣] ولا تنقث ميرتنا تنقيثا،[٤] ولا تملأ بيتنا تعشيشا،[٥] قالت خرج

(١) وملء كسائها كناية عن كمال شخصها ونعومة جسمها (٢) وغيظ جارتها أى ضرتها أو هو على حقيقته لان الجارات من شأنهن ذلك وزاد الكاذى في روايته عن ابن السكيت «وصفر ردائها» وزاد في رواية «قباء · هضيمة الحشا · جائلة الوشاح عكناء · فعماء · نجلاء · دعجاء · رجاء · قنواء · مونقة · مفنقة» (قولها صفر ردائها) صفر بكسر الصاد المهملة وسكون الفاء أي خال فارغ والمعنى أن رداءها كالفارغ الخالى لانه لا يمس من جسمها شيئاً لان ردفها وكتفيها يمنعان مسه من خلفها ونهديها يمنعان مسه شيئاً من مقدمها وفي كلام ابن أبي أويس وغيره معنى قولها صفر ردائها تصفها بأنها خفيفة موضع التردية وهو أعلى بدنها ومعنى قولها وملء كسائها أي ممتلئ موضع الازرة وهو أسفل بدنها والصفر الشيء الفارغ قال عياض والاولى أنه أراد امتلاء منكبيها وقيام نهديها يرفعان الرداء عن أعلى جسدها فهو لا يمسه فيصير كالفارغ منها بخلاف أسفلها ومنه قول الشاعر

أبت الروادف والنهود لقمصها * من أن تمس بطونها وظهورها

(وقولها قباء) بفتح القاف وتشديد الموحدة أي ضامرة البطن · «وهضيمة الحشاء» بمعنى الذي قبله «وجائلة الوشاح» أى يدور وشاحها لضمور بطنها «وعكناء» أى ذات أعكان «وفعماء» بالعين المهملة أى ممتلئة الجسم «ونجلاء» بنون وجيم أي واسعة العينين «ودعجاء» أي شديدة سواد العين «ورجاء» بتشديد الجيم أى كبيرة الكفل ترتج من عظمه ان كانت الرواية بالراء فان كانت بالزاى فالمراد ان في حاجبيها تقويسا «وقنواء» بفتح القاف وسكون النون والمد من القنو وهو طول في الانف ورقة في الارنبة مع حدبة في وسطه «ومونقة» بنون ثقيلة وقاف «ومفنقة» بوزنه أى مغذية بالعيش الناعم وكلها أوصاف حسان (٣) قولها في جارية أبي زرع لا تبث حديثنا تبثيثا بمعنى انها لا تظهره (٤) لا تنقث بتشديد القاف بعدها مثلثة أي تسرع فيه بالخيانة وتذهبه بالسرقة · والميرة بكسر الميم وسكون التحتية بعدها راء الزاد وأصله مايحصله البدوي من الحضر ويحمله الي منزله لينتفع به أهله (٥) قولها ولا تملأ بيتنا تعشيشا أي أنها مصلحة للبيت مهتمة

أبو زرع والأوطاب تمخض[١] فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين . يلعبان من تحت خصرها برمانتين .[٢] فطلقني ونكحها فنكحت بعده رجلا سريا،[٣] ركب شريا،[٤] وأخذ خطيا،[٥] وأراح عليّ نعما ثريا،[٦] وأعطاني من كل رائحة زوجا[٧] وقال كلي أم زرع وميري أهلك[٨] قالت فلو جمعت

بتنظيفه والقاء كناسته وابعادها منه وانها لاتكتفي بقم كناسته وتركها في جوانبه كالها الاعشاش (١) قالت خرج أبو زرع والاوطاب تمخض أراد انه يبكر بخروجه من منزلها غدوة وقت قيام الخدم والعبيد لاشغالهم · والاوطاب جمع وطب بفتح أوله وهو وعاء اللبن وانطوي في خبرها كثرة خير داره وغزارة لبنه وان عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه ويستخرجوا زبده ويحتمل أنها أرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان في زمن الخصب وطيب الربيع وكان سبب ذلك توطئة للباعث على رؤية ابي زرع للمرأة على الحالة التي رآها عليها أي أنها من مخض اللبن تعبت فاستلقت تستريح فرآها أبو زرع على ذلك (٢) فائدة وصف الولدين بانهما كالفهدين التنبيه على أسباب تزوج أبي زرع لها لانهم كانوا يرغبون في أن تكون أولادهم من النساء المنجبات فلذلك حرص ابو زرع عليها لما رآها وفي تشبيه النهدين بالرمانتين اشارة الى صغر سنها (٣) قولها فنكحت بعده رجلا سريا أي من سراة الناس وهم كبراؤهم في حسن الصورة والهيئة والسرى من كل شيء خياره (٤) ركب شريا تعني فرساً خيارا فائقا (٥) أخذ خطياً أى رمحا منسوبا الي الخط وهو موضع بنواحي البحرين تجلب منه الرماح (٦) أراح من الرواح ومعناه أتى بها الي المراح وهو موضع مبيت الماشية قال ابن أبي أويس معناه أنه غزا فاتي بالنعم الكثيرة والنعم بفتحتين الابل خاصة ويطلق على جميع المواشي اذا كان فيها ابل وثريا أى كثيرة والثري المال الكثير من الابل وغيرها (٧) أرادت بقولها وأعطاني من كل رائحة زوجا كثرة ما أعطاها وأنه لم يقتصر على الفرد من ذلك والرائحة الآتية وقت الرواح وهو آخر النهار (٨) معنى قوله كلي أم زرع وميري أهلك أي صليهم وأوسعي عليهم بالميرة وهى الطعام · والحاصل انها وصفته بالسؤدد في ذاته والشجاعة والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدي منه ما

كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

فلا ريب أنه قد تبين مما أوردناه من أسجاع العرب في وصف الرجال والأزواج على الاختلاف في العبارات ان مآله ومحصله أن المحمود منهم هو الجامع لمحمود الشيم العالية. وجليل الصفات الفاضلة خلقا وخلقا عند ذوي العقول السليمة. وان المذموم منهم من اتصف بخلاف ذلك وبه يعلم ما كان عليه العرب في أطوار الجاهلية من المكانة في الرأي والسداد والحزم.

طلاقهم في الجاهلية وعدة نسائهم

كان العرب في أطوار الجاهلية يطلقون ثلاثا على التفرقة. وأول من سن ذلك لهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ثم فعلت العرب ذلك. فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس بها حتى اذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها ﴿ومنه﴾ قول الأعشى حين تزوج امرأة فرغب بها عنه فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها:

أيا جارتا بيني فانك طالقه * كذاك أمور الناس غاد وطارقه

قالوا ثانية: فقال:

وبيني فان البين خير من العصا * والا تراني فوق رأسك بارقه

قالوا ثالثة: فقال:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة * وموموقة قد كنت فينا ووامقه

شاءت لاهلها مبالغة في اكرامها ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لابي زرع وكان سبب ذلك أن أبا زرع كان أول أزواجها فسكنت محبته في قلبها كما قيل

* ما الحب الا للحبيب الاول *

ولذلك قالت: فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع

وكانوا يخلعون نساءهم أيضا . والخلع فراق الزوجة على مال . مأخوذ من خلع الثوب لأن المرأة لباس الرجل معنى وضم مصدره تفرقة بين الحسي والمعنوي ﴿ وذكر أبو بكر بن دريد ﴾ في أماليه أنه أول خلع كان في الدنيا أن عامر بن الظرب زوج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب فلما دخلت عليه نفرت منه فشكا الى أبيها فقال لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك وقد خلعتها منك بما أعطيتها . قال فزعم العلماء أن هذا كان أول خلع في العرب ﴿ وقال الشافعي ﴾ رضي الله تعالى عنه سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث « الظهار » و « الايلاء » و « الطلاق » فأقر الله تعالى الطلاق طلاقا وحكم في الايلاء والظهار بما بين في القرآن . انتهى « أما الظهار » فهو تشبيه الرجل زوجته أو ما يعبر به عنها أو جزء شائع بمحرم عليه تأبيداً . كأن يقول أنت على كظهر أمي أو كبطنها . أو كفخذها . أو كفرجها أو كظهر أختي أو عمتي « وأما الايلاء » فهو الحلف على ترك قربان المرأة مدة (أخرج) الطبراني من حديث ابن عباس كان ايلاء الجاهلية السنة والسنتين فوقت الله لهم أربعة أشهر فمن كان ايلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بايلاء وكانت النساء تعتد من الطلاق والموت وكن يبالغن في احترام حق الزوج وتعظيم حرمة عقد النكاح غاية المبالغة فقد كانت المرأة في الجاهلية اذا مات زوجها تتربص سنة في شر ثيابها وحفش بيتها . وبذلك أخبر الحديث ففي البخاري عن أم سلمة قالت جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان ابنتي توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا . مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هي أربعة أشهر وعشرا وقد كانت احداكن في

الجاهلية ترمي بالبعرة [١] على رأس الحول قال حميد فقلت لزينب وما ترمي بالبعرة على رأس الحول . فقالت زينب كانت المرأة اذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا ولبست شر ثيابها ولا تمس طيبا حتى تمر بها سنة ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر فتفتض به فقلما تفتض [٢] بشيء الا مات ثم تخرج

(١) اختلف في المراد برمي البعرة فقيل هو اشارة الى أنها رمت العدة رمى البعرة . وقيل اشارة الى أن الفعل الذي فعلته من التربص والصبر على البلاء الذي كانت فيه لما انقضى كان عندها بمنزلة البعرة التي رمتها استحقاراً له وتعظيما لحق زوجها وقيل بل ترميها على سبيل التفاؤل بعدم العودة الى مثل ذلك ووقع في رواية شعبة فاذا كان حول فمر كلب رمت ببعرة وظاهره أن رميها البعرة يتوقف على مرور الكلب سواء طال زمن انتظار مروره ام قصر وقيل ترمي بها من عوض من كلب أو غيره تري من حضرها أن مقامها حولا أهون عليها من بعرة ترمي بها كلبا أو غيره وقد أبطل الله تعالى ذلك بالاسلام وشريعته التي جعلها رحمة وحكمة ومصلحة ونعمة فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا على وفق الحكمة والمصلحة اذ لا بد من مدة مضروبة لها وأولى المدد لذلك المدة التي يعلم فيها وجود الولد وعدمه فانه يكون أربعين يوما نطفة ثم أربعين علقة ثم أربعين مضغة فهذه أربعة أشهر ثم ينفخ فيه الروح في الطور الرابع وقدّر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة ان كان هناك حمل

(٢) تفتض بفاء ثم مثناة ثم ضاد معجمة ثقيلة فسره مالك بقوله تمسح به جلدها وأصل الفض الكسر أي تكسر ما كانت فيه وتخرج منه بما تفعله في الدابة ووقع في رواية للنسائي تقبص بقاف ثم موحدة ثم مهملة خفيفة وهى رواية الشافعي والقبص الأخذ باطراف الانامل قال الاصبهاني وابن الاثير هو كناية عن الاسراع أى تذهب بعدو وسرعة الى منزل أبويها لكثرة حيائها لقبح منظرها أو لشدة شوقها الى التزويج لبعد عهدها به والضبط الاول أشهر قال ابن قتيبة سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعراً ثم تخرج بعد الحول باقبح منظر ثم تفتض اى تكسر ما هى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يكاد يعيش بعدما تفتض به اهـ

فتمطى بعرة فترمي بها ثم تراجع بعد ماشاءت من طيب أو غيره اه

بيان ما كان للعرب فى هذا الباب مما أبطلته الشريعة

كانت العرب فى أطوار الجاهلية تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها ـ فقد كانوا لاينكحون الامهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات الامايحكي أن حاجب بن زرارة وهو سيد بنى تميم تزوج بنته وأولدها وقد كان سماها « دختنوس » باسم بنت كسرى فقال فيها حين نكحها مرتجزا

ياليت شعري عنك دختنوس * اذا أتاها الخبر المرموس

أتسحب الذيلين أم تميس * لابل تميس انها عروس

وقد تنزهت العرب ولا سيما قريش عن هذه المناكح حفظا لحرمة الأرحام الدانية أن تنتهك بالمناكح العاهرة فتضعف الحمية وتقل الغيرة وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة وكان أقبح مايصنع بعضهم أن يجمع بين الاختين .وأول من جمع بينهما «أبو جنحة سعيد بن عاصم» فانه جمع بين هند وصفية ابنتى المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم فابطل ذلك الاسلام ﴿ومن﴾ قبيح ما كانوا يفعلون أن يخلف الرجل على امرأة أبيه وكانوا يسمون من فعل ذلك « الضيزن » قال أوس بن حجر التميمي يعير قوما من بنى قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم واحدا بعد آخر وكانوا ثلاثة :

نكوا فكيهة وامشوا فوق قبتها * فكلكم لأبيه ضيزن سلفُ

وكان الرجل من العرب اذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فان كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها وان لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض اخوته بمهر جديد وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الاماقد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساءسبيلا »

وقد كان يسمى هذا النكاح فى الجاهلية « نكاح المقت » ويسمي الولد منه مقتيا ويقال له أيضاً مقيت أى مبغوض مستحقر * وكان من هذا النكاح على ماذكره « الطبرسى » الاشعث بن قيس . ومعيط جد الوليد بن عقبة . (قال) ابن قتيبة من خلف على امرأة أبيه بعده جماعة كانت برة ابنة مر أخت تميم بن مر تحت خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . فخلف عليها ابنه كنانة ابن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة وغيره من ولده الا عبد مناف بن كنانة . وكانت ناجية بنت جرم بن ربان من قضاعة تحت سامة بن لؤى فولدت له غالب بن سامة ثم هلك عنها فخلف عليها ابنه الحارث بن سامة وكانت واقدة من بنى مازن بن صعصعة عند عبد مناف فولدت له نوفلا وأبا عمرو فهلك عنها وخلف عليها هاشم بن عبد مناف فولدت له خالدة وضعيفة وكانت آمنة بنت أبان بن كليب عند أمية بن عبد شمس فولدت له الاعياص ثم هلك عنها فخلف عليها ابنه أبو عمرو بن أمية وولدت له أبا معيط : وكانت مليكة بنت سنان بن أبى حارثة المري أخت هرم بن سنان تحت زبان بن سيار بن عمرو الفزارى فتزوجها بعده ابنه منظور بن زبان وولدت له خولة بنت منظور وهاشم بن منظور فتزوج بها الحسن بن على بن أبى طالب فولدت له الحسن بن الحسن رضى الله تعالى عنهم . ثم خلف عليها بعده محمد ابن طلحة بن عبيد الله فجاءت بابراهيم بن محمد وهو الاعرج الى غير ذلك انتهي * وعمرو بن معديكرب تزوج امرأة لأبيه بعده فى الجاهلية وهى التى قال فيها هذه الابيات :

تقول حليلتى لما قلتنى * شرائج بين كدرىّ وجون [1]

(١) الحليلة الزوجة وقلتنى من القلى وهو البغض وشرائج جمع شريج بضم الشين

تراه كالثغام يعلّ مسكا * يسوء الفاليات اذا فليني (١)

فزينك في شريطك أم عمرو * وسابغة وذو النونين زيني (٢)

فلو شمرن ثم عدون رهوا * بكل مدجج لعرفتِ لوني (٣)

اذا ماقلت ان عليّ دينا * بطعنة فارس قضيت ديني (٤)

لقعقعة اللجام برأس طرف * أحب اليّ من أن تنكحيني (٥)

أخاف اذا هبطن بنا خباراً * وجدّ الركض ان لاتحمليني (٦)

فلولا اخوتي وبنيّ منها * ملأت لها بذي شطب يميني (٧)

المعجمة وآخره جيم الضرب والنوع قال ابن دريد في الجمهرة كل لونين مختلفين هما شريجان وأنشد هذا البيت وقوله بين كدريّ وجون أي بعض الشرائج كدرى أى اغبر وبعضها جون والكدري منسوب الى الكدرة وجون بضم الجيم جمع جونة وهو مصدر الجون بالفتح وهو من الاضداد يقال للابيض وللاسود

(١) قوله تراه كالثغام الخ أي ترى الحليلة الشعر كالثغام وهو نبت له نور أبيض يشبه الشيب. وقولها يعل مسكا هو من علّلته ماء علّلا من باب طلب سقيته السقية الثانية وعل ويعل من باب ضرب اذا شرب قال الاعلم ومعنى يعل يطيب شيئاً بعد شيء وأصل العلل الشرب بعد الشرب وهو غير مناسب هنا. والفاليات جمع فالية وهي مايفلي به الشعر أي تخرج القمل منه

(٢) قوله فزينك في شريطك الى آخره هذا خطاب لها وأم عمرو منادى والزين نقيض الشين والشريط هو العيبة الصغيرة والعيبة بالفتح مايجعل فيه الثياب والسابغة الدرع الواسعة الطويلة وذو النونين السيف والنون شفرته

(٣) قوله فلو شمرن ثم عدون الخ يعني النساء الفاليات وشمر ازاره تشميرا رفعه والرهو السير السهل والمدجج بجيمين على صيغة اسم المفعول وهو اللابس آلة الحرب والسلاح

(٤) قوله اذا ما قلت الخ بضم التاء في موضعين

(٥) الطرف بالكسر الفرس الجواد (٦) الخبار بفتح الخاء المعجمة بعدها موحدة الارض الرخوة (٧) ذو شطب السيف طرائقه التي في متنه الواحدة شطبة

﴿ ومما ﴾ أبطله الشرع من عاداتهم في هذا الباب أيضا أنهم كانوا يطلقون النساء حتى اذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن لا عن حاجة ولا لمحبة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضرارا. وكان الرجل يطلق امرأته أو يتزوج أو يعتق ويقول كنت لاعبا فأبطل الله تعالى ورد عليهم بقوله جل شأنه « واذا طلقتم النساء فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » وفي الحديث الشريف « ثلاث جدهن جدّ وهزلهنّ جد النكاح والطلاق والرجعة »

﴿ ومن ذلك ﴾ أنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية الجاهلية كما يقع كثيرا من نحو الملوك غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم فانهم بسبب ما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم الا من عصمه الله تعالى منهم بالورع والتواضع وقد أبطل الله تعالى ذلك ونهى عنه بقوله « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

﴿ ومن ذلك ﴾ أنهم كانوا اذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته ان شاء أن يتزوجها بعضهم وان شاؤا زوجوها وان شاؤا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » أي لتأخذوا ميراثهن أو ليدفعن اليكم صداقهن اذا أذنتم لهن بالنكاح . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في سبب هذه الآية كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها

حتى تموت أو ترد اليه صداقها . وفي رواية ان كانت جميلة تزوجها وان كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . وحاصل معنى الآية لايحل لكم أن تأخذوهن بطريق الارث فتزعمون انكم أحق بهن من غيركم وتحبسوهن لانفسكم

احترام العرب النساء

كان العرب يتأثرون بكلامهن وتظهر حماستهم على أكمل حالاتها أمامهن ولهذا كان المتحاربون يجعلونهن خلفهم لتثور فيهم الحمية والنخوة ويبدأ الشعراء القصائد بأوصافهن والغزل بهن شحذاً للقرائح واستدراراً لجزل القول ويرتبط بهذا عادة تبين ماللمرأة من قوة فى مجتمعهم وهى :

« طلاق المرأة لزوجها » – فقد كان لها الحق فى ذلك بدون أن تتكلف الكلام بل يكفى أن تحول باب خبائها فاذا رأى زوجها ذلك علم أنها طلقته ويظهر مقدار تأثير المرأة من أن وقيعة جديس وطسم أثارتها « عفيرة » بقصيدة تقول فيها :

فلو أننا كنا الرجال وكنتمو * نساء لكنا لا نقر على الذل

ومن ان الصلح فى حرب داحس والغبراء تسببت فيه « بُهَيسة » بنت أوس الطائى : لم تقبل أن يبنى بها زوجها الحارث بن عوف المروى حتى يصلح بين عبس وذبيان فتحمل هو وهرم بن سنان من فرق الديات ما يزيد على ثلاثة آلاف بعير * وذلك ان الحارث قال لصديق له هل ترانى أخطب الى أحد من العرب فيردنى فقال له :ذلك أوس الطائى فركبا اليه فلما وصلاه قال للحارث ماجاء بك.قال جئت خاطبا فقال له (لست بذاك) فرجع من فوره وسألته زوجته من هذا الذى سلم ولم ينزل فقال ذاك سيد العرب الحارث

ابن عوف جاء خاطبا فرددته فقالت أتريد أن تزوج بناتك قال نعم فقالت ان ان لم تزوج سيد العرب فمن؟ ثم ألزمته فأتبعه وارجعه وزوجه بهيسة وبني لهما قبة فلما دنا قالت: أبين أهلي؟ ذلك مالا يكون ـ فارتحل بها ثم دنا منها في الطريق قالت: أكما يفعل بالسبية الأخيذة؟ لا والله حتى تكون في قومك وتنحر الجزر وتفعل ما يناسب مثلي فلما وصل وفعل دنا منها فقالت: أتخلو للنساء وبنو عمك يقتتلون؟ هلم فأصلح بينهم ثم ارجع فلن يفوتك مني شئ ففعل ممتثلا أمرها كما امتثل أبوها أمر أمها في تزويجها

عاداتهم المختلطة بالتدين

﴿ ومن عاداتهم ﴾ المختلطة بالتدين تحريم شهور معينة يجتنبون فيها القتال ويشهدون فيها أسواقهم ويؤدون مناسكهم ويأتمرون في شؤونهم ويستفظعون فيها القتال ويسمونه فجارا ـ وان اضطرتهم الاحوال الى القتال في هذه الشهور طلبوا نسء شهر منها وهو في الغالب المحرم يؤخرونه شهرا ـ ويتولى ذلك لهم نفر من قريش يسمونه « القلامس » توارثوا العمل والاسم عن أول من نسألهم وهو « القلمّس الكناني » [1] وقد قال شاعرهم

(١) وفي رواية عن الكلبي أن أول من نسأ الشهور على العرب وأحل منها ما أحل وحرم ما حرم رجل من كنانة يقال له « نعيم بن ثعلبة » وكان اذا تم الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب ويقول: لا مرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول أن صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة وان قال حلال عقدوا الاوتار وركبوا الازجة وأغاروا (وعن الضحاك) أن جنادة بن عوف الكناني وكان مطاعا في الجاهلية وكان يقوم على جمل في الموسم فينادي بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه

« ومنا ناسىء الشهر القلمس » وقد أيد الاسلام عادة الشوري ووصف بها المؤمنين وأبطل النسيء فقال « انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما » (وحكى) السهيلى فى روض الأنف ان نسيء العرب كان على ضربين . أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر لحاجتهم الى شنّ الغارات وطلب الثارات . والثانى تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوما حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فوافق حجه فى ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل فوافق عود الحج الى وقته فى ذى الحجة كما وضع اولا فلما قضى حجه خطب فكان مما قاله صلى الله عليه وسلم فى خطبته .. ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة

ثم يقوم في العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه (قال عمير بن قيس بن جذل الطعان) أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب

لقد علمت معدّ أن قومى * كرام الناس ان لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر * وأي الناس لم نعلك لجاما
ونحن الناسئون على معد * شهور الحل نجعلها حراما

(وقال آخر)

أتزعم أني من فقيم بن مالك * لعمري لقد غيرت ما كنت أعلم
لهم ناسئ يمشون تحت لوائه * يحل اذا شاء الشهور ويحرم

وفى القاموس ان الناسئ كان يقول: اللهم انى ناسئ الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أجاب اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك في الرجبين يعني رجب وشعبان انفروا على اسم الله وذلك قوله تعالى (انما النسيء زيادة في الكفر) اه

وذا الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان يعنى ان الحج قد عاد فى ذى الحجة الذى هو ميقاته الزمانى .

حملهم الملوك على الاعناق اذا مرضوا

﴿ قال أبو عبيدة ﴾ كانت ملوك العرب اذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه لانه عندهم أوطأ من الارض ﴿ قال النابغة الذبيانى (١) ﴾

ألم أقسم عليك لتخبرنى * أمحمول على النعش الهمام

(١) من حديث هذه الابيات ان النابغة كان عند النعمان ملك العرب بالحيرة كبيراً عنده خاصا به وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلته منه فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به وكان للنعمان بواب يقال له « عصام بن شهبرة الجرمي » قال للنابغة ان النعمان موقع بك فانطلق فهرب النابغة الي ملوك غسان ملوك الشام فكان يمدحهم وترك النعمان فاشتد ذلك عليه وعرف ان الذى بلغه كذب فبعث اليه أنك لم تعتذر من سخطة ان كانت بلغتك ولكنا تغيرنا لك عن شئ مما كنا لك عليه ولقد كان في قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدى وبينهم ما قد علمت وكان النعمان وأبوه وجده قد اكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالا عظيما وبلغ النابغة ان النعمان ثقيل من مرض أصابه حتى أشفق عليه منه فاتاه النابغة فالفاه محمولا على رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بالحيرة فقال لبوابه عصام « ألم أقسم عليك لتخبرني » الابيات المذكورة فعافاه الله وعفا عن النابغة (قال حسان بن ثابت) رضي الله تعالى عنه وفدت الى النعمان فحسدت النابغة على ثلاث لا أدري على أيتهن كنت أحسد . أعلى ادناء النعمان له بعد المباعدة ومسايرته له واصغائه اليه أو على جودة شعره أو على مائة بعير من عصافيره أمر له بها (قال أبو عبيدة) قيل لابي عمرو أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك ؟ قال : لعمر الله ما لمخافته فعل ان كان الا آمنا من أن يوجه اليه النعمان جيشا وما كان النابغة يأكل ويشرب الا في آنية من الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك

فانى لا ألومك فى دخول * ولكن ماوراءك ياعصام
فان يهلك أبو قابوس يهلك * ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بعده بذناب عيش * أجب الظهر ليس له سنام

عاداتهم في الخليع والرجل اللعين

﴿ كان العرب ﴾ فى أطوار الجاهلية اذا قال قائل منهم هذا ابني قد خلعته كان لا يأخذ بجريرته وذنبه ﴿ وقال ﴾ الفاضل الزوزنى فى شرح معلقة امرىء القيس عند الكلام على قوله :

وواد كجوف العير قفر قطعته * به الذئب يعوى كالخليع المعيل

الخليع [1] الذى قد خلعه أهله لخبثه . وكان الرجل منهم يأتى بابنه الى

(١) وفي كتاب فتح الباري للامام ابن حجر الخليع فعيل بمعنى مفعول يقال تخالع القوم اذا نقضوا الحلف فاذا فعلوا ذلك لم يطالبوا بجنايته فكأنهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه ومنه سمى الامير اذا عزل خليعا ومخلوعا (وقال) أبو موسى فى المغيث خلعه قومه أي حكموا بأنه مفسد فتبرؤا منه ولم يكن ذلك في الجاهلية يختص بالحليف بل كانوا ربما خلعوا الواحد من القبيلة ولو كان من صميمها اذا صدرت منه جناية تقتضي ذلك وهذا مما أبطله الاسلام من حكم الجاهلية . وفي البخارى وقد كانت هذيل خلعوا خليعا لهم في الجاهلية فطرق أهل بيت من اليمن بالبطحاء فانتبه له رجل منهم فحذفه بالسيف فقتله فجاءت هذيل فأخذوا اليمانى فرفعوه الي عمر بالموسم وقالوا قتل صاحبنا فقال انهم قد خلعوه فقال يقسم خمسون من هذيل ما خلعوه قال فاقسم تسعة وأربعون رجلا وقدم رجل منهم من الشام فسألوه أن يقسم فافتدى يمينه منهم بألف درهم فادخلوا مكانه رجلا آخر فدفعه الى أخي المقتول فقرنت يده بيده . قال قالوا فانطلقنا والخمسون الذين أقسموا حتى اذا كانوا بنخلة أخذتهم السماء فدخلوا في غار في الجبل فانهدم الغار على الخمسين الذين أقسموا فماتوا وأفلت القرينان واتبعهما حجر فكسر رجل أخي المقتول فعاش حولا ثم

الموسم ويقول ألا انى قد خلعت ابنى هـذا فان جر لم أضمن وان جر عليه لم أطلب فلا يؤخذ بجرائره انتهى . ويسمى الخليع الرجل اللعين أيضا (قال أبو عبيد البكرى) فى شرح أمالى القالى كان الرجل فى الجاهلية اذا غدر وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصب وقيل ألا ان فلانا قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم * ولنجعلنّ لظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال (١) وهذه العادة تدل على ان العرب فى

مات * وحاصل القصة أن القاتل ادعى أن المقتول لص وأن قومه خلعوه فانكروا هم ذلك وحلفوا كاذبين فأهلكهم الله بحنث القسامة وخلص المظلوم وحده وهذيل القبيلة المشهورة وهم ينتسبون الى هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر

(١) فالرجل اللعين هو هذا التمثال و بعضهم يقول الرجل اللعين هو شخص الخليع وقد اختلف أهل اللغة في المراد بقول الشماخ بن ضرار في مدح عرابة بن أوس من قصيدة

وماء قد وردت لوصل أروي * عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين

فقالوا يريد بقوله ذعرت به القطا الخ أنه جاء الى الماء متنكراً وذعرت خوفت ونفرت ونفيت طردت وخص الذئب والقطا لان القطا أهدي الطير والذئب أهدى السباع وهما السابقان الى الماء قال شارح الديوان أى ذعرت القطا بذلك الماء ونفيت عن ذلك الماء مقام الذئب أى وردت الماء فوجدت الذئب عليه فنحيته عنه أراد مقام الذئب كالرجل اللعين المنفي المقصى انتهى * فاللعين على هذا بمعنى الطريد وهو وصف للرجل وهو ما ذهب اليه ابن قتيبة في أبيات المعاني قال اللعين المطرود وهو الذى خلعه أهله لكثرة جناياته وقال بعض شراح أبيات المفصل اللعين المطرود الذي يلعنه كل أحد ولا يؤويه أي هذا الذئب خليع لامأوي له كالرجل اللعين وقال صاحب الصحاح الرجل اللعين شئ ينصب في وسط الزرع يستطرد به الوحوش وأنشد بيت الشماخ .

طور الجاهليـة قد بلغوا الى غاية الغايات في ميلهم لمحاسن الأخلاق وجميل الصـفات حتى أنهم تجاوزوا الحد في ذلك فبلغوا الى درجة العقوق . وعدم المبالاة بما يجب للأقارب والبنين من الحقوق . حثا على اجتناب كل ما يشين من الأخلاق الذميمة . وزجرا عن تعاطى سفاسف الأمور والجرائم العظيمة . «والخلعاء» كانوا قد خلعوا عنهم لباس المروءة والانصاف . وتردوا بأردية الجور والظلم والاعتساف . فلذلك عوملوا بتلك المعاملة . ولم تراع فيهم عهود الموافقة والمسالمة (ولما) كان كل أمر تجاوز الحد . انقلب بما يستنتج من المفاسد الى الضد . نهى الشرع عن كل ما يستوجب المفاسد . وأمر والحمد لله تعالى بما يستحق المحامد من المقاصد .

تفرد العزيز منهم بالحمى

﴿ وكان من عادات ﴾ الامة العربية في أطوار الجاهلية أن ينفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه كالذى كان يفعله كليب بن وائل [1] فانه كان يوافى بكلب على نشاز

(١) قال الميداني في تفسير المثل الدائر على ألسنة العرب «أعز من كليب وائل» هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن زهير وكان سيد ربيعة في زمانه وقد بلغ من عزه انه كان يحمى الكلأ فلا يقرب حماه ويجير الصيد فلا يهاج وكان اذا مر بروضة أعجبته أو غدير ارتضاه كنع كليبا ثم رمى به هناك فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى وكان اسم كليب بن ربيعة وائلا فلما حمى كليبه المرمى الأكلاء قيل «أعز من كليب وائل» ثم غلب هذا الاسم عليه حتي ظنوه اسمه وكان من عزه لايتكلم أحد في مجلسه ولا يحتبي أحد عنده ولذلك قال أخوه مهلهل بعدموته :

نبئت أن النار بعدك أوقدت * واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا في أمر كل عظيمة * لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

من الارض «وهو المكان المرتفع» ثم يستعويه ويحمى ما انتهى اليه عواؤه من كل الجهات ويشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله* وفيه يقول ﴿العباس بن مرداس﴾ من قصيدة

كما كان يبغيها كليب بظلمه * من العزحتى طاح وهو قتيلها

على وائل اذ يترك الكلب نابحا * واذ يمنع الافناء منها حلولها

وقد قضى الاسلام على كثير من تلك العادات ولم يبق منها الا ما كان نافعا فى الدنيا والآخرة وثمة عادات أخذها عنهم فرنجة اليوم المتمدينون نسرد لك بعضها

عاداتهم التى اخذها عنهم فرنجة اليوم

﴿ومما﴾ كان عندهم من العادات «وهو عادة الافرنج الآن» أنهم كانوا يتهادون بالزهور والرياحين فى أيام المواسم والاعياد كما يفعل فرنجة اليوم* وشاهده قول النابغة الذبيانى :

رقاق النعال طيّبٌ حجزاتهم * يحيّون بالرّيحان يوم السباسب

ويوم السباسب عيد من أعيادهم ﴿ومنها﴾ أنهم قد كانوا يقيمون التماثيل للصلحاء والمشهورين عندهم تخليداً لذكرهم ودليل ذلك ماذكر فى تفسير لفظة «يعوق» فى قوله تعالى «ولا يغوث ويعوق» من أنه صنم لكنانة وكان رجلا صالحا جمعت على حبه قلوبهم فأقاموا له تمثالا ﴿ومنها﴾ أنهم كانوا يرفعون

+ اقامة التماثيل

(وفيه يقول أيضا معبد بن سعنة التميمى)

كفعل كليب كنت خبرت انه * يخطط أكلاء المياه ويمنع

يجير على افناء بكر بن وائل * أرانب ضاح والظباء فترتع

وكليب هذا هو الذى قتله جساس بن مرة الشيباني اه

ماعلى رؤوسهم للتعظيم كما يرفع فرنجة اليوم قبعاتهم * وشاهد ذلك قول الشاعر :

ولما أتانا بعيد الكرى * خضعنا له و رفعنا العمارا

﴿ ومنها ﴾ أنهم كانوا يقصون أذناب الخيل * وشاهده قول امرئ القيس :

على كل مقصوص الذنابا معاود * بريد السرى بالليل من خيل بربرا

﴿ ومنها ﴾ انهم كانوا يقصون شواربهم ويرسلون لحاهم كما يفعل ذلك بعض فرنجة اليوم * وشاهده قول شاعرهم حريث بن عنان الطائى من قصيدة تقدم ذكرها

غلام قُلَيمي يحف سباله * ولحيته طارت شعاعا مقزّعا

﴿ ومنها ﴾ ان نساءهن كنّ يرسلن ذيول ثيابهن ولا سيما فى حللهن النفيسة التى كنّ يلبسنها فى المآدب والاعياد وأيام المواسم * وشاهده قول شاعرهم وهو امرؤ القيس .

خرجت بها أمشى تجر وراءنا * على أثرينا ذيل مرط مرحل

﴿ ومنها ﴾ انحناء التحية وكانت عادة بعض قبائل كغسان وغيرها (وكان) لهم غير ذلك عادات أخرى كثيرة * ومن بحث فى مجدهم وحضارتهم وتمدنهم وجد الكثير من عادات الافرنج الآن مأخوذاً من عاداتهم * فلا ريب بعد كل ماسردناه من ضروب مكارم أخلاقهم الفاضلة . وتفصيل عاداتهم الكاملة . يعرب عن فخر العرب الجليل . ويؤيد أنهم أس التمدين والعمران وهم الذين علموا الناس مبادئهما فكفاهم بذلك كله فخرا وشرفا وعزا وقدما

تخيلات الامة العربية فى أطوار الجاهلية

﴿ مذاهب العرب وتخيلاتها ورموزها ﴾

ان للعرب معتقدات كما أن لكل أمة مثلها . واذا نسبنا معتقداتهم

لمعتقدات أكبر الامم المتمدينة الراقية في العصور السالفة مثل اليونان والمصريين والرومان وجدنا العرب أقلهم أباطيل وأسلمهم عقولا .

وان أكثر ماتتوق له النفوس وتحول نحوه الابصار وتطلع اليه القلوب في حال الحضارة ما كان من حال الامم في أعصار البداوة وما احتملته تلك الازمان من بساطة العيش وسذاجة الاخلاق وسهولة الطباع للانقياد في غرائب المعتقدات وحال البداوة في أعمار الامم كحالة الطفولية في أعمار الانسان لم تتكامل لديه القوة الحاكمة فهو يصدق كل ما يقال ويعتقد كل ما يحكى ويقبل كل علة ويرضى بكل سبب ويطمئن لكل خيال وان كان مما لايسعه الامكان ولا يحتمله الوقوع .

فشغف النفوس بالاطلاع على تلك الاحوال عظيم لانها تدرك به عظم ما بين الحالتين من البون الشاسع وتستشعر من مقابلتهما بلذة الارتقاء كما يشعر الكامل بكماله عند وقوفه على نقصان غيره وكالجاهل كلما أحسست بشيء من جهله زادك ذلك احساسا بعلمك ووثوقا به .

وخرافات اليونانيين والرومانيين وتخيلاتهم لها في هذا الباب المكان الاول من الاطلاع عند الامم الغربية حتى صارت شيأ يلقن ويدرس بينهم . ولم تزل النفوس العربية تتطلع الى ما كان في جاهلية العرب من التخيلات في المعتقدات والتصورات في المذهب خصوصا ولم يكن ثمة تاريخ قد دونت فيه أحوال الجاهلية الا ماجاء في أشعارهم وحملته الرواة متشتتا متناثرا في ثنيات بطون الاسفار المختلفة . فاذا عثر الباحث على شيء مجتمع منه كانت له مزية لاتخلو من فائدة .

﴿ فمن تخيلات العرب ﴾ ان الرجل منهم كان اذا أراد دخول قرية فخاف

وباءها أو جنها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهق نهيق الحمار ثم علق عليه كعب أرنب كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن . ويسمون هذا النهيق (التعشير) قال شاعرهم .

ولا ينفع التعشير ان جم واقع * ولا زعزع يغني ولا كعب أرنب

﴿ وقال الهيثم بن عدي ﴾ خرج عروة بن الورد الى خيبر مع رفقة ليمتاروا فلما قربوا منها عشروا وعاف عروة أن يفعل فعلهم وقال .

لعمري لئن عشرت من خيفة الردى * نهاق حمير انني لجزوع
فلا واءلت تلك النفوس ولا أتوا * قفولا الى الأوطان وهي جميع
وقالوا ألا انهق لاتضرك خيبر * وذلك من فعل اليهود ولوع[1]

ويقال ان رفقته مرضوا ومات بعضهم ونجا عروة من الموت والمرض

﴿ وقال آخر ﴾

لاينجينك من حمام واقع * كعب تعلقه ولا تعشير

﴿ ومما يشابه هذا ﴾ أن الرجل منهم كان اذا ضل فى فلاة قلب قميصه وصفق بيديه كأنه يومئ بهما الى انسان ليهتدي ﴿ قال أعرابي ﴾

قلبت ثيابي والظنون تجول بى * وترمى برحلي نحو كل سبيل
فلأيا بلأي ماعرفت جليتي * وأبصرت قصداً لم يصب بدليل

﴿ وقال أبو العملس الطائى ﴾

فلو أبصرتني بلوى بطان * أصفق بالبنان على البنان
فأقلب تارة خوفا ردائى * وأصرخ تارة بابي فلان
لقلت أبو العملس قد دهاه * من الجنان خالعة العنان

(١) الولوع بالضم الكذب يقال ولع الرجل اذا كذب

والاصل في قلب الثياب التفاؤل بقلب الحال وقد جاء في الشريعة الاسلامية نحو ذلك في الاستسقاء عند انحباس المطر .

﴿ ومن مذاهب العرب ﴾ أنهم كانوا اذا أجدبت الارض وأمسكت السماء الماء عنهم وأرادوا أن يستمطروا عمدوا الى السلع والعشر (١) فحزموهما وعقدوهما في أذناب البقر وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وعر واتبعوها يدعون الله ويستسقونه . وانما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاؤلا للبرق بالنار أو لكي يرحم الله البقر ويوقع عليها المطر اطفاء لنارها وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات ﴿ قال أمية بن أبي الصلت ﴾

سنة أزمة تبرح بالناس * س ترى للعضاه فيها صريرا
لا على كمب تنوء ولا ريـ * ـح جنوب ولا ترى طحرورا
ويسوقون باقر السهل للطو * د مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في ثكن الاذ * ناب منها لكي تهيج البحورا
سلع ما ومثله عشر ما * عائل ما وعالت البيقورا (٢)

﴿ وقال أعرابي ﴾

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا * فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
فعدنا الى رب الحيا فأجارنا * وصير جدب الارض من عنده خصبا

---

(١) العشر هو شجر من العضاه له صمغ

(٢) يروى أن عيسى بن عمر قال ما أدري معنى هذا البيت . ويقال ان الاصمعي صحف فيه فقال غالت البيقورا بالغين المعجمة وفسره غيره فقال عالت بمعنى أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر والبيقور البقر وعائل غالب أو مثقل . ويمكن أن يحمل تفسير الاصمعي على محمل صحيح فيقال غالت بمعنى أهلكت يقال غاله كذا واغتاله أي أهلكه وغالتهم غول يعني المنية ومنه الغضب غول الحلم .

﴿ وقال آخر ﴾

ولقد كسونا الارض أذناب البقر * بالسلع المعقود فيها والعشر

﴿ وقال آخر ﴾

يا كحل قد أثقلت أذناب البقر * بسلع يعقد فيها وعشر

* فهل تجودين ببرق ومطر *

﴿ وقال آخر يعيب العرب بفعلهم هذا ﴾

يا بني نهشل أصحاب الحور * أتطلبون الغيث جهلا بالبقر
وسلع من بعد ذاك وعشر * ليس بذا يبلل الارض المطر

﴿ ومثل هذا قول ودّاك الطائي ﴾

لا درّ درّ أناس خاب سعيهمو * يستمطرون لدى الاعسار بالعشر
أجاعل أنت بيقورا مسلعة * ذريعة لك بين الله والمطر

﴿ وقال ﴾ بعض الاذكياء كل أمة قد تحذو في مذاهبها مذاهب ملة أخرى وقد كانت الهند تزعم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها فى الارض وان لها عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان بأخثائها ويغسلون الوجوه بأبوالها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبركون بها فى جميع أحوالهم فلعل أوائل العرب حذوا هذا الحذو وانتهجوا ذلك المسلك .

﴿ وللعرب فى البقر خيال ﴾ وذلك انهم كانوا اذا أوردوها فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقر بعده . ويقولون ان الجن تصد البقر عن الماء وان الشيطان يركب قرن الثور ﴿ وقال قائلهم ﴾

انى وقتلى سليكا ثم أعقله * كالثور يضرب لما عافت البقر (١)

(١) هذا البيت من أبيات خبرها أن السليك بن السلكة كان يعطي عبد الملك

﴿ وقال نهشل بن جرى ﴾

كذاك الثور يضرب بالهراوى * اذا ما عافت البقر الظماء

﴿ وقال آخر ﴾

كالثور يضرب للورو * د اذا تمنعت البقر

وقد يجوز أن تمتنع البقر من الورود حتى يرد الثور كما تمتنع الغنم من سلوك السبل أو دخول الدور والاخبية حتى يتقدمها الكبش أو التيس وكالنحل تتبع اليعسوب . والكراكى تتبع أميرها . ولكن الذي تدل عليه أشعارهم ان الثور يرد ويشرب ولا يمتنع ولكن البقر تمتنع وتعاف الماء وقد رأت الثور يشرب فحينئذ يضرب الثور مع اجابته الى الورود فتشرب البقر عند شربه وهذا هو العجب ﴿ قال الشاعر ﴾

فانى اذاً كالثور يضرب جنبه * اذا لم يعف شربا وعافت صواحبه

﴿ وقال آخر ﴾

فلا تجعلونى كالبقير وفحلها * يكسر ضربا وهو للورد طائع

ابن موبلك الخثعمي اتاوة من غنائمه على أن يجيره فيتجاوز بلاد خثعم الي من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم فمر قافلا من غزوة فاذا بيت من خثعم أهله خلوف وفيه امرأة شابة بضة فسألها عن الحي فأخبرته فتسنمها « أي علاها » ثم التقم المحجة فبادرت الي الماء فأخبرت القوم فركب أسد بن مدرك الخثعمي فى طلبه فلحقه فقتله فقال عبد الملك والله لاقتلن قاتله أو ليدينه . فقال أسد والله لاأديه ولا كرامة ولوطلب في ديته عقالا لما أعطيته وقال في ذلك :

اني وقتلى سليكا ثم أعقله * كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبت للمرء اذ نيكت حليلته * واذ يشد على وجعائها الثفر
اني لتارك هامات بمجزرة * لايزدهيني سواد الليل والقمر

وما ذنبه ان لم ترد بقراته * وقد فاجأتها عندذاك الشرائع

﴿ وقال الاعشى ﴾

لكالثور والجني يضرب وجهه * وما ذنبه أن عافت الماءمشربا

وما ذنبه أن عافت الماء باقر * وما أن تعاف الماء الا لتضربا

﴿ وشبه مذهبهم في ضرب الثور ﴾ مذهبهم فى العرّ وهو الجرب يصيب الابل فيكوى الصحيح ليبرأ السقيم ﴿ قال النابغة الذبيانى ﴾

وكلفتنى ذنب امرئ وتركته * كذى العر يكوى غيره وهو راتع

﴿ وقال بعض الاعراب ﴾

كمن يكوى الصحيح يروم برءا * به من كل جرباء الاهاب[1]

أغشى الحروب وسربالي مضاعفة * تغشي البنان وسيفي صارم ذكر

(١) هذا البيت يبطل رواية من روي بيت النابغة كذى العر بضم العين لأن العر بالضم قروح في مشافر الابل غير الجرب والعر بالفتح الجرب نفسه فاذا دل الشعر على أنه يكوى الصحيح ليبرأ الاجرب فالواجب أن يكون بيت النابغة كذي العر بالفتح (ومثل) هذا البيت قول الآخر

فألزمتنى ذنبا وغيري جرّه * حنانيك لاتكوي الصحيح باجربا

الا أن يكون اطلاق لفظ الجرباء على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له وفي كتاب (لبّ لباب لسان العرب) عند الكلام على شرح قصيدة النابغة التي منها

أتوعد عبدا لم يخنك أمانة * وتترك عبداً ظالما وهو ظالع

تكلفتنى ذنب امرئ وتركته * كذى العر يكو غيره وهو راتع

(قال الأصمعي) العر بالفتح الجرب نفسه وأنشد (كالعر يكمن حينا ثم ينتشر) والعر بالضم قرح يأخذ الابل في مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع وربما تفرق في مشافرها مثل القوباء يسيل منه ماء أصفر (قال ابن السيد) في شرحه لادب الكاتب في معناه خمسة أقوال (أحدها) ان هذا أمر كان يفعله جهال الاعراب كانوا اذا وقع العر في ابل

﴿ وقال آخر ﴾

فألزمتني ذنبا وغيري جره ﴿ حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا

احدهم اعترضوا بعيراً صحيحا من تلك الابل فكدّوا مشفره وعضده وفخذه يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العر عن ابلهم كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الارانب خشية العطب ويفقؤن عين فحل الابل لئلا تصيبها العين وهذا قول الاصمعي وأبي عمرو وأكثر اللغويين (ثانيها) قال يونس سألت رؤبة بن العجاج عن هذا فقال هـذا وقول الآخر كالثور يضرب لما عافت البقر شيء كان قديما ثم تركه الناس . ويدل عليه قول الراجز

كأن شكر القوم عند المنن ﴿ كيّ الصحيحات وفقء الأعين

(ثالثها) قيل أنهم كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق الداء به لا ليبرأ السقيم حكي ذلك ابن دريد (رابعها) قال أبو عبيدة هذا لم يكن وانما هو مثل لا حقيقة أي أخذت البريء وتركت المذنب فكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هـذا مما يكون . قال ونحو من هذا قولهم (يشرب عجلان ويسكر مدبرة) ولم يكونا شخصين موجودين (خامسها) قيل ان أصل هذا ان الفصيل كان اذا اصابه العر لفساد في لبن أمه عمدوا الى أمه فكووها فتبرأ ويبرأ فصيلها ببرئها لان ذلك الداء انما كان سرى اليه من لبنها وهذا أغرب الاقوال وأقربها الى الحقيقة . ومن روي كذى العز بفتح العين فقد غلط لان العر الجرب ولم يكونوا يكوون من الجرب وانما يكوون من القروح التي تخرج في مشافر الابل وقوائمها خاصة وهذا ضربه مثلا لنفسه يقول أنا بريء وغيري سقيم فحملتني ذنب السقيم وتركته وقد قال الكميت

ولا أكوي الصحاح براتعات ﴿ بهن العر قبلي ما كوينا

(قال ابن أبي الاصبع) أنشد ابن أبي شرف القيرواني ابن رشيق .

غيري جنى وانا المعاقب فيكم ﴿ فكأنني سبابة المتندم

وقال له هل سمعت هذا المعنى . قال سمعته وأخذته أنت وأفسدته . فقال ممن فقال من النابغة الذبياني حيث يقول .

وكلفتني ذنب امرئ وتركتـه ﴿ كذي العر يكوى غيره وهو راتع

﴿ ومن مذاهب العرب أيضاً ﴾ تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ كانوا يرون أنه يفيق بذلك . ويقال لانه ان نام يسري السم فيه فيهلك فيشغلونه بالحلى والجلاجل وأصواتها عن النوم وهذا قول النضر بن شميل . وبعضهم كان يقول انه اذا علق عليه حلى الذهب برأ وان علق عليه الرصاص أوحلي الرصاص مات . وقيل لبعض الاعراب أتريدون سهره « يعنى اللديغ » فقال ان الحلى لا تسهر ولكنها سنة ورثناها ﴿ وقال قائلهم ﴾

فبت كأني ساورتني ضئيلة * من الرقش في أنيابها السم ناقع (١)
يسهد من ليل التمام سليمها * لحلى النساء في يديه قعاقع (٢)

أما فساده فلانك قلت في صدر بيتك انك عوقبت بجناية غيرك ولم يعاقب صاحب الجناية ثم قلت في عجز بيتك ان صاحب الجناية قد شركك في العقوبة فتناقض معناك . وذلك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم وسبابة المتندم تألم في المتندم ثم يشركها المتندم في الالم فانه متي تألم عضو من الحيوان تألم كله لان المدرك من كل مدرك حقيقته وحقيقته على هذا المذهب الصحيح هي جملته المشاهدة منه والمكوى من الابل يألم وما به عر وصاحب العر لا يألم جملة فمن هنا أخذت المعنى وأفسدته . اه وهذا تدقيق فلسفي لا مدخل له في الشعر

(١) ساورتني أي أثبتني ضئيلة أفعي دقيقة اللحم والرقشاء النقطاء بأسود وأبيض والناقع الثابت وقد عظم أمر الافعي في هذا البيت ليخبر عن شدة خوفه وعظم همه .

(٢) يسهد يمنع من النوم وليل التمام ليالى الشتاء الطوال (وقوله لحلى النساء في يديه قعاقع) قال القتيبي كانوا يجعلون الحلى والخلاخل في يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب السم فيه . والقعاقع جمع قعقعة وهو الصوت الشديد والسليم الملدوغ تفاءلوا له بالسلامة . وهذان البيتان من قصيدة طويلة تقدم بيت منها في مذهب العرب في العر وهي للنابغة الذبياني (ومنها) يخاطب النعمان بن المنذر أبا قابوس وكان بنو قريع قد وشوا به اليه .

﴿ وقال بعض بني عذرة ﴾

كأني سليم ناله كلم حية * ترى حوله حلي النساء موضعا

﴿ وقال آخر ﴾

وقد علّلوا بالبطن في كل موضع * وغرّوا كما غرّ السليم الجلاجل

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني * وتلك التي تستكّ منها المسامع
مقالة أن قد قلت سوف أناله * وذلك من تلقاء مثلك رائع
لعمري وما عمري عليّ بهين * لقد نطقت بطلا عليّ الاقارع
أقارع عوف لا أحاول غيرها * وجوه قرود تبتغي من تجادع
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة * له من عدوّ مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب * ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لأقوله * ولو كبلت في ساعديّ الجوامع
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وهل يأثمن ذو إمة وهو طائع
بمصطحبات من لصاف وثبرة * يزرن إلالا سيرهن التدافع
سماما تباري الريح خوص عيونها * لهنّ رذايا بالطريق ودائع
عليهن شعث عامدون لحجهم * فهن كاطراف الحنيّ خواضع
تكلفني ذنب امرئ وتركته * كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع
فان كنت لا ذو الضغن عني مكذب * ولا حلفي عن البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقوله * وأنت بأمر لا محالة واقع
فانك كالليل الذي هو مدركي * وان خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة * تمد بها أيد اليك نوازع
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة * ويترك عبد ظالم وهو ضالع
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه * وسيف أعيرته المنية قاطع
أبى الله الا عدله ووفاءه * فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
وتسقي اذا ما شئت غير مصرد * بزوراء في حافاتها المسك كانع

﴿وقال جميل﴾

اذا ما الديغ أبرأ الحلى داءه * فخليك أمسى يابثينة دائيا

﴿وقال عوير النبهانى﴾ وهو يؤيد رأى النضر بن شميل

فبت معنى بالهموم كأننى * سليم نفى عنه الرقاد الجلاجل

﴿ومثله قول الآخر﴾

كأنى سليم سهد الحلى عينه * فراقب من ليل التمام السكوا كبا

﴿ومذهبهم فى البلية﴾ وهي ناقة تعقل عند القبر حتى تموت صبرا فاذا مات منهم كريم بلوا ناقته أو بعيره فعكسوا عنقها وأداروا رأسها الى مؤخرها وتركوها فى حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملىء جلدها ثماما «وهو نبت». وكانوا يزعمون ان من مات ولم يبل عليه حشر ماشيا ومن كانت له بلية حشر راكبا على بليته. ﴿قال عمرو ابن زيد المتمني﴾ يوصى ابنه عند موته فى البلية.

أبنيّ زودنى اذا فارقتنى * فى القبر راحلة برحل فاتر

للبعث أركبها اذا قيل اركبوا * مستوثقين معا لحشر الحاشر

من لا يوافيه على عثراته * فالخلق بين مدفع أو عاثر

﴿وقال عويمر النبهاني﴾

أبنيّ لا تنس البليـة انها * لأبيك يوم نشوره مركوب

﴿ومن مذاهب العرب﴾ عقرهم الابل على القبور [1] ﴿قال شاعرهم﴾.

ان الشجاعة والسماحة ضمنا * قبرا بمرو على الطريق الواضح

---

(١) عقرهم الابل على القبور قال ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد اختلف في سبب

فاذا مررت بقبره فاعقر به * كُوم الجلاد وكل طرف سابح (١)

عقرهم الابل على القبور فقال قوم انما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الابل في حياته وينحره للاضياف واحتجوا بقول الشاعر

وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

وقال قوم انما كانوا يفعلون ذلك اعظاما للميت كما كانوا يذبحون للاصنام * وقيل انما يفعلونه لان الابل كانت تأكل عظام الموتى اذا بليت فكأنهم يثأرون لهم منها . وقيل ان الابل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بذلك انها قد هانت عليهم لعظم المصيبة وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث (لاعقر في الاسلام) قال المناوي كانوا في أيام الجاهلية يعقرون أي ينحرون الابل على قبور الموتى فنهى عنه

(١) الجلاد جمع جلد قال الاصمعي الجلد الكبار من الابل التي لاصغار فيها وأنشد

تواكلها الازمان حتى أجأنها * الى جلد منها قليل الأسافل

والاسافل الصغار ههنا . وهذه الابيات من قصيدة طويلة لزياد الاعجم يرثي بها المغيرة بن المهلب لم يقل مثلها في رثاء أحد وهاك نصها لانها من نادر الكلام ونقي المعاني ومختار القصائد

ان السماحة والمروءة ضمنا * قبراً بمرو على الطريق الواضح
فاذا مررت بقبره فاعقر به * كوم الجلاد وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح
واظهر بزته وعقد لوائه * واهتف بدعوة مصلتين شرامح
آب الجنود معقلا أو قافلا * وأقام رهن حفيرة وضرائح
وأرى المكارم يوم زيل بنعشه * زالت بفضل فواضل ومدائح
رجفت لمصرعه البلاد وأصبحت * منا القلوب لذاك غير صحائح
ألآن لما كنت أكمل من مشى * وافتر نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة كلها * وأعنت ذلك بالفعال الصالح
فكفي لنا حزنا ببيت حله * احدى المنون فليس عنه ببارح
فعفت منابره وحط سروجه * عن كل طامحة وطرف طامح

وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

واذا يناح على امرئ فتعلمن * أن «المغيرة» فوق نوح النائح
تبكي «المغيرة» خيلنا ورماحنا * والباكيات برنة وتصايح
مات «المغيرة» بعد طول تعرّض * للموت بين أسنة وصفائح
والقتل ليس الى القتال ولا أرى * سببا يؤخر للشفيق الناصح
لله درّ منية فاتت به * فلقد أراه يردّ غرب الجامح
ولقد أراه مجففاً أفراسه * يغشى الاسنة فوق نهد قارح
في جحفل لجب ترى أبطاله * منه تعضل بالفضاء الفاسح
يقص الحزونة والسهولة اذ غدا * بزهاء أرعن مثل ليل جانح
ولقد أراه مقدّما أفراسه * يدني مراجح في الوغى لمراجح
فتيان عادية لدي مرسى الوغى * سنوا بسنة معلمين جحاجح
لبسوا السوابغ في الحروب كأنها * غدر تحيز في بطون أباطح
واذا الضراب عن الطعام بدالهم * ضربوا بمرهفة الصدور جوارحي
لو عند ذلك قارعته منية * قرع الحوام وضمّ سرح السارح
كنت الغياث لأرضنا فتركتنا * فاليوم نصبر للزمان الكالح
فانع (المغيرة) للمغيرة اذ غدت * شعواء مجحرة لنبح النابح
صفان مختلفان حين تلاقيا * آبوا بوجه مطلق أو ناكح
ومدجج كره الكماة نزاله * شاكي السلاح مسايف أورامح
قد زار كبش كتيبة بكتيبة * يودي لكوكبها برأس طامح
غير أن دون نسائه وبناته * حامي الحقيقة للحروب مكاوح
سبقت يداك له بعاجل طعنة * شهقت لمنفذها أصول جوانح
والخيل تضبح بالكماة وقد جرت * فوق النحور دماؤها بسرائح
بالهفتا بالهفتا لك كلما * خيف الفرار على المدرّ المسائح
تشفي بحلمك لابن عمك جهله * وتذبّ عنه كفاح كل مكافح

﴿ وقال آخر ﴾

نفرت قلوصي عن حجارة حرة * بنيت على طلق اليدين وهوب
لاتنفري ياناق منه فانه * شريب خمر مسعر لحروب

واذا يصول بك ابن عمك لم يصل * بمواكل وكل غداة تجالح
صل يموت سليمه قبل الرقى * ومخاتل لعدوه بتصافح
واذا الامور على الرجال تشابهت * وتوزعت بمغالق ومفاتح
فتل السحيل بمبرم ذي مرة * دون الرجال بفضل عقل راجح
وأرى الصعالك (للمغيرة) أصبحت * تبكي على طلق اليدين مسامح
كان الربيع لهم اذا انتجعوا الندى * وخبت لوامع كل برق لامح
كان المهلب (بالمغيرة) كالذي * ألقى الدلاء الى قليب المائح
فأصاب جمة ما استقى فسقى له * في حوضه بنوازع ومواتح
أيام لو يحتل وسط مفازة * فاضت معاطشها بشرب سائح
ان المهالب لن يزال لها فتى * يمري قوادم كل حرب لاقح
بالمقربات لواحقاً آطالها * تجتاب سهل سباسب وصحاصح
متلبيا تهفو الكتائب حوله * ملح المتون من النضيح الراشح
ملك أغر متوج يسمو له * طرف الصديق بغض طرف الكاشح
رفاع ألوية الحروب الى العدى * بسعود طير سانح وبوارح

(قوله مصلتين) يعني أصلتوا سيوفهم أي سلوها . (والشرامح) جمع شرمح وهم الطوال (وقوله مجففاً) أفراسه يعنى ألبسها التجافيف . (وتعضل) تنشب ومنه عضلت القطاة اذا نشب بيضها فلم يخرج . (وتحيز) تدافع . (والمكافح) المجالد بنفسه ومنه لقيته كفاحا (والمكاوح) بالواو المجاهد (قال أبو على القالى) ويقال فلان شاكى السلاح وشائك السلاح اذا كانت لسلاحه شوكة وفلان شاك في السلاح اذا دخل في الشكة والشكة السلاح . (والسرائح) السيور واحدها سريحة وهي سيور نعال الابل . (والوكل) الذي يتكل على غيره . (والتجالح) التكاشف اه أمالي القالى

لولا السفار وبعد خرق مهمه * لتركتها تحبو على العرقوب

﴿ ومن مذاهب العرب وتخيلاتها ﴾ انه اذا نفرت الناقة فسميت أمها سكنت من النفار ﴿ قال الراجز ﴾ .

أقول والوجناء بي تقحم * ويلك قل ماسم آمها ياعلكم

وعلكم اسم عبده وانما سأل عبده ترفعا أن يعرف اسم أمها لأن العبيد بالابل أعرف وهم رعاتها . ﴿ وأنشد السكرى ﴾ .

فقلت له ماسم آمها هات فادعها * تجبك ويسكن روعها و نفارها

﴿ ومما كانت العرب كالمجمعة عليه الهامة[1] ﴾ وذلك انهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت ولا قتيل يقتل الا ويخرج من رأسه « هامة » فان كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامة على قبره « اسقوني فاني صدية » فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا هامة » وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء . ﴿ قال قائلهم ﴾ .

يخبرنا الرسول بأن سنحيا * وكيف حياة أصداء وهام

﴿ وقال أبو داود الايادي ﴾

سلط الموت والمنون عليهم * فلهم في صدى المقابر هام

(١) الهامة حكى ان أبا زيد كان يقول الهامة مشددة الميم إحدى هوام الارض وانها هي المتلونة المذكورة . وقيل ان أبا عبيد قال ما أرى أبا زيد حفظ هذا . وفي مروج الذهب للمسعودي من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتي يكون كضرب من البوم وهو أبدا مستوحش ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وانها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم مايكون بعده فتخبره . اه

﴿ وقال آخر لابنه ﴾

ولا تزقوا لى هامة فوق مرقب * فان زقاء الهام للمرء عائب (١)

﴿ وقال ذو الاصبع العَدْوانى ﴾

ياعمرو إن لا تدع شتمى ومنقصتى * أضربك حيث تقول الهامة اسقونى (٢)

---

(١) المرقب الموضع الذي شرف يطلع عليه الرقيب ويقال له المرقبة أيضا يقول له لا تترك ناري ان قتلت فانك ان تركته صاحت هامتي اسقوني فان كل صداء (وهو ههنا العطش) ويحتمل بأبيك (وتلك التي تبيض منها الذوائب) لصعوبتها وشدتها كما يقال أمر يشيب رأس الوليد. ان يريد صعوبة الامر على ابنه يعني ان ذلك عار عليك (٢) هذا البيت من قصيدة طويلة وهي

يامن لقلب طويل البث محزون * أمسى تذكر ريا أمّ هارون
أمسى تذكرها من بعد ماشحطت * والدهر ذو غلظة حينا وذو لين
فان يكن حبها أمسى لنا شجنا * وأصبح الوأى منها لا يواتيني
فقد غنينا وشمل الدار يجمعنا * أطيع ريا وريا لا تعاصيني
نرمي الوشاة فلا نخطى مقاتلهم * بصادق من صفاء الود مكنون
ولى ابن عم على ما كان من خلق * مختلفان فأقليه ويقليني
أزري بنا أننا شالت نعامتنا * فخالني دونه بل خلته دوني
لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب * عني ولا أنت دياني فتخزوني
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة * ولا بنفسك في العزاء تكفيني
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتى * فان ذلك مما ليس يشجيني
ولا يرى فيَّ غير الصبر منقصة * وما سواه فان الله يكفيني
لولا أواصر قربي لست تحفظها * ورَهبة الله في مولى يعاديني
اذاً بريتك بريا لا انجبار له * انى رأيتك لاتنفكّ تبريني
ان الذي يقبض الدنيا ويبسطها * ان كان أغناك عني سوف يغنيني
الله يعلمني والله يعلمكم * والله يجزيكم عني ويجزيني

﴿ وقال مغلس الفقسي ﴾

وان أخاكم قد علمت مكانه * بسفح قبا تسفي عليه الأعاصر (١)

ماذا عليَّ وان كنتم ذوى رحمي * أن لا أحبكم إذ لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم * ولا دماؤكم جمعاً ترويني
ولى ابن عم لو ان الناس في كبد * لظل محتجراً بالنبل يرميني
ياعمرو ان لا تدع شتمي ومنقصتي * أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
عني اليك فما أمي براعية * ترعي المخاض ولا رأيي بمغبون
اني أبيٌّ أبيٌّ ذو محافظة * وابن أبيٍّ أبيٍّ من أبيين
لا يخرج القسر مني غير مأبية * ولا ألين لمن لا يبتغي ليني
عفٌّ ندود اذا ما خفت من بلد * هوناً فلست بوقاف على الهون
كل امرئ صائر يوماً لشيمته * وان تخلق أخلاقاً الى حين
والله لو كرهت كفي مصاحبتي * لقلت اذ كرهت قربي لها بيني
أني لعمرك ما بابي بذي غلق * عن الصديق ولا خيري بممنون
وما لساني على الادني بمنطلق * بالمنكرات ولا فتكي بمأمون
عندي خلائق أقوام ذوى حسب * وآخرين كثير كلهم دوني
وأنتم معشر زيد على مائة * فاجمعوا أمركم طراً فكيدوني
فان علمتم سبيل الرشد فانطلقوا * وان جهلتم سبيل الرشد فأتوني
يارب ثوب حواشيه كأوسطه * لاعيب في الثوب من حسن ومن لين
يوما شددت على فرغاء فاهقة * طراً من الدهر تارات تماريني
قد كنت أعطيكم مالي أمنحكم * ودّى على مثبت في الصدر مكنون
يارب حي شديد الشغب ذي لجب * دعوتهم راهن منهم ومرهون
رددت باطلهم في رأس قائلهم * حتى يظلوا جميعاً ذا أفانين
ياعمرو لو لنت لى ألفيتني يسراً * سمحاً كريماً أجازي من يجازيني

(١) تسفي أي تذرى عليه الرياح

له هامة تدعو اذا الليل جنها * بني عامر هل للهلالي ثائر ؟

﴿ وقال توبة بن الحمير ﴾

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت * عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا * اليها صدى من جانب القبر صائح

﴿ وقال مجنون ليلى قيس بن الملوّح ﴾

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا * ومن دون رمسينا من الأرض أنكب
لظل صدى رمسي وان كنت رمة * لصوت صدى ليلى يهش ويطرب

﴿ ومما أبطله الاسلام ﴾ قول العرب « بالصفر » زعموا أن في البطن حية اذا جاع الانسان عضت على شرسوفه وكبده وفي الحديث الشريف « لا عدوى ولا هامة ولا صفر (١) ولا غول » ﴿ قال شاعرهم ﴾ .

(١) ولا صفر قال أبو عبيدة معمر بن المثنى هو صفر الشهر الذي بعد محرم قال نهى عليه الصلاة والسلام عن تأخيرهم المحرم الى صفر يعني ما كانوا يفعلونه من النسيء . قال ابن أبي الحديد ولم يوافق أحد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير . أقول الذي رأيته في فتح الباري ما حاصله أن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم فجاء الاسلام برد ما كانوا يفعلونه من ذلك فلذلك قال صلى الله عليه وسلم (لا صفر) وهذا القول مروي عن مالك وقد فسره البخاري في صحيحه بأنه داء يأخذ البطن . وقد نقل أبو عبيدة معمر ابن المثنى في غريب الحديث له عن يونس بن عبيد الجرمي أنه سأل رؤبة بن العجاج فقال هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس وهي أعدى من الجرب عند العرب فعلى هذا فالمراد بنفي الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى . ورجح عند البخاري هذا القول لكونه قرن في الحديث بالعدوى اه
والذي يظهر أن لفظ الصفر من الالفاظ المشتركة والشارع نفى كل ما كان يعتقده العرب من المعاني الباطلة . والامام الطبرى رجح تفسير البخارى من أنه داء يأخذ البطن على

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه
ولا يعضّ على شرسوفه الصفر[1]

﴿وقال آخر﴾

أردّ شجاع البطن قد تعلمينه
وأوثر غيري من عيالك بالطعم

والشجاع الحية ﴿وقال بعض شعراء بني عبس﴾ يذكر قيس بن زهير لما هجر الناس وسكن الفيافي وآنس بالوحوش ثم رآى ليلة نارا فمشى اليها فشم عندها قتار اللحم فنازعته شهوته فغلبها وقهرها ومال الى شجرة سلم فلم يزل يكدمها ويأكل من خبطها الى أن مات.

ان قيسا كان ميتته * كرم والحيُّ منطلق
شام نارا بالهوى فهوى * وشجاع البطن يختفق
في دريس ليس يستره * رب حر ثوبه خلق[2] ×

ما سبق واستشهد له بقول الاعشى

ولا يتادي لما في القدر يرقبه * ولا يعض على شرسوفه الصفر

(١) يقال أرّى بالمكان وتأرّى اذا احتبس قال الشاعر

لا يتأرون في المضيق وان * نادي مناد كي ينزلوا نزلوا

والشرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء . الضلع والصفر يكون في الجوف فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه

(٢) قوله بالهوى اسم موضع بعينه وقوله في دريس أي ثوب مندرس حقير

﴿ يقول مؤلفه محمد عبدالجواد الأصمعي بن احمدبن ابراهيم ﴾

﴿ الحسيني نسبا الحنفي مذهبا ﴾

قد تم بحمد الله تعالى أولا وآخراً طبع « الجزء الأول » من كتاب « العرب وأطوارهم » في يوم الخميس الموافق ٢٠ ربيع الاول سنه ١٣٣١ هجريه . ويليه الجزء الثاني وأوله « ومن مذاهب العرب [illegible] »

فنرجوه سبحانه وتعالى أن يمن علينا بالاتمام .

انه سميع مجيب الدعاء . ونسأله جل

شأنه أن يجعلنا ممن يؤتى

كتابه بيمينه فيقول :

﴿ هاؤم اقرؤا ﴾

﴿ كتابيه ﴾



ايها القارىء الكريم

لقد جاء هذا السفر ، كما قال فى وصفه أحد مشاهير كتاب مصر : « وأيم الحق ان هذا الكتاب لتخر له الأدباء سجدا واف بالمقصود ، يسر الحبيب ويضر [illegible]سود ، »

فاليك أيها القارىء الكريم أقدمه اليك فان رأيت هفوة فقل لعلها تحريف مطبعي كغيره من باقى الكتب أو سبق قلم ، فان ذلك من جميل المزايا وحسن الشيم ، وجليل السجايا ودواعى الكرم ،

ان الكريم اذا رأى عيبا ستر * أما اللئيم اذا رأى أفشى الخبر

ليس اللئيم يضرّ الا نفسه * والله يغفر للكريم كما غفر

وحاشاك أن تكون من هؤلاء الذين قيل فيهم :

فان رأوا هفوة طاروا بها فرحا * منى وما علموا من صالح دفنوا

صمّ اذا سمعوا خيراً ذكرت به * وان ذكرت بشرّ عندهم أذنوا

« ملحوظة » — ورد علينا تقاريظ جمة من مشاهير الكتاب المجيدين ، وفحول الشعراء المشهورين ، سنلحقها بآخر الكتاب ان شاء الله تعالى .



الجزء الاول من كتاب العرب واطوارهم

فهرست الصور والخرائط

تمت فهرست الجزء الاول

DATE DUE

